

مصطفى لطفي المنفلوطي

النظرات

وهي مختار ما كتبه الكاتب من الرسائل في جريدة المؤيد أو غيرها من الجرائد
تحت عنوان «النظرات» أو غيره من العناوين ما كتبه من الرسائل ولم ينشره

الجزء الأول

الطبعة الثانية

٢٠٢٤ م





رئيس مجلس الإدارة

سعيد عبده مصطفى

كتب ثقافية

قصص وروايات

تصميم الغلاف:

هاجر محمود

تم التنفيذ بمركز زايد للنشر الإلكتروني
بدار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل -
القاهرة - جمهورية مصر العربية

المنفلوطى، مصطفى لطفى بن محمد لطفى بن محمد،
1872 - 1924.

النظرات/ بقلم: مصطفى لطفى المنفلوطى.

ط 2 - القاهرة: دار المعارف،

مج 1، 19.5 سم.

تدمك 3 9342 02 977 978

1 - المقالات العربية.

(أ) العنوان.

تصنيف ديوى: 814

رقم الإيداع: 2023 / 5161

رقم أمر التشغيل: 17 / 2024 / 1

رقم الكونجرس: 5 - 841217 - 01 - 2

لا يجوز استنساخ أى جزء من هذا الكتاب بأى طريقة كانت
إلا بعد الحصول على تصريح كتابى من دار المعارف.

الناشر: دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج. م. ع.

هاتف: ٢٥٧٧٧٠٧٧ - فاكس: ٢٥٧٤٤٩٩٩ E-mail: maaref@idsc.net.eg

إهداء الكتاب

إن كان في هذا السفر فضيلة يعجب بها الفاضل،
أو رأي يرضى عنه العاقل، أو ديباجة يثني عليها
الأديب، فلا يد فيها لأحد من الناس غير يد هؤلاء
الرجال الثلاثة.

وليّ نفسي والدي السيد محمد لطفي. وليّ عقلي
أستاذي الشيخ محمد عبده. وليّ أمري سيدي سعد
باشا زغلول.

أولئك الذين أهدي إليهم كتابي لأنه حسنة من
حسناتهم، وصنيعة من صنائعهم، وأثر من آثار
عنايتهم ورعايتهم. وأولئك الذين أحسنوا إليّ في هذه
الحياة إحساناً لا أزال أذكر أياديهم البيضاء فيه حتى
يعتاق نفسي حمامها، وعظامي رجامها، وحتى يتولى
الله عني من بعد ذلك ما قصرت في أدائه، وعجزت عن
وفائه، فهو يتولى الصالحين، ويجزى العاملين.

مصطفى لطفي المنفلوطي

الخطبة

بسم الله الرحمن الرحيم

أما بعد حمد الله، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وصحبه وآله، فقد كنت طبعت هذا الجزء من... النظرات... منذ ثلاث سنين فكان والحمد لله موضع نظر قراء العربية جميعاً ما بين قارئ محتفل، ومقرظ معجب، وناقد مُجدّ، ومناضل مجتهد. فشكرت للقارئ عنايته. وللمقرظ رعايته، وللناقد همته، وللمناضل مروءته. ثم لم ألق على الكتاب بعد ذلك نظرة واحدة حتى علمت أنني سأعيد طبعه. فنظرت فيه كما ينظر إليه الغريب عنه. فاستطعت أن أرى حسناته وسيئاته. فحذفت من رسائله ما لا فائدة فيه. وزدت عليها ما علمت أن إثباته خير من إهماله. وهذبت كثيراً من عباراته. وأصلحت ما وفقت إلى إصلاحه من هفواته. فجاءت الطبعة الثانية خيراً من الأولى وأكثر ضبطاً وأعم فائدة والله المستعان.

مصطفى لطفي المنفلوطي

كلمات الكاتب

عن النظرات

كلمة الكاتب عن الكاتب أو الشاعر أو المؤلف خيرًا كانت أو شرًا لا يعتد بها ولا تعتبر رأيًا من آرائه الذاتية ولا فائدة من نشرها وإذاعتها إلا إذا كتبها عقوًا من عند نفسه للتعبير عن شعوره الخاص بحقيقة ما يعتقد. ولا تكون كذلك إلا اذا صدرت عنه وهو في حالة بعيدة عن إحدى الحالتين. نشوة الرضا وسورة الغضب. أي أنه لا يكتبها مجاملة في ود، ولا تلبية لاقتراح، ولا تخلصًا من إلحاح. ولا خضوعًا لعاطفة انتقام. لذلك رأيت أن أنشر هنا من كلمات الكتاب ما كان على هذه الشريطة مما اتفق لأصحابه أن كتبوه في الصحف أو كاتبوني به ليدخل القارئ على الكتاب من بابه. ويتصوره قبل النظر فيه.

كلمة الدكتور يعقوب صروف

صاحب مجلة المقتطف

الكتاب مواضيعه شتى أكثرها أدبي وقد خاض الكاتب عباها خوض غائص على الآلى، وجال في رياضها جانبًا أثمارها، منظمًا أزهارها، يرشده خيال قوى وتمده لغة انقادت إليه مفرداتها وتراكيبها، وقد أعجبنا بكل ما تصفحناه منه لفظًا ومعنى.

كلمة الشيخ محمد المهدي

أستاذ تاريخ الأدب العربي بالجامعة المصرية

قد كنت أشوق ما أكون إلى نظراتك لأنني أراها كفيلة بإعادة اللسان العربي إلى جدته بعد أن أخلقه الزمان. فلما تفضلت بها على الناطقين بالضاد شكرت لك شكر المعترف بفضلك.

كلمة عبد الرحمن أفندي زغلول

أستاذ الأدب العربي بمدرسة دارالعلوم

كتابك كما جرى به المثل نسيج وحده يمر القارئ بما شاء من أقلام المتأخرين حتى ينتهي إلى كتابك فإذا هو كالمسافر في الصحراء ينتهي بعد جو بها إلى واحة أو موضع خصيب فيه ما تطيب به النفس من خضرة وظل وماء. نعم وإن في كتابك لآية على أن سلامة الفطرة وطول أمد الممارسة يبلغان بالمرء حيث شاء. وإن فيه لآية على أن القلم الخالف كالسالف أهل لأن تهبط عليه الحكمة يجليها في اللباس العربي الصميم. وأن فيه لآية على أن القول المستقيم الذي لا يعلق به تكلف يستولي على النفس ويأخذ بمجامع القلب. ولهذا جرى قولك مني في الوجدان شوطاً بعيداً.

كلمة أحمد حافظ بك عوض

المترجم بالمعية السنية

إن قلمًا مثل قلمك السيال ، ومخيلة كمخيلتك ، وبلاغة كبلاغتك

الآخذة بمجامع القلوب، وروحاً مثل روحك المتشع كالنور لا يقف
دونه ستر ولا حجاب، الجدير بأن يضعك في أعلى صفوف الكتاب
المفكرين الذين يخلد تاريخ الأدب اسمهم أبد الآبدين.

كلمة صلاح الدين أفندي القاسمي **أحد كتاب سوريا**

وَهَبَ السيد المنفلوطي ملكة خارقة في الوصف تكاد تكون طبعاً
وسليقة. وإني لأقرأ له القطعة الأدبية فيخيل إليّ من سحرها أن
نفحة من قلم «هيكو» وتهب عليّ فلا أكاد أتم قراءتها حتى أهم
بإعادتها المرة بعد الأخرى. وأحمد الله على أن وجد في هذا العصر
من ينفخ في هذا الهيكل البالي من الأدب روحاً جديدة ليحيا حياة
رغد وهناء.

كلمة الشيخ طه حسين **أحد كتاب مصر**

لقد كنت أمقت المؤيد كل المقت إلا يوم تنشر فيه نظرة أو
أسبوعية. فقد علم الله أنني كنت أشغف به كل الشغف وأقبل عليه
كل الإقبال. فإن الذي يكلفني عرف القربة إلى مغني البوسفور
والبيلفدير ومهرجان النيل هو بعينه الذي يكلفني قراءة المؤيد يوم
تنشر فيه مقالات هذا الكاتب الكبير.

كلمة الشيخ محمد شلبي **المفتش بنظارة المعارف**

إني أهني العالم العربي بذلك القلم السيال الذي يهديه إلى منهج

السداد هداية القائد الباسل المجرب من يقود من الجنود إلى الفوز والانتصار.

كلمة لطفي بك السيد

مدير الجريدة

من أشياخ البيان عندنا السيد مصطفى لطفي المنفلوطي. أكاد لا أجد له في طريقته مثيلاً بين كتابنا. فإنه يمتاز بالمساواة وقل من يعرف المساواة. يمتاز باستعمال ألفاظ الخصوص فلا يلبس معنى إلا لفظه الذي يكاد لا يشاركه فيه معنى آخر. ويطرق الموضوعات الصعبة البعيدة فيقربها من القارئ ويجعله يظن أنها من مألوفاته ولم تكن كذلك من قبل. وأقول من غير محاباة وفي يدى نظرات المنفلوطي أن السيد مصطفى هو الثمرة الناضجة للعصر الكتابي الحاضر. جمع بين أفكار التمدن وأسلوب العرب الأصيل. فكان كتابه النظرات بذلك إحدى المعجزات عند من يظنون أن الغرب غرب والشرق شرق. وأنهما لا يزالان كذلك ما بقي البعد بين مطلع الشمس وبين مغربها.

كلمة ولي الدين بك يكن

صاحب كتاب العلوم والمجهول

السيد مصطفى لطفي المنفلوطي رجل من كبار كتاب القلم في زماننا، فهو من كتاب الطبقة الأولى وشعراء الطبقة الثانية. له نثر

يستميل القلوب ويوافق الطباع سهل فصيح ألفاظه أرفع من معانيه.

كلمة جرجي بك زيدان

صاحب مجلة الهلال

إن ظهور كاتب بليغ مثلك ينشر الآراء الحرة الناضجة في جريدة كبيرة مثل جريدة المؤيد يبعث على الأمل بدخول هذا القطر في طور جديد. فاقبل أيها الصديق شكري لك بالنيابة عن قراء العربية جميعاً، لأنك نشطت حرية القول وطرقت باب الانتقاد الصحيح وأحييت آداب هذا اللسان بما أدخلته في الإنشاء العربي من الأسلوب العصري الجميل، فأجدت وأبدعت إلى الغاية التي لا غاية وراءها. وإني أترجم لك في قولي هذا عن شعور جميع الذين يقرءون رسائلك بلذة وإعجاب واعتراف بأنها الرسائل الفريدة التي جمعت بين بلاغة صدر الإسلام، وأدب هذه الأيام.

كلمة المرحوم محمد أفندي راضي

أحد أدباء مصر

إني قرأت الشيء الكثير من كتاب النظرات مرتين في ليلتين متواليتين ولا أزال أرى نفسي تشفق إلى الاستزادة من تلاوته والإكثار من ترديد عباراته. وإني أعتقد أن هذا التناهي في الشوق هو أجل أثر يمكن أن يغادره كتاب جليل في نفس قارئه. وهو وحده كفيل بأن يكون ميزاناً للحكم عليه.

كلمة أنطون أفندي الجميل

صاحب مجلة الزهور

المنفلوطي صاحب النظرات الصائبة عرفته مصر وتناقلت
نفثاته صحف القطار فعرفته البلاد العربية. والريحاني صاحب
الريحانيات عرفته سوريا وأمريكا ومصر كاتباً عربياً كما عرفه
الأنكلو ساكسون كاتباً إنجليزياً. ولكلا الكاتبين مقام رفيع في قومه.
ومنزلة سامية عند قرائه. وهما يتشابهان في أشياء ويختلفان في
أشياء. وعرفتُ الاثنين فعرفت فيهما نفسيين منزهتين وإن اختلفا
في المبدأ والنظر إلى الأمور. يدافع كل منهما عن رأيه وفكره دون أن
يغضبك في رأيك وفكرك؛ رائدهما الوئام، وغايتهما السلام.

نظر المنفلوطي والريحاني إلى المجتمع الإنساني فحكم عليه كل
منهما حسب المكان الذي وقف فيه لينظر. لم يعرف الأول من بلاد
الله إلا مصر. ولكن مصر مجتمع قارات ثلاث فكأنه عرف بلاداً
كثيرة إذ عرفها. وزار الثاني آسيا وأفريقيا وأوروبا وأمريكا فعلا.
وبعد هذه السياحة عاد الاثنان إلى عيشة الانفراد والخلاء وأخذا
ينظران إلى الإنسان ومدنيته من خلال نظرات الطبيعة الصافية،
فهزأ الريحاني من سخافات الإنسان وضحك، وأن المنفلوطي وشكا،
فكان قلمه ما وصفه به في قوله:

فتراه ورقاء تنذب شجوا وتراه رقطاء تنفث نارا

ولكن الاثنين – هذا في تأله وذاك في تهكمه – قد أحبا الإنسانية
حباً جمّاً، ولعل هذا معنى الابتسامة التي لا تفارق ثغر الاثنين.

كلمة حافظ بك إبراهيم

مترجم البؤساء

قدم أحد أقبال اليمن إلى دار الندوة للمنافرة فبصر فيها بصاحب الشريعة الإسلامية وهو إن ذاك غلام مراهق فقال لمن حضر من القوم: إن هذا الغلام ينظر إليكم بعيني لبؤة. وتارة بعيني عذراء خفرة. فلو أن نظرتة الأولى كانت سهماً لانتظمت أفئدتكم فؤاداً. ولو أن الثانية كانت نسيماً لأنشرت أمواتكم. وكذلك أراك في نظراتك إلى قومك أيها الكاتب الكبير. فلو أنك غير معصوم، وأن الله قد أجل مقام النبوة عن الأشباه والنظائر لقلت ما أشبه هذه بتلك.

كلمة سلمي أفندي سركيس

صاحب مجلة سركيس

السيد مصطفى المنفلوطي هو الكاتب البليغ الذي ينشر المؤيد منذ سنة رسائله فيتهافت الأدباء على قراءتها والإعجاب بأدب كاتبها وسعة مداركه وغزارة مادته، ويدهشهم أنه لا يعرف لغة أجنبية ومع ذلك ففي أكثر رسائله يتصور القارئ أنه يطالع هوجو.

كلمة الشيخ محمد سليمان

صاحب كتاب الأدب العصري

السيد المنفلوطي أقدر الكتاب على إدخال المعاني في أدمغة القارئ وصب الأفكار الحديثة في الألفاظ القديمة وسبكها في قوالب عربية محكمة.

كلمة جريدة الاتحاد المصري

لو كان الكاتب من أفراد تلك الأمم التي تقدر الكتاب قدرهم وتعرف حسناتهم الكبرى لسارت به شهرته الأدبية إلى المجد والثروة من أقرب سبيل ولكن حسبه هذا رضى فئة قليلة عن فضله الكثير وإن الكرام قليل.

كلمة أحمد أفندي فؤاد

صاحب جريدة الصاعقة

كاتب إذا كتب نفث السحر، ونثر الدر، وتصرف بين جد أمضى من القضاء، وهزل أعذب من الماء، فإن شاء جرد عضبا. وأثار حربا، وأجرى الدماء أنهارًا، وأطلع الكواكب نهارًا، ووقف في ملتقى الأجفان، وتغلغل في مجامع الأضغان. وإن شاء صور لك فوق صفحة القوطاس روضة أريضة يتدفق ماؤها. ويتفرق هواؤها. وأراكها تزخر بالولدان والخور. كأنهن اللؤلؤ المنثور. وأسمعك سرار الحب. وخفقان القلب. وخواطر النفس. وهواجس الحس. وإذا نظم أراك قبة السماء تزهو بالنجوم. وأرشفك كؤوس الصهباء تذهب بالهموم. أبيات معتنقات. وقواف منتسقات. ومعان تدب في الأعضاء دبيب الغناء. وتتمشى في الأحشاء. تمشي البرء في الداء.

كلمة جريدة مصر الفتاة

صاحب النظرات علم أنه يكتب للأمة التي تتألف من الخاصة

والعامة على قلة الأولى إلى جانب الثانية. وعلم أيضًا أن الواجب يطالبه بإفادة تينك الطائفتين فانظر كيف تكون مقدرة الكاتب إذا انطلق قلمه في هذه السبيل فاستحوذ على القلوب وأرضى الأمة في صنفها.

كلمة مجلة الملاجئ العباسية

امتاز حضرة الكاتب المجيد السيد مصطفى لطفي المنفلوطي في كل ما يكتبه بالانسجام ومتانة الأسلوب وفصيح الألفاظ وحسن التركيب وسهولة التعبير وتقريب المعنى البعيد. وحسب الكاتب فخرًا أن تجتمع لقلمه هذه الصفات. لذلك لم يجمع قراء العربية خاصتهم وعامتهم على استحسان نفثات كاتب عربي إجماعهم على استحسان ما يسطره قلم ذلك الكاتب المجيد.

كلمة مجلة رعمسيس

نشأ للعربية في أوائل هذا القرن كاتب بليغ يصح أن يدعى واضع أساس الإنشاء العربي في مصر ونعني به السيد مصطفى لطفي المنفلوطي أعظم أدباء البعثة الفكرية الأخيرة وأبلغ من كتب في العصر من حيث رشاقة العبارة ورقة التعبير وتصوير الحوادث تصويرًا حقيقيًا يضرب به المثل في متانة التركيب وحسن اختيار الألفاظ. ولقد امتاز على الخصوص بأن يصوغ المعنى الدقيق في قالب الرقيق فيظهر أبدع صحيفة من صحف الإحساس وأجل أثر من آثار الشعور الطيب. ومما زاد في نبوغه ودل على مقدرته العجيبة أنه عمد إلى

الأفكار فحللها وشرحها واستجلى أدق خفاياها فعبّر عنها بتعابير لم تتفق لواحد غيره من كتبة هذا العصر. فكل ما تتأثر به النفس وكل ما يخفق له القلب وتهتز له الجوارح وجد له صوراً تمثله بأجلى بيان للتصور. وبعبارة أصرح أنه أخضع أعنة الألفاظ لعواطفه وتصوراته وأبرز بها مخدرات معان لم يوح بها إلا إليه.

كلمة جريدة المؤيد

إن هذا الأسلوب البدوي في منزعه، الحضري في معانيه، القريب إلى أنواق الخاصة، غير البعيد عن أذهان العامة، هو الحلقة المفقودة في سلسلة الكتابات العربية، وهو الذي يجب أن يكون أسلوب اللغة العربية السائد في أقلام الناشئة الحديثة في هذا العصر حتى تأمن اللغة من السقوط والضياع بين كاتب متعمق لا يكتب إلا لعدد قليل من القادرين على فهم ما يكتب والمستعدين للتأثر بأسلوبه الغريب عن عامة الأذهان والأسماع، وبين ضعيف المادة اللغوية متبذل يهدم من بناء اللغة في كل يوم حجراً هدمًا لو استمر طويلاً لا يبقى فيها حجر على حجر.

كلمة ميخائيل بك شاروبيم

صاحب تاريخ الكافي

نوابغ الكتاب في مصر ثلاثة.. محمد أفندى مسعود، محمد بك المويلحي، مصطفى لطفي المنفلوطي.

كلمة صلاح الدين أفندي القاسمي أيضا أحد كتاب سوريا

لا بدع إذا بودئ الأستاذ المنفلوطي صاحب هذا الكتاب لأول وهلة بما ناله من معارضية من بذاءة اللسان والتسفيه في القول مما نجله عنه لأنه سنة في المجددين منذ القديم. فهذا غستاف فلوبر الكاتب الفرنسي الذي كان في عصره بهذه المثابة ولم يكتب لآثاره أن يرتاح لها الرأي العام أصبح القوم اليوم يعبدونها ويمجدونها ويسبحون بحمدها.

كلمة وهي بك

مدير المدارس القبطية

نوابغ الكتاب في مصر اثنان.. محمد بك المويلحي والسيد مصطفى
لطفى المنفلوطي.

كلمة المرحوم محمد أفندي إمام العبد

أحد أدباء مصر

كان مصباح الشرق آية محمد وإبراهيم وكان الكتاب في ذلك العهد
يرصدون اليوم الذي يشرق فيه ذلك المصباح من بين أنامل القطبين،
وتتفجر فيها أنهار البلاغة من كرم هذين القلمين. حتى تنكر
الزمن لأمر في نفسه فبان القلم أضعف ما يكون ضعيفا في يد أقوام
قيدوه طليقاً، وأذلوه عزيزاً، وباتت الألفاظ تتململ على الطروس
تململ السقيم وقد أخذه الداء، واصطلحت عليه مختلفات الأمراض
حتى كدنا نصلي على أم اللغات صلاة الجنازة! فرأى أستاذنا العالم
بأسرارها الواقف على دقائقها السيد مصطفى لطفى المنفلوطي أن
يعيد إليها جدتها بذلك القلم الناطق الذي نبت في رياض الجنة فما
هي حتى بصرنا بنور يتلألأ على صفحات المؤيد بعثه المنفلوطي على
الكون من سماء أدبه تحت جمال النظرات التي جعل لها الأدب في
كل أسبوع عيداً تلبس فيه اللغة أحسن حلة.

ضرب السيد الكبير الأستاذ مصطفى لطفى المنفلوطي بنظراته
في ذلك المجتمع الإنساني فصوّره للناظرين بتلك الريشة التي لو

اهتدى إليها رفائيل لوصلت إليه الدنيا في فجر يوم سعيد. وما زال يتنقل فيه بدافع النفس الطاهرة حتى هدى نفوس أخذها السأم. واستولى عليها اليأس، وغم عليها الأمر فكادت تذهب بدافع اليأس إلى حيث لا يتسرب إليها الإرشاد ولا يصل إليها بصيص من نور الهداية. وهناك الشقاء الدائم والعذاب المقيم.

في تلك النظرات كاتب وضع الوجود في كفة ونظر نظرة الحكيم فمرت كل المراثيات أمام فكره فأتى على كل ما يضمه المجتمع الإنساني وعرضه علينا صورة صورة في ألفاظ كأنه أصابها من بحر عمان، ومعان عصر نفسه عليها بديع الزمان.

جال المنفلوطي جولة في كل شىء فتراه إذا كتب في الشقاء صغرت الدنيا عن التصغير. وإذا كتب في معنى الإنسان عرف القلم مقرا الضمير، فهو يبكي إذا شاء ويضحك إذا شاء. ويصل بعقل القارئ في لمحة إلى مدى لا يصل إليه الإنسان ولو بات الدهر طوع عمره.

ترجمة الكاتب

«بقلم حضرة الكاتب المشهور أحمد بك حافظ عوض»

نسبه:

وُلد السيد مصطفى بن محمد بن محمد بن حسن بن محمد بن لطفي في مدينة منفلوط من مدن الوجه القبلى في جنوب مصر سنة

١٨٧٦ ميلادية الموافقة لسنة ١٢٩٣ هجرية من أبوين كريمين ينتهي نسب أولهما إلى الحسين بن عليّ بن أبي طالب d وثانيهما إلى أسرة جور بجى التركية المعروفة بالشرف العظيم والمجد المؤثل. وأسرته لأبيه في مدينة منفلوط أسرة مشهورة بالشرف والتقوى والعلم والفضل، وأكثر أفرادها من نحو مائتي سنة قضاة شرعيون ونقباء أشراف. ووالده السيد محمد لطفي قاضى منفلوط الشرعي اليوم وعين أعيانها.

دراسته:

خرج من المكتب حافظاً للكتاب الكريم في سنة ١٨٨٨ ميلادية فأدخله والده مدرسة الأزهر الشريف فما مرت به سنوات قلائل حتى عرف بين أقرانه بالذكاء والفتنة وسلامة الذوق في الفهم. ثم نزعت به نفسه إلى مذهب في التعليم غير المذهب الذي يذهب إليه الأزهريون في دراستهم. فكان لا يطالع دروسه في الكتب الأزهرية إلا على صورة تكفل له فهم جواهر المواضيع والتثبت من حقائقها، غير حافل بما تشتمل عليه عادة من المناقشات اللفظية والمنازعات القشرية. فكان لهذه الخطة في التعليم أعظم تأثير في سلامة ذوقه وصفاء ذهنه. وأصبح له متسع من الوقت ينفقه في دراسة ما تيسر لديه دراسته في كتب الطبيعة والأخلاق والأدب والحكمة حتى غلبت عليه تلك العلوم خصوصاً الأدب منها وشغف بها عما سواها شغفاً ملك هواه واستأثر بلبه. فعلت مداركه وصقلت مرآة ذهنه

وهتف بنظم القطع الشعرية والجمل النثرية وضمنها ما شاء الله أن يضمها إياه من فنون الشعر وأفانين القول في الأخلاق والآداب والانتقاد والوصف. ولكن كان ذلك في بادئ الأمر كما يمكن أن يكون. لا كما يجب أن يكون. ثم لحق بعد ذلك بالمرحوم الشيخ محمد عبده ولصق به لصوق الولد بأبيه وأكثر من مصاحبته في درسه ومنزله ومقدمه ومنصرفه عشر سنين كاملة فأكمل من علمه ما كان ناقصاً ونضج من أدبه ما كان غير ناضج، وكان الأستاذ رحمة الله عليه يعجب به كل الإعجاب ويثني على ذكائه وفطنته الثناء الجميل. و يعلل نفسه بأنه سيكون من أفضل المنتفعين بعلمه والناشرين لمبادئه وتعاليمه. وما زال هذا شأنه معه حتى لحق الشيخ رحمة الله عليه بربه فحزن عليه المترجم حزناً شديداً حملته على هجر الأزهر وسفره من القاهرة وانزوائه في بلده منفلوط برهة من الزمان كاد ينساه الناس فيها حتى طلعت طلائع رسائله المشهورة في جريدة المؤيد سنة ١٩٠٨م، فالتفت القارئون لها ثم زحفوا إليها ثم تراحموا عليها تراحم الإبل الهيم على وردها، فكانوا يعدون لها أيام الأسبوع يوماً بعد يوم ويترقبون لرؤيتها ما يترقب الضال في ظلمة الليل البهيم من الفجر الطالع، والظامئ في المهمة القفر من الغيث الجامع، فكانت ترد عليه الرسائل العديدة عشرات ومئات من أدنى مصر إلى أقصاها ومن كافة الأقطار العربية متضمنة الأسئلة المختلفة

في الحوادث والوقائع والمسائل الاجتماعية والأخلاقية. فأصبحت الأمة تعدده منارها الذي تهتدي به في ظلمات الشبهات، وموئلها الذي تعتمد عليه في حل المشكلات. ولا أظن أن الأمة العربية لهجت بيان كاتب وجمال أسلوبه ودقة مسلكه في هذا العصر الأخير شغفها برسائل المترجم. ولا أظن أن السبب في ذلك إلا أنه قد فاجأهم من ذلك الأسلوب العربي الفصيح بما لا عهد لهم بمثله إلا في رسائل بلغاء الكتاب الأدبية، ومراسلاتهم الخصوصية، بعدما تلوثت أقلام أكثر الكتّاب في الصحف باللهجة الأفرنجية تارةً والصحافية تارةً أخرى.

أخلاقه:

أما أخلاقه فانقباض عن الناس ووحشة يحسمها الرائي صلفاً وكبراً، وما هي بالصلف ولا الكبر، ولكنها الرزانة والوقار والأنفة والعزة والبعد عن سفاسف الأمور وصغائرها والترفع عن مخالطة كل من لا تعجبه أخلاقه، ولا تجمل في نظره أطواره. وعفة حتى عن مد يده إلى أبويه لأنه قد قنع بما في يده من المال القليل فزهد فيما سواه، وأحسن ما يعرفه له الناس في باب العفة والشهامة أنه ما أخذ في حياته أجراً على أدبه ولا انتفع من وراء قصائده أو رسائله بدانق أو سحتوت. وكرم في الخلق طالما كان سبباً في وصول الأذى إليه وكان آخرعهده بذلك الأذى تلك القضية التي رفعتها عليه النيابة

العمومية من نحو خمسة عشر عامًا من أجل قصيدة رأت أنه مس فيها كرامة الجنب الخديو ثم دارت الأيام فأظهر مولانا الكريم تعطفه بالرضى عنه عندما تبين له حسن قصده وسلامة ضميره. وسخاء وجود بكل ما تملك يمينه. وأدب وحياء وحلم يظنه الظان عجزاً وضعفاً إذا غضب وقليلًا ما يفعل فهو الليث قوة وشجاعة. وصمت طويل يحسبه الناظر عياً فإذا تكلم بذ القائلين. وإيمان قوى كالطود الراسخ لا تذهب به العواصف ولا تلوى به حوادث الدهر وفواجعه. فما رئي في يوم من أيامه ملما بما يفسد عليه دينه أو مروءته، ولا ضعيف الثقة بالله في حالي عسره ويسره، وشدته ورخائه. وصبر جميل على ما يذهب بلب الحكيم ويطير برشد الحليم من حوادث الأيام ورزاياها. فقد مات له طفلان في أسبوع واحد فسكن لهذا الحادث الملم سكوناً لا تخالطه زفرة ولا تمازجه دمعة على شدة شغفه بهما. ثم ماتت زوجته بعد ذلك وكانت أحب الناس إليه فجلس إلى أصدقائه يحادثهم ليلة وفاتها كأنما المرزوء بذلك الحادث سواه. ولقد لقي في حياته كثيراً من غدر أصدقائه وعشرائه الذين أوقعه في شرك صداقتهم طهارة قلبه وبياض سريرته والذين طالما أحسن إليهم وكانت له اليد الطولى في تعليمهم أو تقويم أود عيشهم، فما حفل بذلك ولا بالى به بل كانت كلمته الوحيدة التي كان يقولها حينما تدب إليه تلك العقارب «إن الله وحده هو الذي يستطيع أن يغير طبيعة الإنسان»، وأجمل ما يعرف له أخصاؤه من

الأخلاق النادرة أنه يحيا حياة ذاتية غير حافل تلك الحياة الإضافية التي يحيها كثير من الناس الذين لا يعرفون لهم حياة إلا في أفواه الناطقين، وآذان السامعين. فليس أحقر في نظره من مدح المادحين له ولا أصغر في نفسه من انتقاد المنتقدين عليه. فلو أن الناس جميعا أجمعوا على انتقاد خلة من خلاله لما ثناه ذلك عنها، ولو أنهم اتفقوا على رأي مناقض لرأيه لما نال ذلك من عقيدته. وكثيرا ما كان يقول له العالم الفاضل سعد زغلول باشا «إني لأرى لك في كتابتك شخصية أتمنى أن أجدها كثيرا في أقلام الكاتبيين». وكثيرا ما كنت أسمعه يقول «لا طلعت عليّ شمس ذلك اليوم الذي يرضى فيه عني الجاهل أو يعجب برأيي فيه البليد». وليس أبغض إليه من الكذب ولا أحب إليه من الصدق فيبغض حتى المبالغة في البشاشة والإغراق في الحفاوة. ويحب حتى العتاب المر والتقريع المؤلم ما دام المتكلم صادقا في قوله مخلصا في مذهبه. ولقد كان هذا سببا في حبه للعزلة وميله إلى اجتناب المعاشرة والمخالطة، كأنه يطلب من الناس غير ما يطلب الناس بعضهم من بعض. وبالجملّة فإن كان في أخلاق المترجم مأخذ ففي هذا الخلق خلق النفرة من الناس والعجز عن احتمالهم على علاقتهم، ولبسهم على سواتهم.

سياسته

سياسته سياسة كل وطني يتهالك وجدّا على حب وطنه ويزدرف الدمع حزنا عليه وعلى ما حل به من ضعة الحال. وفقدان الاستقلال.

ومن كلماته المأثورة عنه في هذا الموضوع قوله «لو علمت أن حياة مصر لا تتم لها إلا بفقدان حياتي لكان سبيل الموت أشهى إليّ من سبيل الحياة» وليس له حزب خاص ينتمي إليه ولا جريدة خاصة يتعصب لها. أما الأحزاب فرأيه فيها أن تعددها مُضرٌ بمصلحة الوطن وأنه يجب أن تكون الأمة كلها حزباً واحداً لأن أقل ضغينة سياسية تقع بين أفراد الأمة تنتقص من استقلالها بمقدارها. وأما الجرائد فرأيه فيها أنها بين جريدتين إحداهما تبالغ في إرضاء الأمة وممالأتها على كل نافع وضار من شؤونها وهذه تشبه أن تكون متاجرة بالعقول، والأخرى تقسو في إرشادها وهذه لا تستفيد منها الأمة كما يجب أن يكون. فهو يرى أن الأمة لا تزال حتى اليوم في أشد الحاجة إلى قائد شديد الإخلاص في عمله، جم الحكمة في قوله. وليس بينه وبين جريدة من الجرائد علاقة خاصة حتى الجرائد التي كان يكتب فيها رسائله. فلم يكن بينه وبينها أكثر مما يكون بين أي كاتب يكتب رسائله مطلق الحرية في أية صحيفة يتوسل بانتشارها إلى نشر آرائه وأفكاره، فإن لاقاها في شيء من مبادئها ومذاهبها لاقاها مصادفة واتفاقاً، وإن فارقها في ذلك فارقها طوعاً واختياراً.

أدبه:

قلّ أن يوجد بين الكتاب الذين يذهبون مذهب كتاب العربية الأولى في علو تراكيبهم وبلاغة أساليبهم من يستطيع أن يخوض

بقلمه غمار هذه المدنية الحديثة وأن يتناول به هذه المعاني العصرية والآراء الجديدة التي حدثت بعد وقوف اللغة العربية عند الموقف الذي وقفت عنده محتفظاً بخطته في الكتابة ودرجته في الأسلوب. وقل أن تجد بينهم من يستطيع أن يرضي الخاصة بقلمه وحسن إلى العامة بيانه وإفصاحه. فهو إن علا غم على العامة أمره. وإن نزل أغضب الخاصة قلمه. أما المترجم فهو على ما أرى الكاتب الفريد الذي يحافظ على أسلوبه البليغ في جميع حالاته وشؤونه سواء في ذلك المعاني المطروقة لكتاب العربية الأولى أو التي لم يكتبوا عنها شيئاً ولم يرسموا لها أسلوباً. مما يدل على أن السليقة العربية ملكة من ملكاته، لا عارية من عواريه. كما أنه الكاتب الوحيد الذي يستوى في فهم معانيه وأغراضه وفي الإعجاب بفصاحته وبيانه فطاحل الأدباء وأصاغر البسطاء، مما يدل على أنه يكتب بقلمه لا بقلمه، وأنه يحدث الأفتدة والصدور، لا الصحائف والسطور.

فإن كان صحيحاً ما يقولون من أن الكتّاب المجيدين في هذا العصر إنما يستمدون روح كتاباتهم من اللغات الأجنبية، ويستنزلون من سماء قرائح شعراء الأفرنج وحي خيالاتهم الشعرية، فالسيد المنفلوطي الذي لا يعرف لغة غير اللغة العربية. ولا يلجأ إلى وحي غير وحي الخواطر النفسية ونادرة كتاب العربية في هذا العصر. أما نثره فقد عرفه الناس في نظراته، وأما نظمه فسأورد منه ما عثرت عليه وإن كان قليلاً من كثير، وقطرة واحدة من بحر غزير.

قال في وصف القلم

يا يراعي لولا يد لك عندي عفتْ نظمي في وصفك الأشعارا
يا يراعي الأديب لولاك ما أض بج حظ الأديب يشكو العثارا
غير أنني أحنو عليك وإن لم تك عوناً في النائبات وجارا
أنت نعم المعين في الدهر لولا أن للدهر همة لا تجارى
يتجلى في النفس شمس نهار في دجى الليل تبعث الأنوارا
جمع الله فيه بين نقيضيه ن فكان الظلام منه نهارا
فهو حيناً نار تلتظى وحيناً جنة الخلد تنشر الأزهارا
وتراه ورققاء^(١) تندب شجوا وتراه رقطاء^(٢) تنفث نارا
وتراه معنياً إن شدا حد رك بين الجوانح الأوتارا
وتراه مصوراً يرسم الحس من ويغرى برسمه الأبصارا
فتخال القروطاس صفحة خد وتخال المداد فيه عذارا
هو جسر تمشي القلوب عليه لتلاقي بين القلوب قرارا
صامت تسمع العوالم منه أي صوت يناهض الأقدارا
فهو كالكهرباء غامضة الكن ه وتبدو بين الورى أثارا
كم أثار اليراع خطبا كميناً وأمات اليراع خطبا مثارا
قطرات من بين شقيه سالت فأسالت من الدما أنهارا
كان غصنا فصار عوداً ولكن لم يزل بعد يتحمل الأثمارا

(١) الورقاء: الحمامة.

(٢) الرقطاء: حية خبيثة.

كان يستمطر السماء فحال الد امر فاستمطر العقول الغزار

يسعد الناس باليراع ويلقي ربه ذلة به وصغارا
وأشقاء الأديب هل وتر^(١) الده ر فلا زال طالبا منه ثارا
أرفيق المحراث يحيا سعيدا ورفيق اليراع يقضي افتقارا
ما جنى ذلك الشقاء ولكن قد أراد القضاء أمرا فصارا
ليس للنسر من جناح إذا لم يجد النسر في الفضاء مطارا
حاسبوه على الذكاء وقالوا حسبه صيته البعيد فخارا
أوهموه أن الذكاء ثراء فمضي يسحب الذبول اغترارا
يجب النقد للقصيدة نقدا ويرى البيت في القصيدة دارا
ليس بدعا من هائم في خيال أن يرى كل أصفى دينارا
إن بين المداد والحظ عهد وذمما لا يلتوي وجوارا
فالببيب اللبيب من ودع الطر س وولى من اليراع فرارا

وقال على لسان عامل فقير

زاحفت أيامي وزاحفتني دهرا فلم تنكل ولم أنكل^(٢)
لا عزمها واه ولا عزمتي تصادم الجنادل بالجنادل
رمت فلم تبق على مفصل لكنها طاشت عن المقتل

(١) وتره: أصابه بئرا يقول كأن الدهر موتور لذلك الأديب فهو يطالبه بالثأر.

(٢) نكل: نکس وجبن.

ولييتها أصمت^(١) فما أبغني
لا خير في الصبر على غمرة
صبرت في البأساء صبر الذي
لا فضل في الصبر لمستسلم
من عيشها إن أنا لم أقتل
لا يأمل الصابر أن تنجلي
قيد إلى القتل فلم يحفل
عنى عن الفعل فلم يفعل

عشرون عاماً لم تحل حالتي
أعدو إلى العمل في شملة^(٢)
كانها برق مصرية
تنم عن جسمي كما نم عن
يميل بي الهم مميل النقا
فمن رأني ظن بي نشوة
أقضي نهاري مقبلاً مدبراً
وصاحب العمل لا يرتضي
فإن شكوت النزر^(٣) من أجره
حتى إذا عدت إلى منزلي
أرى أيامي يشتكين الطوى
ما أشبه الآخر بالأول
خرقاء لم تكس ولم تشمل
لا يحجب الوجه عن المجتلى
نفسي غزير المدمع المرسل
بين جنوب الريح والشمائل
أجل بكأس الحزن لا السلسل
كأنني الآلة في العمل
مني بغير الفادح الثقيل
بح بي شتماً ولم يجمل
وجدت سوء العيش في المنزل
إلى يتامى جوع نحل

(١) أصمى الصيد: رماه فقتله.

(٢) الشملة: نوع من الأكسية.

(٣) النزر: القليل.

أبيت والأجضان في سهدا كأنما شدت إلى يذبل^(١)
 بين صغار سهد في الدجا يذرون دمع الثاكل المرمل
 بين ضعيف الخطو لم يعتمد وشاخص في المهد لم يحول^(٢)
 يدعون أمّا تلتضى أسى حذار يوم الحادث المشكل
 ووالدا عى بإساعفهم في العيش عى الفارس الأعزل

ما زال ريب الدهر ينتابني بالمعضل الفادح فالمعضل
 حتى رمانى بالتي لم تدع إلا بقايا الروح في هيكل^(٣)

فها أنا اليوم طريح الضني وليس غير الصبر من معقل

في لفحة الرمضاء لا أتقى وهبة النكباء لا أصطلى^(٤)
 هذا هو البؤس فهل من فتي تم له في البؤس ما تم لى

وقال ينعي على جماعة الفوضويين مذهبهم في قتل الملوك ويشير
 إلى حادثة الفوضوي الذي وضع منذ سنوات قنبلة في طريق ألفونس
 الثالث عشر ملك أسبانيا وهو عائد من الكنيسة مع عروسه في يوم
 حفلة قرانه فأصابته القنبلة خيل المركبة وقتلت بعض الحاشية

(١) جبل معروف.

(٢) لم يعتمد أي لم يتكل في مشيه على نفسه والمحول الذي بلغ حولا.

(٣) يريد بها الحمى.

(٤) الرمضاء: شدة الحر والنكباء الريح الباردة.

ونجا الملك وعرسه وقبض على الفوضى فقتل :

أيها الفاتك الأثيم رويداً كل يوم تكيد للتاج كيدا
لا أرى التاج في البرية إلا فلکاً دائراً وأخذاً ورداً
يتخطى الرءوس رأساً فرأساً ماشياً في العصور عهد فعهداً
فحال أن يهدم المرء صرحاً أعجز الدهر بأسه أن يهدأ
عبثاً تقتل الملوك وعدراً لك فيهم لو كنت تحمل حقدا
أفة العقل أن يرى الحمد ذمّاً ويرى الخطئة الدنيئة حمدا
لا يبالي بالموت من عرف الموت ومن لا يرى من الموت بدا
غير أن الآجال فينا حدود كل حي تراه يطلب حدا
أي جفن أجريت منه دموعا كان لولاك في السماكين بعدا
أي روع أسكنته في فؤاد كان في فادح الجوادث جلدا
ما بكى الفونس خشية بل غراما ودموع الغرام أشرف قصدا
إن قلب الجبان يخفق رعبا غير قلب المحب يخفق وجدا
كان بين الحياة والموت شبرٌ بَدل النحس في تجاريه سEDA
فراينا القتيل يعمر قصرا وغريم القتيل يعمر لحدا
أنت تقضى والله يقضي بعدل في البرايا والله أكبر أيدا^(١)
جمرة أطفأ القضاء لظاها فغدا جمزها سلاماً وبردا
إن للمالك الكريم قلوباً وقفت بينه وبينك سدا
فافتدته فكُن خير فداء لمليك وكان نعم المضدّي

(١) الأيد: القوة.

وقال في الوجديات:

سقاها وحيا تربها وإبل القطر
طواها البلى طى الشحيح رداءه
مرابض أساد وماوى أراقم
يكاد يضل النجم في عرصاتها^(١)
لقد فعلت أيدى السوافي بنوئها^(٢)
وقفت بها في وحشة الليل وقفة
ذكرت بها العهد القديم الذي مضى
وعيشاً حسبنه من الحسن روضة
فانثأت أبكي والأسى يتبع الأسى
وما حيلة المحزون إلا لواعج
وما أنس م الأشياء لا أنس ليلة
كان النجوم في أديم سمائها
كان الثريا في الدجنة طرة^(٣)
كان سهيلاً حاسد كلما رأى
وان أصبحت قفراء في مهمه قفر
وليس لما يطوي الجديدان^(٤) من نشر
تجاور في قيعانها الغيل بالجعر^(٥)
ويروى عن ظلماتها البدر من دعر
وأجارها ما يفعل الدهر بالحر
أثار شجاها كامن الوجد في صدرى
ولم يبق منه غير بال من الذكر
كساها الحيا منه أفانين من زهر
إلى أن رأيت الصخري يكي إلى الصخر
تفيض بها الأحشاء أو عبرة تجري
جلاها الدجى قمراء في ساحة القصر
سفائن فوضى سابحات على نهر
مرصعة الأطراف باللؤلؤ النشر
أخا نعمة يرميه بالنظر الشرر^(٦)

(١) الجديدان: الليل والنهار.

(٢) الأراقم: الحيات والغيل موضع الأسد.

(٣) العرصات: جمع عرصة وهي ساحة الدار.

(٤) السوافي: الرياح، والنؤى الحفير حول الخباء أو الخيمة يمنع السيل.

(٥) الطرة: الشعر المقدم في الجبهة.

(٦) سهيل نجم معروف بشدة الاحمرار والخفقان.

كأن السهى^(١) حق تعرض باطل
 كأن الدجى فحم سرى في سواده
 كأن نسيم الفجر في الجو خاطر
 وفي القصر بين الظل والماء عادة
 تريك عيوننا ناطقات صوامتا
 لهوت بها حتى قضى الليل نحيبه
 إليه فالقى دونه مسبل الستر
 من الفجر نار فاستحال إلى جمر
 من الشعر يجري في فضاء من الفكر
 تميس بلا سكر وتناى بلا كبر
 فما شئت من خمر وما شئت من سحر
 وأدرجه المقدار في كفن الفجر

لعمرك ما راحت بلي صباية
 ولا هاجني وجد ولا رسم منزلى
 ومن كان ذا نفس كنفسى قريحة
 كأنى ولم أسلخ^(٢) ثلاثين حجة
 أخو مائة يمشي الهوينا كأنه
 إذا شاب قلب المرء شاب رجاؤه
 حبيت بأمالى فلما كذبني
 وأصبحت لا أرجو سوى الجرعة التي
 وليست حياة المرء إلا أمانيا
 جزى الله عني اليأس خيرا فإنه
 ولا نازعتنى مهجتي سورة^(٣) الخمر
 عفاء ولكن هكذا سنة الشعر
 من الهم لا يعني بوصل ولا هجر
 ولم يجريوما خاطر الشيب في شعري
 إذا ما مشي في السهل في جبل وعر
 وشاب هواه وهو في ضحوة العمر
 قنعت فلم أحفل بقُل ولا كثر
 أذوق إذا ما ذقتها راحة القبر
 إذا هي ضاعت فالجياة على الإثر
 كفاني ما ألقى من الأمل المر

(١) السهى: نجم ضعيف.

(٢) سورة الخمر: حدثها.

(٣) سلخ عامه: أمضاه.

وراض جماحي للزمان وحكمه بما شاء من عدل وما شاء من جور
فما أنا إن ساء الزمان بساخط ولا أنا إن سرَّ الزمان بمغتر

وقال في شأن غنى من الأغنياء غلبته المدنية الحديثة على بساطته
الطبيعية فابتنى قصرا فخمًا كان سببا في فساد حاله وسوء مصيره:

يا صاحب القصر الذي شاده فاستنفذ المذخور من وجده^(١)
أقمته كالطود في هضبة ترد عادي الدهر عن قصده
أزرتَه الأبراج في جوها فانتظم الأنجم في عقده
أطلعت فيه كوكبًا دانيًا أغني عن الشاسع في بعده
قلَّصت ظلَّ الليل عنه وما رَعيت حق الله في مده
أنشأت روضًا زاهر حوله يُعطر الكون شذائده
ورحت بالرتبة في صدره تدل دلَّ الملك في جنده
كانما الرتبة كلُّ الذي يُنبِله الكوكب من سده
هب أنه اللوفر^(٢) في حسنه أو قصر يوكنهام^(٣) في جده
وهبك روكنيلر^(٤) تحوي الذي يضلُّ الحاسب في عده
فالمال إن أجهد رُبَّه فالفقر والعدم مدى جهده

(١) الوجد: الغني والسعة.

(٢) اللوفر: قصر بباريس.

(٣) قصر في لندن.

(٤) أحد الأغنياء في أمريكا.

والمال كالطائر إن هومت حراسه طار إلى فنده^(١)
 والمجد للمال وكل الذي تراه من مجد فمن مجده
 هذا شهاب ساطع مشرق والليلة الليلاء من بعده
 بنيت لبنيك فأغنيته بجذك المبذول عن جده
 بنيت ما لو قدروا قدره لقيل هذا الميت في لحده
 وأدت فيه الأمل المرتجى حيا ولم تأس على وأده
 أغمدت فيه صارما طالما ثلم الدهر على حده
 وارييت فيه ولدا ليته قضى قرير العين في مهده
 وليته ما شب في زخرف يبكي يد الدهر على رغه
 فليس من يأسى على مطلب ناء كمن يأسى على فقده
 غدرت بالبيت الذي بثك الـ سود فلم تبقي على وده
 هدمته والمجد ظل له فما بقاء الظل من بعده
 لكنت من كوخك في نعمة تذيب قلب الدهر من حقه
 وكان ينتابك مسترفدا من بت محتاجا إلى رفده
 فالיום لا القصر كما ترتجي منه ولا الكوخ على عهده
 واليوم رب القصر يذرى دما من جفنه أنا ومن كبده
 يدعو إليه الموت من بعد ما نالت يد الأيام من أيده
 وأسود ذاك الجون من جلده وبيض ذاك الجون من فوده^(٢)

(١) هوم: هز رأسه من التعاس والفند الجبل.

(٢) الجون: وصف للأبيض والأسود والفود ناحية الرأس.

هل يعلم الشرقي أن الردي وأنه يفجـونا بالأسى وإن هذا الدهر في هزله فهزله أنفذ من جده ويصح لمصـرولأبنائها نعيش بالهم ونرضي به كشارب الكأس يرى عابسا فإن لمحنا بارقا خاطفا نسرع خوض البحر في جزره والكل ظمآن يرى صادرا

سر بصدر الدهر لم يُبده يوما خروج السيف من غمده يغربالكاذب من وعده ورهـؤه أسرع من وخده^(١) مما يريغ^(٢) الدهر من كيده عيشا ونقضي العمر في نقده منه ولا يقوى على رده لا نسمع القاصف من رده وجـزره ينبئ عن مده وما قضى الإربة من ورده

(١) الرهو: السير السهل، والوخد: السير السريع.

(٢) يريغ: يريد.

وقال في الحكم

إذا ما سفيه نالني منه نائل من الذم لم يخرج بموقفه صدرى
أعود إلى نفسي فإن كان صادقاً عتبت على نفسي وأصلحت من أمري
والا فما ذنبي إلى الناس أن طغي هواها فما ترضى بخير ولا شر
وقال يهنئ الشيخ محمد عبده بعودته من إحدى رحلاته في
أوروبا

راح يباري النجم في جده وعاد كالسيف إلى غمده
رأى السري والسهد مهر العلا فجد وارتاح إلى سهده
لا يبصر الخطب جليلاً ولا تلوى به الأهوال عن قصده
مسدد العزم إذا ما مضى يحار صرف الدهر في رده
كالسيف يجلوه القراع^(١) ولا يأخذ ضرب الهام من حده
كان لمصر بعد توديعه صابئة الصادى إلى ورده
واليوم قد عاد لها كل ما ترجو من النعمة في عوده
وافتر عنه ثغرها مثلما يفتّر ثغر الروض عن ورده
بدا وقد حفت به هيبة كأنما عثمان في برده
ما فيه من عيب سوى أنه يحسده الناس على مجده
ما حيلة الحساد في نعمة أسبغها الله على عبده

وقال في قصة عربية وقعت بين أسماء بنت أبي بكر الصديق
وولدها أمير المؤمنين عبد الله بن الزبير حينما حاصره الحجاج في

(١) القراع: الضراب.

مكة حتى أخرجته ثم عرض عليه التسليم فاستشار أمه، فأشارت عليه الاستقتال فقاتل حتى قتل :

إن أسماء في الوري خير أنثى
جاءها ابن الزبير يسحب درعاً
قال يا أم قد عييت بأمرى
خاننى الصحب والزمان فم الى
وأرى نجمي الذي لاح قبلا
بذل القوم لى الأمان فم الى
فأجابت والجفن قفر كأن لم
واستحالت تلك الدموع بخاراً
لا تسلم إلا الحياة والا
إن موتاً في ساحة الحرب خير
إن يكن قد أضاعك الناس فاصبر
مت همأما كما حييت همأما
ليس بين الحياة والموت إلا
ثم قامت تضمه لوداع
لمست درعه فقالت لعهدى
إن بأس القضاء في الناس بأس
فنضاهها عنه وفر إلى المو

صنعت في السوداع خير صنيع
تحت درع منسوجة من نجيع^(١)
بين أسر مَر وقتل فظيع
صاحب غير سيفي المطبوع
غاب عني ولم يعد لطلوع
غيره أن قبلته من شفيع
يك من قبل موطننا للدموع
صاعداً من فؤادها المصدوع
هيكلاً شأنه وشأن الجذوع
لك من عيش ذلة وخضوع
وتثبت فالله غير مضيع
وأخي في ذكرك المجيد الرفيع
كرة في سواد تلك الجموع
هائل ليس بعده من رجوع
بك يا ابن الزبير غير جزوع
لا يبالي ببأس تلك الدروع
ت بدرع من الفخار منيع

(١) النجيع : الدم.

وأتى أمه النعي فجادت بعد لأيٍ بدمعها الممنوع
وقال في الشيب:

ضحكات الشيب في الشعر لم تدع في العيش من وطر
هَنَ رسل الموت سانحة قبله والموت في الأثر
يا بياض الشيب ما صنعت يدك العسراء بالطرر
أنت ليل الحادثات وإن كنت نور الصبح في النظر
ليت سوداء الشباب مضت بسواد القلب والبصر
فالصيا كل الحياة فإن مرَ مرت غبطة العمر
وقال على سبيل الفكاهة في شأن كلب اسمه «بيل» وفي لسيده
فطوقه طوقاً من الذهب وأوصى له بخمسة آلاف دينار:

ليهنك يا «بيل» الجلال وعزة يكاد لها القلب الكسير يطير
ملكّت على الزهد الألوف وكلنا إلى قطرة مما ملكت فقير
إذا كان هذا الطوق كالتاج قيمة فأنت بألقاب الملوك جدير
وما المال إلا آية الجاه في الورى فحيث تراه فالمقام خطير
ولو كان بين الفضل والجاه نسبة لزالّت عروش جمّة وقصور
فيا بيل لا تجزع قرب متوج شبيهك إلا منبر وسرير
وما أنت في جهل المقادير آية فمثلك بين الناطقين كثير
لئن فاتك النطق الفصيح كما ترى فسهمك من نطق الفؤاد وفي
وفيت بعهد للصديق وما وفى بعهد صديق جرول وجريّر^(١)

(١) جرول لقب الحطيئة الشاعر وجريّر شاعر معروف.

فما النطق إلا آفة وشرور فعش صامتاً واقنع بحضك واغتبط
وساعده في المكرمات قصير ضلال يرى الإنسان فضلاً لنفسه
وكل كبير بعد ذاك صغير وما المرء إلا صدقه ووفاءه
إذا عيَّ بالنطق الفصيح ضمير وماذا يفيد المرء حسنُ بيانه
وأنت على حسن الجزاء قدير مدحتك يا بيل لأنني شاعر
بما لم يقم للمادحين أمير ولو كنت تدري ما أقول لقلت لى

هذي ترجمة ذلك الكاتب الكبير، والشاعر الجليل، من قرأها
ورأى أنها ترجمة غير حافلة بالألقاب العلمية. والشهادات
المدرسية. التي تمتلأ بها عادة تراجم كبار الكتاب. وفطاحل
الشعراء. على أن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء.

أ. حافظ عوض

مصر في أول ديسمبر سنة

١٩٠٩.

مقدمة

يسألني كثير من الناس كما يسألون غيري من الكتاب: كيف أكتب رسائلي، كأنما يريدون أن يعرفوا الطرق التي أسلكها إليها فيسلكوها معي، وخير لهم ألا يفعلوا، فإني لا أحب لهم ولا لأحد من الشادين في الأدب أن يكونوا مقيدين في الكتابة بطريقتي أو طريقة أحد من الكتاب غيري، وليعلموا - إن كانوا يعتقدون لي شيئاً من الفضل في هذا الأمر - أنني ما استطعت أن أكتب لهم تلك الرسائل بهذا الأسلوب الذي يزعمون أنهم يعرفون لي الفضل فيه، إلا لأنني استطعت أن أنفلت من قيود التمثل والاحتذاء، وما نفعني في ذلك شيء ما نفعني ضعف ذاكرتي والتواؤها عليّ وعجزها عن أن تمسك إلا قليلاً من المقروءات التي كانت تمر بي، فقد كنت أقرأ من منشور القول ومنظومه ما شاء الله أن أقرأ، ثم لا ألبث أن أنساه فلا يبقى منه في ذاكرتي إلا جمال آثاره وروعة حسنه ورنه الطرب به، وما أذكر أنني نظرت في شيء من ذلك لأحشو به حافظتي أو أستعين به على تهذيب بياني، أو تقويم لساني، أو تكثير مادة علمي باللغة والأدب، بل كل ما كان من أمري أنني كنت امرأ أحب الجمال وأفتتن به كلما رأيته في صورة الإنسان، أو مطلع البدر أو مغرب الشمس، أو هجعة الليل، أو يقظة الفجر، أو قمم الجبال، أو سفوح التلال، أو شواطئ الأنهار، أو أمواج البحار، أو نغمة الغناء، أو

رنة الحداء، أو مجتمع الأطيّار، أو منتثر الأزهار، أو رقة الحس،
أو عذوبة النفس، أو بيت الشعر، أو قطعة النثر، فكنت أمر بروض
البيان مرّاً، فإذا لاحت لي زهرة جميلة بين أزهاره، تتألق في
غصن زاهر بين أغصانه، وقفت أمامها وقفة المعجب بها، الحاني
عليها، المستهتر بحسن تكوينها وإشراق منظرها، من حيث لا
أريد اقتطفها أو إزعاجها من مكانها، ثم أتركها حيث هي، وقد
علقت بنفسي صورتها إلى أخرى غيرها، وهكذا حتى أخرج من ذلك
الروض بنفس تطير سرورا به، وتسيل وجدا عليه، وما هو إلا أن
درت ببعض تلك الرياض بعض دورات، ووقفت ببعض أزهارها
بضع وقفات، حتى شعرت أنني قد بدلت من نفسي نفسا غيرها،
وأن بين جنبيّ حالا غريبة لا عهد لي بمثلها من قبل، فأصبحت
أرى الأشياء بعين غير التي كنت أراها بها، وأرى فيها من المعاني
الغريبة المؤثرة ما يملأ العين حسنا، والنفس بهجة، فقد كنت
أرى الناس فرأيت نفوسهم، وأرى الجمال فرأيت لبه وجوهه،
وأرى الخير فرأيت حسنه، وأرى الشر فرأيت قبحه، وأرى
النعماء فرأيت ابتساماتها، وأرى البأساء فرأيت مدامعها، وأرى
العين فرأيت السحر الكامن في محاجرها، وأرى الثغور فرأيت
الخمير المترققة بين ثناياها، وكنت أرى الشمس فرأيت خيوطها
الفضية الراقصة في جو السماء، وأرى القمر فرأيت شعاعه يهم أن
يسيل على جوانبه سيلا، وأرى الفجر فرأيت بياضه وهو يدب في

تجاليد^(١) الظلام دبيب المشيب في تجاليد الشباب، وأرى النجوم
 فرأيت عيونها الذهبية على الكون من فروج قميص الليل، وأرى
 الليل فرأيته وهو يهوي بأجنحته السوداء إلى الأرض هوى الكرى
 إلى الأجفان، وكنت أسمع خرير المياه فسمعت مناجاتها، وحفيف
 الأوراق ففهمت نغماتها، وتغريد الأطيار فعرفت لغاتها؛ فأحببت
 الأدب حبا جما ملأ ما بين جانحتي؛ فلم تكن ساعة من الساعات
 أحب إليّ ولا أثر عندي من ساعة أخلو فيها بنفسي وأمسك على
 بابي ثم أسلم نفسي إلى كتابي فيخيل إليّ أني قد انتقلت من هذا
 العالم الذي أنا فيه إلى عالم آخر من عوالم التاريخ الغابر، فأشهد
 بعيني تلك العصور الجميلة، عصور العربية الأولى، وأرى العرب
 في جاهليتها بين خيامها وأخبيتها، وأطنابها، وأعوادها، وإبلها
 وشائها، وشيحاها وقيصومها، وأرى مساجلاتها ومنافراتها،
 وحبها وغرامها، وعفتها ووفاءها، وصبرها وبلاءها، وحناءها
 وغناءها، وأسواق شعرائها، ومواقف خطبائها، وفقرها وإقلالها،
 وشحوب وجوهها، وسمرة ألوانها، وضوى أجسامها وترددها في
 بيدائها بين حمارة القيظ^(٢) وصبارة البرد^(٣)، وتنقلها من صحراء
 إلى ريف، ومن مشتى إلى مصيف، ومن نجد إلى وهد، ومن شرف
 إلى غور، وانتجاعها مواقع الغيث، ومنابت العشب، وقناعتها من

(١) التجاليد: الجسم.

(٢) شدة الحر.

(٣) شدة البرد.

الطعام بأحفان التمر وقعب اللبن وأصواع الشعير، فإذا جد الجد أكلت القد^(١) واشتوت الجلد، وتبلغت بالضرب واليربوع، وعراقيب الآبال، وأظلاف الأبقار، واكتفت من اللباس بأكسية الكرابيس وأردية الأشعار، وقمص الأوبار، فإذا أعوزها ذلك لبست الظل، وافترشت الرمل، غير ناقمة ولا ساخطة، ولا متبرمة بقضاء الله وقدره في قسمة أرزاقه بين عباده، ولا باكية حظها من رخاء العيش ولينه، ثم أراها بعد ذلك وقد أنعم الله عليها بنعمة المدنية الإسلامية، فأرى رغد عيشها، ولين طعامها واعشوشاب جانبها، وعذوبة مواردها ومصادرها، وسرورها وغبطتها بما أفاء الله عليها من ذخائر الفرس وأعلاق الروم، وامتلاء قصورها باللؤلؤ المنظوم من القيان، واللؤلؤ المنثور من الولدان، وأرى مجالس غنائها، ومجامع أنسها، ومسارح لهوها، ومجالات سبقها، وملاعب جيادها، ومذاهب طرائدها، ومواقف حجها، وازدحام شعرائها على أبواب أمرائها، وجوائز أمرائها في أيدي شعرائها، وانطلاق ألسنتها بوصف ما تشاء من الأعواد والبرابط والمعازف والمزاهر والأقداح والدنان والموائد والصحف، وألوان الطعام حلوة وحامضة، وأصناف الشراب حلاله وحرامه، والطيور المحلقة في الأجواء، والسفن الزاهية في الدأماء^(٢)، والرياض الخضراء والغابات الشجراء،

(١) السير يقد من جلد.

(٢) الدأماء: البحر.

والقصور وتمائيلها، والبحيرات وأسمائها، والأنهار وشواطئها،
والأزهار ونفحاتها، والغيوث وقطراتها، ودبيب الحب في القلب،
والغناء في السمع، والصهباء في الأعضاء، وخلجة الشك، ولمحة
الفكر، وبارقة المنى.

ثم لا أشاء أن أرى بين هذا وذاك خلقا عذبا، أو أدبا غضا، أو
حبا وفيا، أو مجونا مستظرفا، أو حورا مستملحا، إلا وجدته؛ ولا
أن أسمع ما تهتف به العاتق في خدرها، وما يحدو به الحادي في
أعقاب إبله، وما يتغنى به العاشق، وما يهذي به الشارب، وما
يترنم به الشادي، وما يساجل به الماتح^(١) إلا سمعته. ولا أن أعلم ما
يهجس في نفس المحب إذا اشتمل عليه ليله، والحائر إذا ضل به
سبيله، والثاكل إذا فجعت بواحدها، والموتور إذا حيل بينه وبين
واتره، والكريم إذا لاح له منظر من مناظر البؤس والشقاء، والغريب
في دار غربته، والسجين بين جدران سجنه، والخائف إذا وقف
بين الرضا والغضب، والمقدم للقتل إذا وقف بين الرجاء واليأس،
والبائس إذا أعوزه القوت، واليائس إذا أعوزه الموت، والعزيز إذا
ذل، والمشرف إذا هوى، والشريف إذا عبث بشرفه عابث؛ والغيور
إذا لمس عرضه لامس، إلا علمته، ولا أن أعرف خلق الدهر في تنقله
بالناس ما بين رفع وخفض، وجدة وفقر، ونعيم وبؤس، وإقبال
وإدبار، ولا أثر يده السوداء في خراب القصور، وخلاء الدور،

(١) الماتح: المستقى على البئر.

واقفار المغاني، وتصويح الرياض، إلا عرفته؛ فكنت أجد في نفسي من اللذة والغبطة بذلك ما لا يقوم به عندي كل ما ينعم به الناعمون من رغد في العيش ورخاء حتى ظننت أن الله سبحانه وتعالى قد صنع لي في هذا الأمر، وأنه لما علم أنه يكتب لي في لوح مقاديره ما كتب للسعداء والمجدودين من مال أو جاه أعيش في ظله، وأنعم بثمرته زخرف لي هذا الجمال الخيالي البريء من الريبة والإثم، وزوره^(١) لي تزويرا بديعا ووضع لي فيه من الملاذ والمناعم ما لم يضع لغيري. رحمة بي وإرعاء على أن أهلك، أو يهلك لبي بين اليأس القاتل، والرجاء الكاذب، وهكذا لا أزال محلقا في هذا الجو البديع من الخيال أضحك مرة واكتئب أخرى، وأتغنى حيناً وأبكي أحيانا حتى يرميني الباب ببعض الطارقين أو يستعيد إليّ نفسي مستعيد. ولم يكن حولي لذلك العهد ممن يستعين بمثلهم مثلي على الأدب أحد؛ لأنني كنت أعيش في مفتتح عهدي به - ولم أكن زاهيت إذ ذاك الثالثة عشرة - بين أشياخ أزهريين من الطراز القديم لا يرون رأيي فيه ولا يتعلقون منه بما أتعلق فكانوا يرون أن التوفر عليه أو الإلمام به عمل من أعمال البطالة والعبث، وفتنة من فتن الشيطان، فكان الذين يتولون أمري منهم لا يزالون يحولون بيني وبينه، كما يحول الأب بين ولده وبين ما يعرض له من فتن الهوى ونزعات الصبوة ضنا بي - يزعمون - أن أنفق ساعة من ساعات دراستي

(١) زوره: حسنه وقومه.

بين لهو الحياة ولعبها! فكنت لا أستطيع أن ألم بكتابي إلا في الساعة التي آمن فيها على نفسي أن يلموا بأمرى - وقليلًا ما كنت أجدها - وكثيرًا ما كانوا يهجمون مني على ما لا يحبون فإذا عثروا في خزانتي أو تحت وسادتي أو بين لفائف ثوبي على ديوان شعر أو كتاب أدب خيل إليهم أنهم قد ظفروا بالدينار في حقيبة السارق، أو الزجاجة في جيب الغلام، أو العشيق في خدر الفتاة، فأجد من البلاء بهم والغصص بمكانهم ما لا يحتمل مثله مثلي؛ وهم لا يعلمون - أحسن الله إليهم - أنهم وجميع من يدور به جدار مسجدهم حسنة من حسنات الأدب الذي ينقمون منه ما ينقمون، ويد من أياديه البيضاء على هذا المجتمع البشري؛ فلولاً الأدب ما استطاع أئمتهم المجتهدون فهم آيات الكتاب المنزل ولا استنباط تلك الأحكام التي دونوها لهم وتركوها بين أيديهم يستغلونها كما يستغل المالك ضيعته ويعيشون في ظلها عيش السعداء المترفين، ولولاه لما استطاع علماؤهم اللغويون أن يورثوهم هذه العلوم اللغوية التي يدرسون اليوم نحوها وتصريفها وبيانها في مجالس علمهم، ويدلون بمكانهم منها على الناس جميعاً، كما يعلمون أن الأدب هو خير ما يستعين به متعلم على علم، وأن الذوق الأدبي الذي يستفيده المتأدب من دراسة الأدب ومزاولته هو الميزان الذي يزن به ما يحاول فهمه من عبارات العلوم وأساليبها، والدليل الذي يتسمته ويترسم مواقع أقدامه في فهم أصول الدين ليكون مجتهداً إن استطاع أو واقفاً

على منازع المجتهدين، واللسان الذي يستعين به على الإفضاء بأدق أغراضه وأعمقها وأقصاها مكانا من قلبه ليكون إنسانا ناطقا، ومعلما نافعا، ولو أن هؤلاء الزارين على الأدب من علماء الدين وشيوخه - وهم اليوم والحمد لله قليل، بل هم في طريق الفناء والانقراض - قد تعلقوا منه بما كان يتعلق به أسلافهم وأئمتهم من قبل، لنالوا به في دينهم خيرا كثيرا، ولا ستدفعوا به عن أنفسهم في أمره شرا عظيما، فما زال الدين واضح المنهج قائم الحجة، وما زالت آيات الكتاب ومتون الأحاديث سائغة هنيئة، لا يلحقها الريب ولا يحيط بها الشك، ولا تطير بجنباتها الأوهام والظنون، حتى جهل علماء الدين الأدب، ففسدت أدواقهم، وضلت أفهامهم، فكثر بينهم التأويل والتخريج، ووهب تلك العقدة الوثيقة بين الألفاظ والمعاني، واسترخت عراها من أيديهم، فأصبح كل لفظ في نظرهم محتملا لكل معنى حتى ما يأبى أحدهما على الآخر شيئا، وتهافت ذلك الحاجز الحصين الذي كان قائما بين الحقيقة والمجاز، والحقيقة والخيال، فبغى بعض الكلم على بعض، وعاث كل منهما في تربة صاحبه إقبالا وإدبارا، وجيئة وزهوبا، وصعودا ونزولا، فاستطاع الواغلون في الدين والناصبون له أن يدخلوا عليه الأحاديث المنحولة الغريبة في أساليبها عن مناهج العرب ومناحيهم ما لا يضبطه الحساب كثرة، فهلكت الأمة بين هذا وذاك هلكا لا تزال تتجرع كأسه المريرة حتى اليوم.

فالحمد لله أولاً وللأدب ثانياً على نجاتي منهم فيما كانوا يرومون بي، ويحاولون مني، بل أحمداً الله إليهم كذلك، فقد كُفيت بهم - وبسوء رأيهم في الأدب ونقمتهم عليه - شرّاً من يدخل بيني وبين نفسي في المفاضلة بين شاعر وشاعر، وكاتب، أو الموازنة بين أسلوب وأسلوب، وديباجةٍ وأخرى، فلم يكن لي عونٌ على ذلك كله غير شعور نفسي، وخفوق قلبي خفقة السرور أو الألم، إن مرّ بي ما أحب أو ما أكره من حسنات القول أو سيئاته، من حيث لا أعرف سبيل ذلك ومأتاه، فكان شأني في ذلك شأن السامع الطروب الذي تطربه نغمة وتزعجه أخرى، فيطير بالأولى فرحاً وبالثانية جزعاً، وقد يكون ضعيف الإلمام بضروب الإيقاع وقواعد النغم، فكنت لا أقرأ إلا ما أفهم، ولا أفهم إلا ما أشعر أنه قد خرج من فم قائله خروج السهم من القوس، فإذا هو في كبد الرمية ولبها، فإن رأيت أن المعنى قد قام دونه ستار من التراكيب المتعازلة، والأساليب الملتوية، علمت أن القائل إما ضعيف المادة اللغوية فهو يعجز عن الإفضاء بما في نفسه لأنه لا يعرف كيف يفضي به، وإما جاهل لم يستو له المعنى الذي يريده كل الاستواء ولم يدر في جوانب نفسه حتى يستقر في قراره منها، فهو يتوهمه وتوهما ويجمعه جمجمة ويهذي به هذيانا فلا سبيل له إلى الإفصاح عنه، وإما داهية محتال قد علم أن المعنى الذي يجول في نفسه ويتردد في خاطره تافه مردول

وكان لا بد له أن ينفقه^(١) على الناس ويزخرفه لهم ويزوره^(٢) في أعينهم، فهو يكسوه أسلوبا غامضا ليكدهم ويجهدهم في سبيله حتى إذا ظفروا به بعد ذلك خيل إليهم أنهم قد ظفروا بمعنى غريب، أو خاطر بديع، ووجدوا فيه عند الوصول إليه من اللذة والمتعة ما يجد الظامى في ضحاح^(٣) الماء الكدر إذا أبعد النجعة في طلبه ووصل إليه بعد الجهد والإشقاء، وإما عاجز ضعيف القوة النفسية قد علم أن ضعفاء الأفهام من الناس، وهم سواد الأمة ودهماؤها، لا يرضون عن معنى من المعاني ولا يستسنون^(٤) قيمته ولا يقيمون له وزنا إلا إذا جاءهم في جلدة من الألفاظ المتكرسة المتقبضة، وإنهم إذا ورد عليهم أثمن المعاني وأغلاها، وأكرمها جواهر وأطيبها عناصر في ثوب من الأساليب الرقيقة الشفافة ذهب بهم الوهم إلى أنه ما جاءهم على هذه الصورة إلا لأنه ساقط مبتذل، أو سوقي مطروق فاحتقروه وازدروه، وكان يرى لضعف حيلته وسقوط همته. أن لا بد له من موافاة رغبتهم وبلوغ رضاهم، والنزول على حكمهم، فتجمل لهم باللكنة والعي! وتملقهم بالغموض والإبهام. وإما أعجمي يظن أن اللغة العربية حروف وكلمات وهو لا يعرف

(١) ينفقه - بالتشديد - يجعله نافقا: أي رائجا.

(٢) زور الشيء: حسنه وزخرفه.

(٣) الضحاح: الماء القليل في قعر البئر.

(٤) استسنى قيمته: رآها سنية رفيعة.

منها غيرهما فينطق بشيء هو أشبه الأشياء بما يترجمه بعض المترجمين من اللغات الأعجمية ترجمة حرفية، فإن نعت عليه غرابة أسلوبه واستعجابه والتواءه على الفهم كان مبلغ ما ينضح به عن نفسه أن المعاني العصرية والخيالات الحديثة لا يستطيع إلbasها الأكسية البدوية، والأردية العربية، كأنما هو يظن أن المعاني والخواطر خطط وأقسام، وأنصبة وسهام، هذا للشرق وهذا للغرب، وهذا للعرب وهذا للعجم! أما الحقيقة التي لا ريب فيها فهي أن الرجل لا ينتزع تلك المعاني من قرارة نفسه ولا يصور فيها صورة عقله. وإنما هو مترجم قد عثر بتلك المعاني في اللغة الأعجمية التي يعرفها لاصقة بأثوابها الأصلية، فلما أراد أن يفضي بها إلى العرب، وكان غير مضطلع بلغاتهم ولا متمكن من أساليبهم عجز عن أن ينزع عنها أثوابها اللاصقة بها فنقلها إليهم كما هي إلا ما كان من تبديل حرف بحرف أو لفظ بآخر من حيث يظن أنه يهتف بشيء قام في نفسه أو يفضي بخاطر من خواطر قلبه، وإما شحيح يأبى له لؤم نفسه وخيث فطرته أن يمنح الناس منحته سائغة هنيئة دون أن يكدرها عليهم بالمطل والتسويق والمدافعة والمحاولة. والشح خلق إذا نزل منزله من نفس صاحبه أقام من نفسه حارسا يقظا على كل حاسة من حواسه الباطنة والظاهرة حتى لا يجد فيه واجد مصطنعا ولا يظفر منه متعصر بيلة. فيضن بعلمه كما يضمن بماله، ويقبض لسانه عن النطق كما يقبض يده عن الإنفاق

ويصرد^(١) عطاءه تصريدا ليستديم حاجة الناس إليه كما يجيع كلبه ليتبعه، ولعنة الله والملائكة والناس أجمعين على العجزة والجاهلين والمحতالين والكاذبين والأشحاء والباخلين.

وكان أشعر الشعراء عندي وأكتب الكتاب - سواء في ذلك المتقدم والمتأخر والنابه والخامل - أوصفهم لحالات نفسه أو أثر مشاهد الكون فيها، وأقدرهم على تمثيل ذلك وتصويره للناس تصويرا صحيحا كأنما هو يعرضه على أنظارهم عرضا، أو يضعه في أيديهم وضعا، فإن ظننت أن القائل كاذب فيما يقول أو أنه يرسم صورة غير الصورة التي تتلجلج في نفسه، أو أنه لغوي يفر من ضعف أسلوبه وفساد نظمه إلى أكمة من الألفاظ الغريبة والتراكيب المستوعرة يكمن وراءها، أو ناقل يتخذ الكتابة حقيبة يحشوها بالمسائل العلمية والوقائع التاريخية حشوا، أو مترجم ينقل عن اللغة الأعجمية التي يعرفها آراء علمائها وكأنما هو صاحبها، أو شعرت أنه قد قدر في نفسه، وهو يكتب كلمته أن يكون بليغا فيها أو مبدعا ليعجب الناس منها، وكان كل حظه عندي أن أعرف له قدره في العلم ومنزلته من الذكاء والفهم أن أحسن فيما يقول، ولكنني لا أعدّه كاتبا ولا شاعرا، لذلك كان أغزل الغزل عندي غزل العاشقين، وأفضل الرثاء رثاء الثاكليين، وأنبل المدح مدح الشاكريين، وأشرف العظات عظات المخلصين، وأجمل البكاء بكاء المنكوبين، وأحسن الهجاء هجاء الصادقين، وأبرع الوصف وصف الرائيين المشاهدين.

(١) صرد العطاء: أعطاه قليلا قليلا.

ولا أدري ما الذي كان يعجبني في مطالعاتي من شعر الهموم والأحزان، ومواقف البؤس والشقاء، وقصص المحزونين والمنكوبين خاصة، فقد كان يعجبني كثيرا ويبكييني أحر بكاء وأشجاء شقاء المهلهل في الطلب بثأر أخيه، وشقاء امرئ القيس في الطلب بثأر أبيه، وبكاء جلييلة أخت حساس على زوجها وأخيها، وبكاء عدي ابن زيد على نفسه في سجن النعمان، وبكاء متمم بن نويرة على أخيه مالك حتى دمعت عينه العوراء، وبكاء ليلى بنت طريف على أخيها الوليد، وهيام أم حكيم زوج عبيد الله بن العباس في المواقف والمواسم تنشد طفليها الذبيحين، وبكاء الشريف على المناذرة في خرائب الحيرة. وبكاء أبي عبادة على الأكاسرة في خرائب المدائن، وبكاء الرضي على بني هاشم، وبكاء العبلي على بني أمية، وبكاء الرقاشي على بني برمك، وذئب أبي فراس في أسرته، والمعتمد بن عباد في سجنه، وبكاء الوزير ابن زيدون على نفسه مرة، وعلى ولادة أخرى، وبكاء ابن مناذر على عبد المجيد، والبحثري على المتوكل، وابن اللبانة على ابن عباد، والتيمي على يزيد بن مزيد، ومروان بن حفصة على معن بن زائدة، وجنون المجنون بليلاء، وجلوسه في جنبات الحي منفردا عاريا، مذهبوب اللب، مشترك العقل يهذي ويخطط في الأرض ويلعب بالتراب، ثم هيامه بعد ذلك مع الوحش في البرية لا يأكل إلا ما ينبت فيها من بقل، ولا يشرب إلا مع الظباء إذا وردت مناهلها، وراحته إلى الطريق يصعد

مع مصعديه، وينحدر مع منحدريه، حتى هلك في أرض مقشعة
مغيرة بين الصخور والأحجار، وشقاء قيس بلبناه بعد أن طلقها
برا بوالده، ونزولا على حكمه، وذهاب الحب به ذلك كل مذهب،
حتى هلك بين الوفاء للفضيلة والوفاء للحب، وموقف جميل ابن
معمر بين يدي أبيه، وهو يعتب عليه أشد العتب وأمره في استهتاره
بحب بثينة ومخاطرته بنفسه في الإلمام بحبها فيقول: يا أبت! هل
رأيت قبلي أحدا قدر أن يدفع عن قلبه هواه أو ملك أن يسلي نفسه
أو استطاع أن يتقي ما قُضي به عليه، والله لو قدرت أن أمحو ذكرها
من قلبي أو أزيل شخصها من عيني لفعلت، ولكن لا سبيل إلى ذلك،
وإنما هو بلاء بليت به لحين قد أتيح لي، وأنا أمتنع عن طروق هذا
الحي والإلمام به ولو مت كمدا، وهذا جهدي ومبلغ ما أقدر عليه،
وبكاء النبي ﷺ عندما سمع قيس بن عاصم يحدث عن نفسه أنه
كان يئد بناته في الجاهلية، وأن واحدة منهن ولدتها أمها وهو في
سفر، فدفعنها إلى أخوالها ضنا بها على الموت وإشفاقا عليها،
فلما عاد وسألها عن الحمل قالت له إنها ولدت مولودا ميتا. ثم
مضت على ذلك سنون عدة حتى كبرت البنت ويفعت فزارت أمها
ذات يوم فرآها عندها فأعجب بجمالها وعقلها وذكائها وسألها
عنها فحدثته حديثها على وجهه، ولم تكتمه شيئا طمعا في أن
يضمها إليه ويمنحها رحمته وعطفه فأمسك عنها أياما، ثم تغفل
أمها عنها ذات يوم وخرج بها إلى الصحراء حتى أبعد فاحتفر

لها حفرة وجعلها فيها، فأخذت تقول: يا أبت ما تريد أن تصنع بي، وما هذا الذي تفعل؟ وهو يهيل عليها التراب ولا يلتفت إليها، وهي تنن وتقول: أتاركى أنت يا أبت وحدي في هذا المكان ومنصرف عني؟ حتى واراها وانقطع أنينها، وبكاء الأعرابية التي مات منها ولدها في دار غربة فدفنته، ثم وقفت على قبره تودعه. وتقول: والله يا بني لقد غدوتك رضيعا؛ وفقدتك سريعا، وكأن لم يكن بين الحالين مدة ألتذ بعيشك فيها، فأصبحت بعد الغضارة والنضارة ورونق الحياة والتنسم بطيب روائحها تحت أطباق الثرى جسدا هامدا ورفاتا سحيقا وصعيدا جرزا، اللهم إنك قد وهبته لي قرة عين فلم تمتعني به كثيرا بل سلبتني وشيكا ثم أمرتني بالصبر، ووعدتني عليه الأجر، فصدقت وعدك، ورضيت قضاءك، فارحم اللهم غربته، وأنس وحشته، واستر عورته يوم تنكشف الهنات والسوءات؛ واثكل الوالدات! ما أمض حرارة قلوبهن، وأقلق مضاجعهن؛ وأطول ليلهن، وأقل أنسهن، وأشد وحشتن، وأبعدهن من السرور، وأقربهن من الأحزان، وشقاء ذينك البائسين المنكوبين عروة بن حزام وعفراء بنت عقال ومناصبة الدهر لهما وانقطاع سبيله بهما حتى أصبحت زوجا لغيره، وأصبح بعدها هائما مختبلا يرمي بنفسه المرامي ويقذف بها في فجاج الأرض ومخارمها، حتى بلغ منزلها ذات يوم فتذكر حتى زارها، وهو يظن أن زوجها لا يعلم من أمره إلا أنه أحد الأضياف الغرباء،

فلما علم أنه يعرف حقيقته، وأنه على ذلك لا يتهمه ولا يتنكر له، عزم على الانصراف حياء منه وقال لها: يا عفراء، أنت حظي من الدنيا، وقد ذهبت فذهبت دنياي بذهابك فما قيمة العيش من بعدك، وقد أجمل هذا الرجل عشرتي واحتمل لي ما لا يحتمله أحد لأحد حتى استحييت منه، وإني راحل من هذا المكان، وإني عالم أني راحل إلى منيتي، وما زال يبكي وتبكي حتى انصرف، فلما رحل نكس بعد صلاحه وتماسكه وأصابه غشى وخفقان، فكان كلما أغمى عليه ألقى على وجهه خمرا لعفراء كانت زودته إياه فيفيق، حتى بلغ حيه وأمسك عاما كاملا لا يسمع منه سامع كلمة ولا أنه حتى بلغ منه اليأس فسقط مريضا، فمر بعض الناس فرآه مطرحا بجانب خبائه، فسأله عما به، فوضع يده على صدره، وقال:

كأن قطاة علقت بجناحها على كبدي من شدة الخفقان

ثم شهق شهقة كانت نفسه فيها، فلما بلغ عفراء خبره قامت إلى زوجها وقالت: لقد كان من خبر ابن عمي ما كان، وقد مات في وبسبي ولا بد أن أندبه وأقيم مأتما عليه، فقال: افعلي، فما زالت تندبه ثلاثا حتى ماتت في اليوم الرابع. وشقاء سعد الوراق بحب عيسى النصراني حينما علم أن أهله قد بنوا له ديرا بنواحي الرقة ليترب فيه ويحتجب عن الناس فضاقت عليه الدنيا بما رحبت وأحرق بيته وفارق أهله وإخوانه، ولزم صحراء الدير عله يجد السبيل إلى الوصول إليه، فامتنع عليه ذلك بعد ما ذل

للرهبان وتخضع وتأتى لهم بكل سبيل فلم يجده ذلك شيئا، فصار إلى الجنون وحرق ثيابه وأصبح عريان هائما لا شأن له إلا أن يقف بكل طائر يراه على شجرة فيناشده الله أن يبلغ رسائله إلى عيسى، حتى رآه بعض الناس في بعض الأيام ميتا إلى جانب الدير. وأمثال ذلك من مواقف البؤس ومصارع الشقاء؛ وكأنما كنت أرى أن الدموع مظهر الرحمة في نفوس الباكين؛ فلما أحببت الرحمة أحببت الدموع لحبها؛ أو كأنما كنت أرى أن الحياة مواطن البؤس والشقاء ومستقر الآلام والأحزان، وأن الباكين هم أصدق الناس حديثا عنها، وتصورا لها، فلما أحببت الصدق أحببت البكاء لأجله؛ أو كأنما كنت أرى أن بين حياتي وحياة أولئك البائسين المنكوبين شبها قريبا وسببا متصلا؛ فأنست بهم وطربت بنواحيهم طرب المحب بنوح الحمايم وبكاء الغمام، أو كأنما كنت في حاجة إلى بعض قطرات من الدمع أتفرج بها مما أنا فيه، فلما بكى الباكون وبكيت لبكائهم وجدت في مدامعهم شفاء نفسي وسكون لوعتي، أو كأنما كنت أرى أن جمال العالم كله في الشعر وأن الشعر هو تفجر من صدع الأفئدة الكليمة فجرى من عيون الباكين مع مدامعهم، وصعد من صدورهم مع زفراتهم.

تلك أيامي التي سعدت بها برهة من الدهر ومر لي فيها أحسن ما مر لأحد والتي لما أزال أذكرها بعد مرور تلك الأعوام الطوال فأكاد أشرق بدمعي لذكرها، ثم انثنيت فوجدت يدي صفرا منها وإذ أنا

بين يدي هذا العالم المظلم المشعر عالم الحقيقة والألم، فنظرت إليه
نظر الغريب الحائر إلى بلد لا عهد له به ولا سكن له فيه فرأيت
مخازيه وشروره وظلمة أجوائه، واغبرار سمائه، وقتال الناس
بعضهم بعضا على الذرة والحبّة والنسمة والهبوة^(١)، واتساع مسافة
الخلف بين دخائل القلوب وملامح الوجوه، وسلطان القوة على الحق
وغلبة الجهل على العلم. وإقفار القلوب من الرحمة، وجمود العيون
عن البكاء، وعجز الفقراء عن فتات موائد الأغنياء، وتمضغ الأغنياء
بلحوم الفقراء، ورأيت المرآني بالرديلة حتى ادعاها لنفسه ونحلها
إياها من لا يتخلق بها طلبا لرضا الناس عنه برضاه عنها، ورأيت
البراءة من الفضيلة حتى فر بها صاحبها من وجوه الساخرين به
والناقمين عليه فرار العاري بسوأته والموسوم بخزيتته. ورأيت
الرجل والمرأة وقد سرا^(٢) كل منهما ثوبه عن جسمه وألقاه بين
يديه، ثم تقايضا فلبست قباؤه ولبس غلاتها فأصبح امرأة لها
من النساء التكسر والتبرد وأصبحت رجلا له من الرجال التوقح
والتشطر^(٣) ورأيت الدين وهو دوحة السلام الخضراء التي يستظل
بها الضاحون^(٤) من لفحات الحياة وزفراتها قد استحال في أيدي
الناس إلي سهام مسمومة يحاول كل منهم أن يصيب بها كبد أخيه

(١) الهبوة: الغيرة.

(٢) سرا الثوب عن جسمه: ألقاه عنه.

(٣) تشطر: صار شاطرا؛ والشاطر مر من أعبي أهله خبيثا.

(٤) الضاحي: المنكشف الشمس.

فلا يخطئها، ورأيت ضلال الأسماء عن مسمياتها وحيرة مسمياتها بينها، واضطراب الحدود والتعاريف عن أماكنها ومواقفها حتى دخل فيها ما لم يكن داخلا، وخرج منها ما لم يكن خارجا، فسمى الشح اقتصادا، والكرم إسرافا، والحلم جبنا، والسماجة جرأة، والسفاهة براعة، والفجور فتوة، والتبذل حرية، واشتبهت طرق الفضيلة ومسالكها على من يريد ركوبها، لأنه يجد على رأس كل واحدة منها زعيما من زعماء الخديعة والكذب يصرفه عنها إلى غيرها، وكنت أرى أن الأدب حال قائمة بالنفس تمنع صاحبها أن يقدم على شر أو يحدث نفسه به أو يكون عوناً لفاعليه عليه، فإن ساقته إليه شهوة من شهوات النفس أو نزوة من نزواتها وجد في نفسه عند غشيانه ومخالطته من المضيض والارتماض ما ينعص عليه عيشه، ويقلق مضجعه، ويطيل سهره وألمه، فإذا هو صورة من صور الجوارح وعرض من أعراض الجسم لا دخل له في جوهر النفس، ولا علاقة بينه وبين الحس والوجدان، فأكثر الناس عند الناس أدبا، وأقومهم خلقا، وأطهرهم نفسا: من لا يفي على شرط أن يعد، ومن يكذب على أن يكون كذبه سائغا مهذبا، ومن يملأ صدره موجدة وحقدا على أن يكون بساما: ضحوك السن، ومن يسرق على أن يستطيع العبث بمواد القانون وخداع القضاة عنها، ومن يبغض الناس جميعا بقلبه على أن يحبهم جميعا بلسانه، ومن يحفظ تلك المصطلحات اللفظية وتلك الصور الجافة من الحركات الجسمية،

التي تواضع عليها المتكلفون في الزيارة والاستزارة والهناء والعزاء والمؤاكلة والمنادمة، وأمثال ذلك مما يرجع العلم به غالبا إلى صغر النفس وإسفافها، أكثر مما يرجع إلى علوها وكمالها، فدخلني من ذلك خطر عظيم لم أستطع أن أملك نفسي معه، كأنما خيل إليّ - لقرب عهدي بما أرى - أنني أرى شيئا عجيبا، أو منظرا غريبا، أو كأنما كنت أحسب أن عالم الخيال الذي كنت فيه إنما هو صورة صحيحة لعالم الحقيقة الذي انتقلت إليه، فأزعجني ما رأيته من هذا الاختلاف العظيم بينهما، فأرسلت الكلمة إثر الكلمة كما يتنفس المتنفس أو يئن الحزين، فقرأ ذلك بعض الناس، فسموا ما رأوه كلاما، ثم ما زالوا يستحسنون ما أقول ويغرونني بأمثاله، وما زلت أطمع فيهم وأرجو أن أصيب ما في نفوسهم، حتى سموني كاتباً. وكان لذلك الأدب الذي توليت به نفسي فيما مضى أثر باق عندي حتى اليوم فإنني لا أحسن أن أكتب كلمة يفضي بها غيري أو أعبر عن معنى لا يقوم بنفسي أو أبكي على من لا يحزنني فراقه. أو أندب من لا يفجعني موته أو أستنكر ما أستحسن، أو أستحسن ما أستنكر، كما لا أستطيع أن أمر بمشهد من تلك المشاهد التي تهيج في نفسي حزنا شديدا، أو طربا كثيرا، فأملك نفسي عن محاولة الإفضاء بما تركه عندي من خير أو شر، وما أعلم أنني كتبت كلمة في شأن من الشئون إلا وكان بعض تلك المشاهد منشأها في قلبي، فقد كنت رجلا لا أحب الكذب، ولا آخذ نفسي به ما وجدت منه بدا،

فأبغضت الكاذبين بغض الأرض للدم. فكان من همي أن أقاتلهم على الصدق قتالا مستعرا، حتى أصل بهم إلى إحدى الحسينين: إما أن يكونوا صادقين وإما أن يعلم الناس أنهم كاذبون، وكنت إنسانا بائسا لم يترك الدهر سهما من سهامه المريشة لم يرمني به، ولا جرعة من كأس مصائبه ورزاياه لم يجرعني إياها، فقد ذقت الذل أحيانا، والجوع أياما، والفقر أعواما، ولقيت من بأساء الحياة وضرائها ما لم يلق بشر، فشعرت بمرارة الحياة في أفواه المساكين. ورأيت مواقع سهام الدهر في أكباد البائسين والمنكوبين، فكان من همي أن أبكي كل بائس، وأندب كل منكوب، وأطلب رحمة القوي للضعيف، والغني للفقير، والعزيز للذليل.

وقد قدر لي فيما مر بي من أيام حياتي أن رأيت بعيني من وقفت بين يديه امرأة ذليلة تبكي وتضرع إليه أن يرخص لها بقليل من المال تستعين به على ستر ما كشف ابنه من سوء ابنتها، فأبي ذلك عليها وقال لها - وهو يحسب أنه يعقل ما يقول-: أيتها المرأة لا حق لابنتك عندي ولا عند ولدي. فلم يكن حظها منها فيما كان من أمرهما بأكبر من حظها منه، ورأيت من تزوج من فتاة كان يمسك في نفسه لأهلها حقدا قديما، فما دنا منها ليلة البناء بها حتى صدف عنها صارخا: أيها الناس إن الفتاة مريبة. وكان كاذبا فيما يقول، ولكن صدقه الناس، فانتقم لنفسه بذلك شر انتقام وأفظعه، ورأيت من دخلت إليه امرأة من أولئك النساء المريبات تسأله بعض المعونة على أمرها فأمر بطردها ذاهبا بنفسه أن تسوء

سمعته بدخولها بيته، وكان هو الذي أفسدها على نفسها فنزل بها فسادها إلى هذه المنزلة من السقوط ثم الفقر، فلما جد الجد حاسبها على لقمة تتذوقها في بيته. ولم يحاسب نفسه على عرض كان يأكله في بيته أكلًا. فكان بي منذ ذلك العهد أن أنظر إلى المرأة بعين غير العين التي ينظر بها الناس إليها، وأن ألتمس لها من العذر - وإن زلت بها قدم - ما لا يلتمسه لها أحد، وأن أنتصف لها من الرجل ما وجدت سبيلا إلى ذلك حتى يدل لها الله منه، وكنت من شئون عيشي في حالة لا أستطيع معها أن اعتزل الناس الاعتزال كله، ولا أن أختار لعشرتي من أشياء من خيارهم وذوي المروءة فيهم، فلبستهم على علاتهم فما حفظ لي صديق عهدا ولا صان لي صاحب سرا، ولا استدنت مرة فنفس عني دائن، ولا دنت فوفى لي مدين، ولا رد لي مستعير عارية، ولا شكر لي شاكر صنيعه، ولا فرج لي كربتي مُفرج إلا إذا استقطر ماء وجهي إلى القطرة الأخيرة منه، ليأخذ أكثر مما أعطى، ويسلب فوق ما وهب، ووجدت في طريق حياتي من خالطني مخالطة الزائر للمزور حتى أمكنته الفرصة فسرق مالي بعد ما تحرم بطعامي وشرابي. ومن كان يبسط إلي يد الآمل الراجي فأكره أن أردّه خائبا، فلما عجزت عن ذلك مرة أضمر لي في قلبه من الشر ما لا يضمر لمثله الرجل إلا لمن يغلبه على تراث أبيه وأمه، أو يخضب لحيته من دم مفرقه ومن نصب^(١) لي وغرى

(١) نصب فلان لفلان: عاداه.

بمحادثاتي ومماظنتي^(١)، لأنه كان يحمل في رأسه فتكة لم يجد في طريقه من يحملها عنه ويستخذي له فيها سواي، ومن أخذ نفسه بالنيل مني والغض من شأني لأنه كان يشكو الخمول والضعفة وكان لا بد له أن يكون نابها مذكورا، فاتفق له أن رأى عاتقي بين يديه فظن أنه أعلى العواتق وأبعدها مذهباً في جو السماء، فعلاه ليشرف منه على الناس فيعرفوا مكانه، فوالله ما تحلحلت ولا نبوت به بقيا عليه وضنا به أن يسقط سقطه لا يئل منها، ومن كان لا يكبر شأني إلا إذا اتقاني، فإذا أضاء ما بيني وبينه كنت في عينه أصغر منه في عين نفسه، ومن كان يقبل ويدبر بإقبال الدهر عليّ وإدباره عني، لا يستحي أن يكرر ذلك حتى أستحيي له منه. فعركت بجنبي^(٢) كل ما كرهت من ذلك، ولكنني لم أرض لنفسني أن أنزل في الغرارة والسذاجة دون المنزلة التي ينزل إليها الغر الكريم، فلم أثار لنفسني، ولكن أصبح رأيي في الناس غير رأيهم في أنفسهم، ورأي بعضهم في بعض، وخفت أن يصيب كثيرا من الضعفاء والمحدودين^(٣) أمثالي مثل ما أصابني، فكان من همي أن أدل على شرو الأشرار الكامنة في نفوسهم وأن أكشف الستر عن دوائر قلوبهم حتى يتراءوا ويتكاشفوا، فيتواقفوا ويتحاجزوا، فلا يهناً

(١) المماظة: المخاصمة والمشاركة.

(٢) عرك بجنبه ذنب صاحبه: احتمله.

(٣) المحدود: المحروم؛ ويراد به سيئ الحظ.

خادع بخدعته، ولا يبكي مخدوع على نكبته، ولا يتخذ بعضهم بعضا حمرا يركبونها إلى أغراضهم ومطامعهم، وكان منشئي في قوم بداءة سذج لا يبتغون بدينهم ديناً، ولا بوطنهم وطناً، ثم ترمى بي الأمر بعد ذلك وتصرفت بي في الحياة شئون جمّة، فخضعت لكثير من أحكام الدهر وأقضيته، إلا أن أكون ملحداً في ديني أو زارياً على وطني، فاستطعت - وقد غمر الناس ما غمرهم من هذه المدنية الغربية - أن أجلس ناحية منها. وأن أنظر إليها من مرقب عال، وكنت أعلم أن من أعجز العجز أن ينظر الرجل إلى الأمر نظرة طائفة حمقاء، فإما أخذه كله أو تركه كله، فرأيت حسناتها وسيئاتها، وفضائلها ورذائلها، وعرفت ما يجب أن يأخذ منها الآخذ وما يترك التارك، فكان من همي أن أحمل الناس من أمرها على ما أحمل عليه نفسي، وأن أنقم من هؤلاء العجزة الضعفاء وتهالكهم لها، واستهتارهم بها، وسقوطهم بين يدي رذائلها ومخازيها، وإلحادها وزندقته، وشحها وقسوتها، وشرها وحرصها، وتبذلها وتهتكها، حتى أصبح الرجل الذي لا بأس بعلمه وفهمه إذا حزبه الأمر^(١) في مناظرة بينه وبين من يأخذ برذيلة من الرذائل لا يجد بين يديه ما ينضج به عن نفسه إلا أن يعتمد عليها في الاحتجاج على فعل ما فعل، أو ترك ما ترك كأنما هي القانون الإلهي الذي تثوب إليه العقول عند اختلاف الأنظار واضطراب

(١) حزبه الأمر: اشتد عليه.

الأفهام، أو القانون المنطقي الذي توزن به التصديقات والتصورات لمعرفة صوابها وخطئها وصحیحها وفاسدها؛ وحتى أصبح السيد في منزله يستحي الحياء كله من خادمة غرفته الأوربية أن تطلع منه على جهل ببعض عاداتها وعادات قومها حتى في لبس الرداء وخلع الحذاء أكثر مما يستحي من الله ومن الناس أن يهجموا منه على أرذل الرذائل وأكبر الكبائر؛ وحتى أصبح طريق المشرق وتاريخ علمائه وأدبائه وفلاسفته وشعرائه صورة من أقبح الصور وأسمجها في نظر كثير من الشرقيين: يفخرون بجهله إن جهلوه، ويرأون بعلمه إن علموه، وحتى قدر الغلام الرومي - خادم الحان - منفردا على ما لا تقدر عليه الأمة جميعها مجتمعة، فحملها على النزول إليه لتحديثه بلغته، قبل أن تحمله على الصعود إليها ليحدثها بلغتها، وهو إلى إن يترضاها ويستدنيها أحوج منها إلى أن تترضاها وتزدلف إليه.

فذلك ما تراه في رسائل النظرات منتثرا ههنا وههنا، وقد شعر به قلبي ففاض به قلبي من حيث لا أكذب الناس عن نفسي، ولا أكذب نفسي عنها.

وعندي أن الكاتب المسخر الذي لا شأن له إلا أن يكتب ما يفضي به الناس إليه صانع غير كاتب، ومترجم غير قائل، لا فرق بينه وبين صائغ الذهب وثاقب اللؤلؤ: كلاهما ينظم ما لا يملك ويتصرف فيما لا شأن له فيه، على أن خير ما ينتفع به الأديب من أدبه أن

يترك يوم وداعه هذه الدنيا صفحة يقرأ فيها الناظرون في تاريخه من بعده صورة نفسه ومضطرب آماله ومسرح أحلامه؛ فإن كان من شأنه في حياته أن يكون مرآة تنقلب فيها مختلفات الصور، أو رقيقة^(١) تتمسح بها أعواد الأقلام كان خسارانه عظيما لا يقوم به كل ما يربح الرابحون من مال أو يؤثلون من جاه، والتاريخ أضن من أن يحفظ بين دفتيه من مجد الأدباء إلا مجد أولئك الذين يودعون نفوسهم صفحات كتبهم ثم يموتون وقد تركوها نقية بيضاء من بعدهم، وحياة الكاتب بحياة كتابته في نفوس قرائها، ولا تحيا كتابة كاتب سيعلم الناس من أمره بعد قليل أنه يكذبهم عن نفسه وعن نفوسهم وأنه رواغ متخلج^(٢) يأمرهم اليوم بما ينهاهم عنه غدا، ويرى في ساعة ما لا يرى في أخرى، وأنه يستبكي ولا يبكي، ويسترحم ولا يرحم، ويحزن النفوس وهو ساكن، ويثير الثائر وهو سالم، فيستريبون به، ويحارون في مصادره وموارده، ثم يحملون أمره شر حاله ثم ينقطع ما بينهم وبينه، والبيان ليس سلعة من السلع التي يتنقل بها تجارها من سوق إلى سوق ومن حانوت إلى آخر، ولكنه حركة طبيعية من حركات النفس تصدر عنها آثارها عفوا بلا تكلف ولا تعمل، صدور النور عن الشمس، والصدى عن الصوت، والأريج عن الزهر، وشعاع لامع

(١) الرقيقة: خرفة يمسح بها القلم.

(٢) المتخلج: المضطرب في مشيته.

يشرق في نفس الأديب إشراق المصباح في زجاجته، وينبوع ثرار يتفجر في صدره ثم يفيض على أسلات قلمه، وهو أمر وراء العلم واللغة والمحفوظات والمقروءات والقواعد والحدود، ولو أن أمرا من ذلك كائن لكان أبرع الكتاب وأشعر الشعراء أغزرهم مادة في العلم، أو أعلمهم بقواعد اللغة، أو أجمعهم لمتونها، أو أحفظهم لفصيح القول ورائعه؛ أما العلم فأكثر المؤلفين الذين تركوا بين أيدينا هذه الأسفار التي نقرؤها في الشريعة والحكمة والمنطق وغيرها كانوا علماء ما يتدافع في ذلك اثنان؛ وها قد مرت علينا وعلى ما تركوه بين أيدينا القرون والحقب وأكثرنا عاجز عن فهم أكثر ما كانوا يكتبون؛ وأما المحفوظات فما نعلم أحد أحفظ لكتاب الله من جماعة القراء، ولا أحفظ للحديث من الفقهاء، ولا أقل منهم إماما بالأدب ولا أبعد عنه مكانا؛ وأما اللغة فما عرفنا بين المتقدمين والمتأخرين من رواتها وحفاظها والمتوفرين على تدوينها وتحقيقها والمنقطعين لدرس قواعدها وفنونها من عرفت له البراعة والتفوق في تحبير الرسائل أو قرض الشعر أو القوة القلمية في التصنيف في غير ما أخذوا أنفسهم به؛ وكان الخليل بن أحمد إذا سئل عن نظم الشعر قال: ياباني جيده وآبي رديئه؛ وكان الأصمعي يحفظ ثلث اللغة، وأبو زيد الأنصاري يحفظ نصفها وأبو مالك الأعرابي يحفظها كلها، وكذلك كان شأن النضر بن شميل وأبي عبيدة وابن دريد والأزهري والصاغاني وابن فارس وابن الأثير صاحب النهاية، والجوهري

والفيروزآبادي وأمثالهم من علماء اللغة والنحو، وما سمعنا لواحد منهم في إحدى الصناعتين شيئا مذكورا، وقال أبو العباس المبرد في بعض أحاديثه: لا أحتاج إلى وصف نفسي لعلم الناس بي أنه ليس أحد من الخافقين تختلج في نفسه مشكلة إلا لقيني بها وأعدني لها، فأنا عالم ومتعلم وحافظ ودارس، لا يخفى عليّ مشتبه من الشعر والنحو والكلام المنثور والخطب والرسائل وربما احتجت إلى اعتذار من فلتة أو التماس حاجة، فأجعل المعنى الذي أقصده نصب عيني، ثم لا أجد سبيلا إلى التعبير عنه بيد ولا لسان، ولقد بلغني أن عبيد الله بن سليمان ذكرني بجميل فحاولت أن أكتب إليه رقعة أشكره فيها وأعرض بعض أموري فأتعبت نفسي يوما في ذلك فلم أقدر على ما أرتضيه منها، وكنت أحاول الإفصاح عما في نفسي فينصرف لساني إلى غيره اهـ. بل لو شئت لقلت إنه ما أفسد على المتنبي وأبي تمام كثيرا من شعرهما، ولا المعري كثيرا من منظمه ومنثوره، ولا على الحريري مقاماته، ولا على ابن دريد مقصورته، إلا غلبة اللغة عليهم واستهتارهم بها وشغفهم بتدوينها في كل ما يكتبون فقد كانوا هم وأمثالهم من حبائس اللغة وأنضائها في كثير من مواقفهم يؤلفون ويدونون، من حيث يظنون أنهم ينظمون أو يكتبون، ولا تزال نفسي تشتمل على لوعة من الحزن لا تفارقها حتى الموت كلما ذكرت أن الأدب العربي كان يستطيع أن يكون خيرا مما كان لو أن الله تعالى كتب للزوميات المعري النجاة من

قبضة اللغة وأسر الالتزام وإنك لا تكاد ترى اليوم من شعراء هذا العصر وكتابه - الذين يأخذون بزمام المجتمع العربي وقيموه عالمه ويقعدونه بقوتهم القلمية في شئونه السياسية والاجتماعية والأدبية كافة - من يعد من حفاظ اللغة العربية وثقاتها، أو من يسلم له مقال من مأخوذ نحوي أو مغمز لغوي، وهم على ذلك أدخل في باب البيان وألصق به وأمس رحما من أولئك الذين يستظهرون متون اللغة ويحفظون دقائقها ويحيطون بمتاريفها ومتواردها ويتباصرون بشاذها وغريبها ويحملون في صدورهم ما دق وما جل من مسائل نحوها وتصريفها، فإذا عرض لهم غرض من الأغراض في أي شأن من شئون حياتهم وأرادوا أنفسهم على الإفضاء به - ارتج عليهم فأغلقوا أو تقهروا وتشدقوا فكأنهم لم ينطقوا، والفرق بين الأدباء واللغويين أن الأولين كاتبون، والآخرون مصححون؛ فمثلهما كمثل النساج وعامله: هذا ينسج الثوب، وهذا يلتقط زوائده ويمسح زئبره^(١)، أو كمثل الشاعر والعروضي: هذا ينظم الشعر وهذا يعرضه على تفاعيله وموازينه، وليس البيان ذهاب كلمة ومجيء أخرى، ولا دخول حرف وخروج آخر، وإنما هو النظم والنسق والانسجام والاطراد والرونق واستقامة الغرض وتطبيق الفصل، والأخذ بمجامع الألباب، امتلاك أزمة الهواء؛ فإذا صح ذلك لأمري فهو الكاتب القدير أو الشاعر الجليل؛ فإن زلت به قدم في حرف

(١) الزئبر: ما يظهر من درز الثوب.

مكان حرف، أو غلبه على لسانه خيل، أو خرج من يده أصيل، أو كان ممن يفوته العلم ببعض قواعد اللغة أو بعض وجوه الاستعمال فيها، كان ذلك عيبا لاحقا بعلمه أو بحافظته، لا ببيانه وفصاحته، ومتى صدر القائل في قوله عن سجية وطبع، أصبح شأنه شبيها بشأن العرب الأولين، وكان من شأنهم أن يسبقهم في كلامهم الخطأ اللفظي في بعض الأحيان، وكان السبب في ذلك كما يقول أبو علي الفارسي: أنهم كانت تهجم بهم طباعهم على ما ينطقون به؛ فربما استهواهم الشيء، فزاعوا به عن القصد من حيث لا يشعرون، وكما أن الجسم لا يغير من صورته، ولا يبدل من سحنته، أن تطير منه ذرة وتحل أخرى محلها لتمثلها، كذلك لا يغير من صورة الكلام ولا يذهب بنسقه خروج أصيل، أو دخول دخیل، وقد قيل لأحد الكتاب الإنكليز: نراك كثير الإعجاب بالكاتب «كبلنغ» وهو رجل لحانة لا يحفل بقواعد اللغة، فأجاب: إن سطرا واحدا مما يكتبه «كبلنغ» أثنى عندي من قوانين اللغة جميعها، وليس من الرأي أن أحرم نفسي التمتع بأدبه إكراما لسواد عيون الغراماطيق^(١) الإنكليزي، فضل الأدباء على اللغة في سيرورتها وزيوعها وتداولها وخلودها أفضل من فضل اللغويين عليها في ذلك؛ لأنهم هم الذين يمهّدون سبلها ويُعَبِّدون^(٢) طرقها ويستندون نافرها، ويجمعون شاردها،

(١) الغراماطيق: النحو.

(٢) يعبدون: يذلون ويمهّدون.

وينظمون لآلئها نظم الثاقب لآلئه في السلك فيأخذها الناس عنهم من أخصر الطرق وأقربها، وأشهاها إلى النفس، وأعلقها بالقلب؛ وقليل من الناس من يأخذ مادته اللغوية من معاجم اللغة أو يكتسب ملكة الإعراب من كتب النحو والتصريف؛ وما كانت اللغة عدوة للأدب ولا كان عدوا لها، بل هي أساسه وقوامه الذي يقوم به، ولكن المشتغلين بها والمتوفرين على دراستها، والمنقطعين لاستظهارها، والنظر في دقائقها، والتعمق في أطوائها لا يزال يتغلب عليهم الولع بها والفناء فيها، حتى تصبح في نظرهم مقصدا من المقاصد، لا وسيلة من الوسائل، وللبيان وسائل كثيرة غير وسيلة اللغة فمن لا يأخذ نفسه بجميع وسائله لا يصل إليه، والتربية العلمية كالتربية الجسمية؛ فكما أن الطفل لا ينمو جسمه ولا ينشط، ولا تتبسط أعضاؤه، ولا تنتشر القوة في أعصابه، إلا إذا نشأ في لهوه ولعبه وقذفه ووثبه؛ كذلك الكاتب لا تنمو ملكة الفصاحة في لسانه، ولا تأخذ مكانها من نفسه إلا إذا ملك الحرية في التصرف والافتنان والذهاب في مذاهب القول ومناحيه كما يشاء وحيث يشاء، دون أن يسيطر عليه في ذلك مسيطر إلا طبعه وسجيته، واللغوي لا يزال يحوط نفسه بالحدز والخوف والوساوس والבלابل، فإن مشى خيل إليه أنه يمشي على رملة ميثاء، وإن تحرك خيل إليه أن تحت قدميه حفرة جوفاء حتى يقعد به خوفه ووساوسه عن الغاية التي يريد الوصول إليها. على أن الكاتب لا يبلغ مرتبة الكتابة إلا إذا

نظر إلى الألفاظ بالعين التي يجب أن ينظر بها إليها فلم يتجاوز بها منزلتها الطبيعية التي تنزلها من المعاني ، وهي أن تكون خدما لها وخولا ، وأوعية وظروفا ، فإذا كتب تركها وشأنها وأغفل أمرها حتى تأتي بها المعاني وتقتادها طائعة مرغمة ، والمعاني هي جوهر الكلام ولبه ، ومزاجه وقوامه ، فما شغل الكاتب من همته بغيرها أزرى بها حتى تفلت من يده فيفلت من يده كل شيء .

وبعد ؛ فالعلم والمحفوظات والمقروءات والمادة اللغوية ، والقواعد النحوية إنما هي أعوان الكاتب على الكتابة ووسائله إليها ؛ فالجاهل لا يكتب شيئا لأنه لا يعرف شيئا ، ومن لا يضطلع بأساليب العرب ومناحيها في منظومها ومنثورها سرت العجمة إلى لسانه ، أو غلبته العامية على أمره ؛ ومن قل محفوزه من المادة اللغوية ، قصرت يده عن تناول ما يريد تناوله من المعاني ؛ ومن جهل قانون اللغة أغمض الأغراض وأبهمها ، أو شوه الألفاظ وهجنها ، ولكنها ليست هي جوهر الفصاحة ولا حقيقة البيان فأكثر القائمين عليها والمضطلعين بها ، لا يكتبون ولا ينظمون ، فإن فعلوا كان غاية إحسان المحسن منهم أن يكون كصانع التماثيل الذي يصب في قالبه تمثالا سويا متناسبا الأعضاء مستوي الخلق ؛ إلا أنه لا روح فيه ولا جمال له ، لأنه ينقصهم بعد ذلك كله أمر هو سر البيان ولبه ، وهو الذوق النفسي والفطرة السليمة ، وأنى لهم ذلك ، وما دخلت الفلسفة - أيّا كان نوعها - على عمل من أعمال الفطرة إلا أفسدته ، وما خلط التكلف عملا من أعمال الذوق إلا شوّه وجهه ، وذهب بحسنه وروائه .

ولقد قرأت ما شئت من منشور العرب ومنظومها، في حاضرها وماضيها قراءة المتثبت المستبصر، فرأيت أن الأحاديث ثلاثة: حديث اللسان، وحديث العقل، وحديث القلب.

فأما حديث اللسان فهو في تلك العبارات المنمقة، والجمل المزخرفة، أو تلك الكلمات الجامدة الجافة التي لا يعني صاحبها منها سوى صورتها اللفظية فإن كان لغويا تقعر وتشدق، وتكلف وأغرب، حتى يأتيك بشيء خير ما يصفه به الوصف أنه متن مشوش من متون اللغة لا فتصول له ولا أبواب، وإن كان بديعيا جنس ورصع وقابل ووسع وزاوج وافتن في الإتيان بالكلمة مهملة كلها أو معجمة كلها أو راوح بين الإهمال والإعجام، فيخيل إليك وأنت تراه ينطق بما ينطق به كأنما هو يصنعه بيديه صنعا، أو يصفقه تصفيقا، ثم لا يبالي بعد ذلك باستقامة المعنى في ذاته ولا بمقدار ما له من الأثر في نفس السامع، وهذا الحديث هو أسقط الأحاديث الثلاثة وأدناها وأجدرها أن ينظمه الناظم في سلك الصناعات اليدوية التي لا دخل للعقل ولا للفهم في شيء منها، وأن ينظم صاحبها في سلك جماعة المحللين الذين لا شأن لهم إلا تحليل المواد وتركيبها، وجمعها وتفريقها، والمزاوجة بين مقاديرها، والموازنة بين أثقالها، من حيث لا يكون لقوة التصور ولا لذكاء القلب دخل في هذا أو ذاك.

وأما حديث العقل فهو تلك المعاني التي ينحتها الناحتون من أذهانهم نحتا، ويقتطعونها منها اقتطاعا، ويذهبون فيها مذهب والمغالبة والنعمق والإغراب، ويسمونها تارة تخييلا وأخرى غلوا

وأخرى حسن تعليل، إلى كثير من أمثال هذه الأسماء والألقاب التي تتفرق ما تتفرق، ثم يجمعها شيء واحد هو الكذب والإحالة؛ وآية ما بينك وبينها: أنك إذا رأيته شعرت بأنك ترى أمامك شيئاً غريباً عن نفسك. وعن نفس صاحبه، وعن نفوس الناس جميعاً، وأن صاحبه لا يريد منه إلا أن يطرّفك أو يضحكك أو يعجبك من ذكائه وفطنته واقتداره على تصوير ما لا يتصور وإيجاد ما لا يكون، وهو أمر لا علاقة له بجوهر الشعر، ولا حقيقة الكتابة، وربما انعكس عليه حتى غرضه هذا فنفرّك وأكدّك وملاً قلبك غيظاً وقبحاً كأن يقول:

لولم تكن نية الجوزاء خدمته لما رأيت عليها عقد منتطق

فإن الجوزاء لا تنتطق، ولو كان هذا الذي نراه يستدير بها نطاقاً فهو شيء متصل بها قبل أن يخلق الممدوح ويخلق آباؤه الأولون إلى آدم وحواء، والكواكب ليست أشخاصاً أحياء يتخذ منها الناس خدماً وخولاً لأنفسهم ولو كانت كذلك لاستحال عليها – وهي من سكان السماء – أن تهبط إلى الأرض لتخدم سكانها، فقد كذب وأحال أربع مرات في بيت واحد، ثم عجز بعد هذا كله أن يترك في نفس السامع صورة تمثل جلال ممدوحه، وعظم شأنه، فهو في الحقيقة إنما يريد ببنيته هذا أن يمتدح نفسه بالإبداع وقوة التخيل، لا أن يمتدح ممدوحه برفعة الشان وعلو المقام. أو يقول:

مابه قتل أعاديته ولكن يتقي إخالاف ما ترجوا الذئاب

فإن الذي يحمل في صدره قلبا رحيمًا مشفقًا على الذئاب من الجوع، مستعظما أن يخلفها ما عودها إياه من طعام وشراب، لا يمكن أن يكون هو نفسه ذئبا ضاريا يريق دماء الناس ويمزق أحشاءهم، ويقطع أوصالهم، ليملاً بها بطون الوحش؛ ولا يوجد بين الأسباب التي تحمل الناس على القتال سبب يشبه هذا السبب الذي ذكره؛ على أن المحسن لا يكون محسنا إلا إذا وهب ما يهب من ماله، ومن خزائن بيته، فأما أن يقتل الناس تقتيلا ومثل بهم، ثم ينعم بجثثهم على الجائعين والظماء من وحوش الأرض وذئابها؛ فذلك شيء هو بالجنون أشبه منه بالإحسان. أو يقول:

لا يذوق الإغفاء إلا رجاء أن يرى طيف مستميج رواحا

فإن النوم قوام الإنسان وعماد حياته، ولازم من لوازمه اللاصقة به، أراد ذلك أم لم يرد، فإن كان لا بد من دخوله في باب الاختيار فإن من أبعد الأشياء عن التصور والفهم أن يكون ما يحمل الإنسان على طلب النوم رجاؤه أن يرى فيه الأحلام والرؤى، فإن فعل فعلا يدخل في باب أغراضه وأمانيه أن ينام ليري خيال جماعة المتسولين والمتأكلين، وهم ملء الأرض وهباء الجو، وأرصاد الأعتاب، وأعقاب الأبواب، لا تفتح الأعين إلا عليهم ولا تمتلئ الأنظار إلا بهم، فهم

لم يبلغوا في الضن بأنفسهم والعزف بها مبلغ من لا يراه الرائي ولا يعثر به إلا إذا ألقى في طريقه حبال الأحلام ليصطاد بها.
أو يقول:

لم يتخذ ولدا إلا مبالغة في صدق توحيد من لم يتخذ ولدا

فإن الأولاد لا يتخذون اتخاذا، وإنما ينعم الله بهم على من يشاء من خلقه إنعاما، وأكثر ما تقذف به الأرحام من النسمات إنما هي ثمرات الحب يأتي بها عفوا، لا نبتة من نبات الأرض يبذر الزارع بذورها ليستنبتها، والله تعالى غني بربوبيته ووضوح آثارها عن الاستدلال عليها بنطفة يقذفها قاذفها في بعض الأرحام، فإن كان لا بد في إثبات ربوبيته من دليل يدل على مخالفته للحوادث في الصفات والأفعال؛ فالأدلة على ذلك كثيرة لا يضبطها الحساب كثرة. وربما كان أهونها وأضعفها أنه لا يتخذ ولدا، وأنهم يتخذون. على أن المتخذين كثيرون قد ضاق بهم بطن الأرض وظهرها، فالمسألة مفروغ منها قبل أن يخلق هذا الممدوح ويخلق ولده؛ فلا فضل له في الإتيان بشيء جديد.

أو يقول:

وماريج الرياض لها ولكن كساهم في التراب طيبا

فإن الأزهار التي تستمد حياتها ونماءها من جثث الموتى ورممهم لا يمكن أن تكون طيبة الريح، على أن الأزهار مريحة قبل أن يدفن

هؤلاء الموتى في قبورهم، فلم يزد في كلمته هذه على أن أتى بخيال ضعيف مبتذل هو أشبه الأشياء بخيال العامة الذين يرون أن بعض الأزهار ما خلق إلا إكراما لبعض النبيين.
أو يقول:

تتلف في اليوم بالهبات وفي الد ساعة ما تجتنيه في سنتك

فقد أراد أن يصف ممدوحه بالكرم وصفا فوق ما يصف الناس ويأتي في ذلك بما لم يأت به غيره؛ فأنزله منزلة مجانيين المسرفين الذين لا يحسنون الموازنة بين دخلهم ونفقاتهم، ولو تقدمت هذه التهمة بهذه الصورة إلى قاض من قضاة المال لما كان له بد من الحجر عليه، والقضاة يرضون في مثل هذه الأحكام بدون إنفاق دخل السنة جميعها في ساعة واحدة أو يوم واحد.

أو يقول:

ولما ضاق بطن الأرض عن أن يضم علاك من بعد الوفاة

أصاروا الجوقبرك واستعاضوا عن الأكفان ثوب السافيات

فإن شيئا من ذلك لم يكن، فالقبر لا يضيق بأحد، والجو لا يكون قبرا، والريح ليست كفنا، والرجل لا يزال مصلوبا غير مقبور، ولا يزال عاريا غير مدرج في كفن.

وأما حديث القلب فهو ذلك المنتثر أو المنظوم الذي تسمعه فتشعر أن صاحبه قد جلس إلى جانبك ليتحدث إليك كما يتحدث الجليس

إلى جليسه، أو ليصور لك ما لا تعرف من مشاهد الكون، أو سرائر القلوب، أو ليفضي إليك بغرض من أغراض نفسه، أو لينفس عنك كربة من كرب نفسك، أو ليوافي رغبتك في الإفصاح عن معنى من المعاني الدقيقة التي تعتلج في صدرك، ثم يتكأ بك الإفصاح عنها من حيث لا يكون للصناعة اللفظية، ولا للفلسفة الذهنية دخل في هذا أو ذاك، حتى ترى حجاب اللفظ قد رق بين يديك دون المعنى حتى يفنى كما تفنى الكأس الصافية دون ما تشمل عليه من الخمر، فإذا الخمر قائمة بغير إناء، أو كما تفنى صفحة المرآة الصقيلة بين يدي الناظر فيها، فلا يرى إلا صورته ماثلة بين يديه، ولا لوح هناك ولا زجاج، وهو أرقى الأحاديث الثلاثة وأشرفها، وهل الذي يريده المريدون مهما اختلفت عباراتهم، وتنوعت أساليبهم من كلمة البيان.

ولقد كان من أكبر ما أعانني على أمري في كتابة تلك الكلمات أشياء خمسة أنا ذاكرها، لعل المتأدب يجد في شيء منها ما ينتفع به في أدبه:

(أولها) أنني ما كنت أحفل من بين تلك الأحاديث الثلاثة بحديث اللسان ولا حديث العقل، أي إنني ما كدت أتكلف لفظا غير اللفظ الذي يقتاده المعنى ويتطلبه، ولا أفتش عن معنى غير المعنى الطبيعي القائم في نفسي، بل كنت أحدث الناس بقلمي كما أحدثهم بلساني، فإذا جلست إلى منضدتي خيّل إليّ أن بين يديّ رجلا من

عامة الناس مقبلا عليّ بوجهه، وأن من ألد الأشياء وأشهاها إلى نفسي ألا أترك صغيرا ولا كبيرا مما يجول بخاطري حتى أفضي به إليه، فلا أزال أتلمس الحيلة إلى ذلك ولا أزال أتأتى إليه بجميع الوسائل وألح في ذلك إلحاح المشفق المجد، حتى أظن أنني قد بلغت من ذلك ما أريد، فلا أقيد نفسي بوضع مقدمة الموضوع في أوله، ولا سرد البراهين على الصورة المنطقية المعروفة، ولا التزام استعمال الكلمات الفنية التزاما مطردا إبقاء على نشاطه وإجماعه، وإشفاقا عليه أن يمل ويسأم، فينصرف عن سماع الحديث أو يسمعه فلا ينتفع به.

(وثانيها) أنني ما كنت أحمل نفسي على الكتابة حملا، ولا أجلس إلى منضدتي مطرقا مفكرا: ماذا أكتب اليوم، وأي الموضوعات أعجب وأغرب وألد وأشوق، وأيها أعلق بالنفوس، وألصق بالقلوب؟ بل كنت أرى فأفكر فأكتب فأنشر ما أكتب فأرضي الناس مرة وأسخطهم أخرى من حيث لا أنعمد سخطهم ولا أتطلب رضاهم.

(وثالثها) أنني ما كنت أكتب حقيقة غير مشوبة بخيال، ولا خيال غير مرتكز على حقيقة، لأنني كنت أعلم أن الحقيقة المجردة عن الخيال لا تأخذ من نفس السامع مأخذا، ولا تترك في قلبه أثرا، وأحسب أن السبب في ذلك أن أكثر ما تشتمل عليه النفوس من العقائد والمذاهب والآراء والأخلاق، والخواطر والتصورات، إنما هو أثر من آثار الخيالات الذهبية التي تتراءى في سماء الفكر. ثم لا

تزال بها الأيام تكسوها طبقة بعد طبقة من غبار القدم حتى تصبح حقيقة من الحقائق الثابتة في الأذهان، وكما أن الحديد لا يفل إلا الحديد، واللون لا يذهب به إلا لون غيره. كذلك الخيال لا يذهب ولا يزعجه من مكانه إلا الخيال، وللخيال الأثر الأعظم في تكوين هذا المجتمع الإنساني وتكييفه على الصورة التي يريدها، فلولا خيال الشعر ما هاج الوجد في قلب العاشق، ولولا خيال الشرف ما هلك الجندي في ساحة الحرب، ولولا خيال الذكرى ما اخترعت المخترعات، ولا ابتدعت المبتدعات، ولولا خيال الرحمة ما عطف غني على فقير، ولا حنا كبير على صغير، كما كنت أعلم أن الخيال غير المرتكز على الحقيقة إنما هو هبوة طائفة من هبوات الجولا تهبط أرضا ولا تصعد إلى سماء.

(ورابعها) إني كنت أكتب للناس لا لأعجبهم، بل لأنفعهم، ولا لأسمع منهم: أنت أحسنت، بل لأجد في نفوسهم أثرا مما كتبت، وللناس كما قلت في بعض رسائلتي؛ خاصة وعامة، أما خاصتهم فلا شأن لي معهم، ولا علاقة لي بهم ولا دخل لكلمة من كلماتي في شأن من شؤونهم فلا أفرح برضاهم ولا أجزع لسخطهم، لأنني لم أكتب لهم، ولم أتحدث معهم، ولم أشهدهم أمري، ولم أحضرهم عملي، بل أنا أتجنب جهد المستطاع أن أستمع منهم شيئا مما يتعلق بي من خير أو شر؛ لأنني راض عن فطرتي وسجيتي في اللغة التي أكتب بها، فلا أحب أن يكدرها عليّ مكدر، وعن آرائي ومذاهبي التي أودعها رسائلتي فلا أحب أن يشككني فيها مشكك، ولم يهينني الله

من قوة الفراسة ما أستطيع به أن أميز بين مخلصهم ومشوبهم. فأصغي إلى الأول لأستفيد علمه، وأعرض عن الثاني لأتقي غشه، فأنا أسير بينهم مسير رجل بدأ يقطع مرحلة لا بد له أن يفرغ منها في ساعة معينة. ثم علم أن على يمين الطريق التي يسلكها روضة تعتنق أغصانها، وتشتجر أفنانها، وأن على يساره غابا تزار أسوده وتعوي ذئابه وتفتح أفاعيه وصلاله، فمضى قدما لا يلتفت يمنة مخافة أن يلهو عن غايته بشهوات سمعه وبصره، ولا يسرة مخافة أن يهيج بنظراته فضول تلك السباع المقعية، والصلال الناشرة، فتعترض طريقه.

وأما عامتهم، فهم بين ذكي قد وهبه الله من سلامة الفطرة، وصفاء القلب، وسلاسة الوجدان، ما يعده لاستماع القول واتباع أحسنه؛ فأنا أحمد الله في أمره، وضعيف قد حيل بينه وبين نفسه، فهو لا يرضى إلا عما يعجبه، ولا يسمع إلا ما يطربه، فأكل أمره إلى الله تعالى، واستلهمه صواب الرأي فيه حتى يجعل الله له من بعد عسر يسرا.

«وخامسها» أنني كنت أقدر عقول الناس وأفهامهم فوق قدرها، فكنت أرى أنه ليس بين الرجل وبين فهم الحقيقة وإدراكها إلا أن تتراءى له في ثوبها الناصع الأبيض فيبتسم لها ابتسامة الهاني المغتبط ثم يضمها إليه. فكنت لا أزال أزخر بها له ما استطعت حتى يراها إن كان غافلا عنها. وأستثيرها له من مكنها إن كنت أرى أنه تطلبها. وأحوطها بالبرهان مرة والخيال أخرى ليكون على

بينة من أمرها إن كان في شك منها. وأعاتبه حيناً ليخجله العتاب. وأقرعه أحياناً ليؤله التقريع. وأطلع بين جوانحه شمساً مشرقة من الحكمة والموعظة الحسنة قد اجتمع لما ما اجتمع للشمس من ضوءها وحرارتها. لينير الضوء ظلمة نفسه. وتلتقط الحرارة أدرانها. حتى أظن أنني قد بلغت من نفسه ما أريد. وما هي إلا غمضة والتفاتة حتى أراه كما هو صخرة ملساء تنزلق عنها الحوادث انزلاقاً. فلا تثبت عليها يد. ولا تستقر فوقها قدم. فعلمت بعد أن عالجت نفسي على مدافعة ما أعلم حيناً من الدهر أنه إنما كان يطرِب عندما أحدثه لحلاوة النغمة في أذنيه. لا لوجدان برد الحقيقة في صدره. وأن بين يدي في طريقي إليه تلك العقبة التي أعيا الكاتبين قبلي أمرها. وهي العادات والعقائد التي تشتمل عليها نفوس الأمم وتحيط بها إحاطة الأسوار الصماء بالمدن والقلاع، حتى لا يطرَقها طارق. ولا يزعجها مزعج. فذبل من أُملي ما كان زاهراً. وضعف من عزمي ما كان قوياً. ولا أحسب أن سيسمع السامع مني بعد اليوم تلك النغمة التي كان يسمعها من قبل. فالأقلام كالنفوس يحييها الأمل. ويقتلها اليأس به.

مصطفى لطفي المنفلوطي

الدفين الصغير

الآن نفضت يدي من تراب قبرك يا بني، وعدت إلى منزلي كما يعود القائد المنكسر من ساحة الحرب، لا أملك إلا دمعة لا أستطيع إرسالها، وزفرة لا أستطيع تصعيدها.

ذلك لأن الله الذي كتب لي في لوح مقاديره هذا الشقاء في أمرك فرزقني بك قبل أن أسأله إياك، ثم استلبك قبل أن أستعفيه منك، أراد أن يتمم قضاءه في، وأن يجرعني الكأس حتى ثمالتها، فحرمني حتى دمعة أرسلها، أو زفرة أصعدها، حتى لا أجد في هذه ولا تلك ما أتفرج به مما أنا فيه؛ فله الحمد راضيا وغاضبا، وله الثناء منعما وسالبا، وله مني ما يشاء من الرضا بقضائه، والصبر على بلائه.

رايتك يا بني في فراشك عليلا فجزعت. ثم خفت عليك الموت وفزعت وكأنما كان يخيل إلي أن الموت والحياة شأن من شئون الناس وعمل من الأعمال التي تملكها أيديهم، فاستشرت الطبيب في أمرك فكتب لي الدواء، ووعدني بالشفاء، فجلست بجانبك أصب في فمك ذلك السائل الأصفر قطرة قطرة، والقدر ينتزع من بين جنبيك الحياة قطعة قطعة، حتى نظرت فإذا أنت بين يدي جثة باردة لا حراك بها، وإذا قارورة الدواء لا تزال في يدي. فعلمت أنني قد ثكلتك! وأن الأمر أمر القضاء لا أمر الدواء.

سأنام يا بنيّ بعد قليل على فراش مثل فراشك، وسيعالج مني المقدار ما عالج منك، وأحسب أن آخر ما سيبقى في ذاكرتي في تلك الساعة من شئون الحياة وأطوارها؛ وخطوبها وأحداثها: هو الندم العظيم الذي ما أزال أكابد ألمه على تلك الجرعة المريرة التي كنت أجرعك إياها بيدي، وأنت تجود بنفسك، فيربد وجهك، وتختلج أعضاؤك، وتدمع عينك، وما لك يد فتستطيع أن تمدها إليّ لتدفعني عنك، ولا لسان فتستطيع أن تشكو إليّ مرارة ما تذوق.

لقد كان خيرا لي ولك يا بني أن أكل إلى الله أمرك في شفائك ومرضك، وحياتك وموتك، وألا يكون آخر عهدك بي يوم وداعك لهذه الدنيا تلك الآلام التي أجشمك إياها، فلقد أصبحت أعتقد أنني كنت عوناً للقاء عليك، وأن كأس المنية التي كان يحملها لك القدر في يده، لم تكن أمرّ مذاقا في فمك من قارورة الدواء التي كنت أحملها لك في يدي.

ما أسمح وجه الحياة من بعدك يا بني! وما أقبح صورة هذه الكائنات في نظري! وما أشد ظلمة البيت الذي أسكنه بعد فراقك إياه! فلقد كنت تطلع في أرجائه شمسا مشرقة تضيء لي كل شيء فيه، أما اليوم فلا ترى عيني مما حولي أكثر مما ترى عينك الآن في ظلمات قبرك.

بكي الباكون والباكيات عليك ما شاءوا، وتفجعوا ما تفجعوا، حتى إذا استنفدوا ماء شئونهم، وضعفت قواهم عن احتمال أكثر

مما احتملوا، لجأوا إلى مضاجعهم فسكنوا إليها، ولم يبق ساهرا في ظلمة هذا الليل وسكونه غير عيينين قريحتين: عين أبيك الثاكل المسكين، وعين أخرى أنت تعلمها.

لقد طال عليّ الليل حتى مللته، ولكنني لا أسأل الله أن ينفرج لي سواده عن بياض النهار، لأن الفجيعة التي فجعتها بفقدك لم تُبق بين جنبي بقية أقوى بها على رؤية أثر من آثار حياتك، فليت الليل باق حتى لا أرى وجه النهار، بل ليت النهار يأتي، فقد مللت هذا الظلام. دفنتك اليوم يا بني ودفنت أخاك من قبلك، ودفنت من قبلكم أخويكما فأنا في كل يوم أستقبل زائرا جديدا، وأودع ضيفا راحلا.. فيا لله لقلب قد لاقى فوق ما تلاقي القلوب، واحتمل فوق ما تحتمل من فوادح الخطوب.

لقد افتلذ كل منكم يا بني من كبدي فلذة، فأصبحت هذه الكبدة الخرقاء مزقا مبعثرة في زوايا القبور، ولم يبق لي منها إلا ذماء قليل لا أحسبه باقيا على الدهر، ولا أحسب الدهر تاركه دون أن يذهب به كما ذهب بأخواته من قبل.

لماذا ذهبتم يا بني بعدما جنئتم؟ ولماذا جنئتم إن كنتم تعلمون أنكم لا تقيمون؟

لولا مجيئكم ما أسفت على خلو يدي منكم، لأنني ما تعودت أن تمتد عيني إلى ما ليس في يدي؛ ولو أنكم بقيتم بعدما جنئتم ما تجرعت هذه الكأس المريرة في سبيلكم.

لقد كنت أرضى من الدهر في أمركم أن يتزحزح لي عن طريقي
التي أسير فيها، وأن يزوي وجهه عني فلا أراه ولا يراني، ولا
يحسن إليّ ولا يسيء، ولا يتقدم إليّ بخير ولا شر، ولا يتراءى
لي مبتسما، ولا مقطباً، ولا ضاحكاً، ولا باكياً لو أنه رضي مني
بذلك؛ ولكنه كان أذكى قلباً وأنفذ بصراً، من أن يفوته العلم بأنني
ما كنت أبكي على النعمة لو لم تكن في يدي، وما كنت أجد مرارة
فقدانها لو لم أذق حلاوة وجدانها، وكان لا بد له أن يجري في سنة
الشقاء التي أخذ على نفسه أن يجريها في الناس جميعاً، فلما
عجز عن أن يدخل إليّ من باب الطمع دخل إلي من باب الأمل، فهو
يمنحني المنحة فأغتبط بها حقبة من الدهر، حتى إذا علم أن بذرة
الأمل التي غرسها قد نمت وازهرت، وأنني قد استعذبت طعمها
واستطبت مذاقها، كر عليّ فانتزعها من يدي أنعم ما أكون بها،
كما تنتزع الكأس الباردة من يد الظامئ الهيمان، ليعظم وقع السهم
في كبدي، ويفدح سلب النعمة من يدي، ولولا ذلك ما نال مني
منالاً، ولا وجد إليّ سبيلاً.

يا بني إن قدر الله لكم أن تتلاقوا في روضة من رياض الجنة، أو
على شاطئ غدير من غدرانها، أو تحت ظلال قصر من قصورها،
فاذكروني مثل ما أذكركم، وقفوا بين يدي ربكم صفا واحداً كما يقف
بين يديه المصلون ومدوا إليه أكفكم الصغيرة كما يمدّها السائلون،
وقولوا له: «اللهم إنك تعلم أن هذا الرجل المسكين كان يحبنا وكنا

نحبه، وقد فرقت الأيام بيننا وبينه، فهو لا يزال يلاقي من بعدنا من شقاء الحياة وبأسائها ما لا طاقة له باحتماله، ولا نزال نجد بين جوانحنا من الوجد به والحنين إليه، ما ينغص علينا هناء هذه النعمة التي ننعم بها في جوارك بين سمعك وبصرك، وأنت أرحم بنا وبه من أن تعذبنا عذابا كثيرا، فإما أن تأخذنا إليه أو تأتي به إلينا.. لا، بل لا تطلبوا منه إلا أن يأتي بي إليكم. فإن الحياة التي كرهتها لنفسى لا أرضاها لكم، فعسى أن يستجيب الله من دعائكم ما لم يستجب من دعائي، فيرفع هذا الستار بيني وبينكم، فنلتقي كما كنا.

روح الاجتماع

إن لكتاب روح الاجتماع عندي يدا ألا أنساها لمؤلفه الدكتور جوستاف لوبون ومترجمه العالم الفاضل سعادة «أحمد فتحي زغلول باشا، فقد وجدنى ضالا فهداني. وحائرا فرفع لي منارا أحمر حتى عرفت السبيل.

كنت أنقم من هذا المجتمع المصري شؤوننا ما كنت أنقم مثلها من غيره من المجتمعات البشرية. وكنت أكاد أعتقد أنه مجتمع شاذ غريب في أطواره وصفاته حتى قرأت ذلك الكتاب الذي شرح طبيعة المجتمعات عامة شرقيها وغربيها وقرر لها حكما واحدا لا يختلف ولا يتخلف. فعرفت أن لا فرق بين الشعب المصري وغيره من الشعوب الأخرى إلا كما يكون بين الشيء والشبيه به من الاتفاق في الجوهر والكيفية، والاختلاف في العرض والكمية.

كنت أعجب للجماعة المؤلفة من أتباع الحزب الوطني أن أراها مائلة إلى تصديق زعماء ذلك الحزب في دعواهم القدرة على إزعاج الاحتلال الإنكليزي من مكانه ومقاومة قوته القاهرة بمقاتلات يسيطرونها، أو خطب ينمقونها، وعلى انتزاع الدستور من يد صاحب الأمر فيه بصراخ الشوارع. وهتاف المجامع، بل إلى تصديق كل قائم بينها سواء أكان هنديا أو جركسيا أو بربريا أو نوريا أو فرنسيا أو إنكليزيا، زاعما أنه يخدم الوطنية المصرية بصدق وإخلاص، كما صدقت بالأمس المستر بلانت الإنكليزي في دعواه أنه قد نزل من حب

الوطن المصري منزلة من يهدي النصائح والعظات إلى الجنب العالى الخديو أكبر أصحاب الشأن فى القضية المصرية ويعلمه كيف يكون وطنيا، وكما صدقت اليوم المسيو ديروجا الفرنسى والمسيو دراجيلا الأسباني فى دعواهما الغيرة عليها، والاهتمام بشأنها. فمالأتهما على أميرها أبى الوطنية، ومطلع كوكبها السارى. وظهرت فى توديعهما إلى منقاهما بمظهر تتصبب له الجباه عرقا. وتندى له الوجوه الكريمة حياء وخجلا. فلما قرأت فى روح الاجتماع وله «ولما كانت الجماعة على الدوام محلقة فى حدود اللا شعور تتأثر بالسهولة من جميع المؤثرات وذات إحساس قوى كإحساس الأشخاص الذين لا يمكنهم الاستعانة بالعقل ومجردة من ملكة النقد والتمييز كان من شأنها أن تكون سريعة التصديق سهلة الاعتقاد عرفت أن تلك طبيعة الجماعات وأن ليس الذنب فيها على المجتمع المصرى خاصة بل على المجتمعات الإنسانية عامة.

وكننت أعجب للرجل الذى لا بأس بلبه، ولا ظنة فى فهمه وإدراكه من محام بارع، أو طبيب حاذق. أو عالم محقق. أو باحث مدقق. أن أراه على جلاله وعظمه منتصبا وسط أتباع الحزب الوطنى يضح ضحيجهم، ويصرخ صراخهم، ويقول بما يقولون، ويفهم كما يفهمون. ويتقلب فى أكفهم تقلب الكرة فى أكف اللاعبين، ويشاركهم فى تصور ما لا يتصور، وتصديق ما لا يكون، حتى قرأت فى روح الاجتماع قوله أثناء الكلام على قابلية الجماعة للتصديق بالخيالات الباطلة «ولا ينبغى فى رد ما تقدم الاحتجاج بمن كان بين تلك

الجماعات من أهل العقل والذكاء الوافر لأنه لا تأثير لتلك الصفة في موضوعنا إذا العالم والجاهل سواء في عدم القدرة على التمييز ما داموا في الجماعة». وقوله في موضع آخر «وأشد الناس افتراقا من حيث مداركهم يتشابهون في الوجدانات والشهوات والمشاعر. وأعظم الرجال لا يتفاوتون عن العامة في الأمور التي مرجعها الشعور كالدين والآداب والميل والنفور وهكذا إلا نادرا. فقد يكون بين الرياضي الكبير وبين صانع حذائه بُعد ما بين السماء والأرض من حيث العقل والذكاء. ولكن الفرق بينهما في الطباع معدوم في الغالب أو هو ضعيف للغاية». وقوله في موضع آخر: يهبط المرء بمجرد انضمامه إلى الجماعة عدة درجات من سلم المدنية. ولعله في نفسه كان رجلا مثقف العقل، مهذب الأخلاق، ولكنه في الجماعة ساذج تابع للغريزة، ففيه اندفاع الرجل الفطري وشدته، وفيه عنفه وفيه حماسته وشجاعته، وفيه من سهولة التأثر بالألفاظ والصور مما لم يكن يتأثر به وهو خارج الجماعة. ثم فيه الانقياد بذلك إلى فعل ما يخالف منافع البديهية ويناقض طباعه التي اشتهرت عنه. وبالجملّة فإن الإنسان في الجماعة أشبه بحبة من رمال تثيرها الرياح ما «هبت هنالك» هدا خاطري. وثلج صدرى، وأمكنتني أن أقول إن أذكىءنا ليسوا بأغبياء، وعلماءنا ليسوا بجهلاء، ولكنهم انضموا إلى الجماعة فنزلوا منها منزلة أمثالهم من أمثالها في كل زمان ومكان.

وكننت أعجب لخضوع أتباع الحزب الوطني لرؤسائهم الذين يؤذونهم ويمثلون بهم ويستلبون أموالهم إن كانوا أغنياء. وقواهم إن كانوا أقوياء. ومستقبلهم إن كانوا متعلمين. وحاضرهم إن كانوا موظفين. وعقولهم إن لم يكونوا شيئاً من هذا ولا ذاك. كما كننت أعجب لانصرافهم عمن يأخذهم باللين. ويرفق بهم. ويحنو عليهم، ويضع يده في أيديهم في مزالق الحوادث مخافة أن تزل بهم أقدامهم. فما زال عجبى حتى قرأت في روح الاجتماع قوله في حديثه عن الجماعة «وهي تحترم القوة وتخضع لها. ولا تتأثر بالحسنى إلا قليلاً. لأنها في نظرها صورة من صور الضعف ليس إلا. لذلك لم تمل إلى رؤسائها الذين عرفوا باللين والرفق بل إلى الطغاة المستبدين الذين سحقوها».

وكننت أعجب لاهتمامهم بمطالعة المقالات السياسية التي تنشرها جرائد حزبهم وتأثرهم بها على ما تشتمل عليه من الأدلة الفاسدة. والمعاني السقيمة، والأساليب الباردة. والبراهين الملفقة، التي يأنف عقل العاقل أن يمنحها حتى النظرة الأولى. وكننت أظن أن ذلك راجع إلى فساد ذاتي في أذواقهم. أو ضعف غريزي في مداركهم حتى وقفت على الحقيقة عند الاطلاع على قول صاحب روح الاجتماع إن رابطة الأفكار التي تقرنها الجماعات ببعضها من حيث المشابهة أو التلازم ظاهرية لا حقيقية. فهي تتسلسل عندها كما تتسلسل الأدلة في ذهن الرجل الإسكيماوي الذي عرف بالتجربة أن الثلج

وهو جسم شفاف يذوب في الفم. فاستنتج من ذلك أن الزجاج وهو شفاف أيضا يجب أن يذوب في الفم. وكالمتوحش الذي يتصور أن أكل قلب العدو الشجاع ينقل شجاعته إلى الآكل. والحاصل أن تعقل الجماعات عبارة عن الجمع بين أشياء متخالفة لا رابطة بينها إلا في الظاهر والانتقال الفجائي من الجزئي إلى الكلي ومن التخصيص إلى التعميم بلا تروء. والأدلة التي يقدمها إليها أولئك الذين عرفوا كيف يقودونها كلها من هذا الطرز. لأنها هي الأدلة التي تؤثر فيها. بخلاف سلسلة من الأدلة المنطقية فإنها لا تدركها بحال. فالخطيب الخبير بأحوال جماعته يعرف طريقة استحضر الصور التي تجذبها، فإذا نجح فذلك ما أراد. ولو ألفيت خطب في عشرين مجلد بعد ذلك ما كان لها من التأثير ما أحدثته تلك الكلمات التي دخلت في الرعوس المراد إقناعها».

وكننت أعجب لإعراض المتعلمين منهم عن الحقائق التاريخية والسياسية والاجتماعية المتعلقة بالمسألة المصرية وعلاقة الدول الأجنبية بها عامة والدولة المحتلة خاصة. وتقدير الفرق بين قوة الدولة الغاصبة وقوة الأمة المغصوبة. وتنظم حلقات الوسائل الموصلة إلى سعادة مصر واستقلالها، وطيرانهم وراء أوهام الذين يقولون لهم «الجلء على الأبواب» و«الدستور قاب قوسين أو أدنى» و«قطعنا شوطا بعيدا» و«لم يبق إلا القليل» و«الدولة العثمانية بدأت تهتم بشأننا» و«الحكومة الألمانية تساعدنا» و«الحكومة الإنكليزية

ترتعد فرائضها منا» و«أوروبا جميعها تحسب لنهضتنا ألف حساب»، وأمثال ذلك مما هو أشبه بخيالات الأطباء الذين يحاولون تعزية المرضى المشرفين، وخرافات المنجمين الذين يعبثون بعقول عجزة الشيوخ وجهلة النساء وحتى قرأت في روح الاجتماع قوله: «سارت الفلسفة إلى الإمام شوطا بعيدا ولكنها مع تقدمها لم تهبيئ للجماعات خيالا يلذ لها. والجماعات لا غنى لها عن الأوهام. لذلك اندفعت وراء غريزتها وذهبت إلى تجار البلاغة الذين يبيعونها تجارة حاضرة مثلها مثل الحشرة التي تدب حيث يكون الضياء... فما كانت الجماعات في ظمأ إلى الحقيقة طول حياتها. وإذا تبدت أمامها وكانت تغضبها أعرضت ونأت وراحت تعبد الأوهام التي ترضي الإمرة عليها لمن أضلها. والويل منها لمن هداها، فعلمت أن تلك الجماعة ليست جاهلة ولا قاصرة. ولكنها جماعة. ومن الضروري أن تكون كذلك.

وكننت أعجب لتشيعهم للدستور واحتفالهم به. وإلحاحهم في طلبه وإلحاح الفاهم المدرك. وأنا أعلم أن أكثرهم لا يفهمون منه إلا أنه القوة التي يقتدر بها الشعب على أن يأكل بعضه بعضا بلا رقبة ولا حذر. فلو عرفوه حق معرفته لوجدوا في أنفسهم أن عدمه خير لهم من وجوده. لأنه عدل ورحمة. ولأنه يمنع ظلمة الآكلين أن يجدوا ما يأكلون. فلم أقف على سر تشيعهم له وهو في الحقيقة أبغض الأشياء إليهم، حتى قرأت في ذلك الكتاب قوله «وكم من جماعة

تقدمت إلى الموت في سبيل معتقدات وأفكار وكلمات كانت تكاد لا تفقه شيئا من معانيها... لأن المصلحة الذاتية قلما تكون سببا قويا لحركات الجموع».

وكننت أراهم غالين في مشاعرهم. متطرفين في ميولهم. وأرى أنهم إما أن يحبوا فيعبدوا وإما أن يبغضوا فيقتلوا. وأن الرجل عندهم إما أن يكون إلها أو شيطانا ولا ثالث لهما. وأن رضاهم عن رؤساء حزبهم لا يقل عن رضاهم عن رسلهم وأنبيائهم الذين هدوهم الصراط المستقيم. فأكاد أختصمهم بصفات الغفلة والبله لولا أن كشف لي روح الاجتماع سر المسألة في قوله «غلو مشاعر الجماعة وبساطتها يجعلانها لا تعرف الشك ولا التردد. فهي كالنساء تذهب فورا إلى الحد الأقصى. فالشبهة متى بدت تنقلب إلى بديهي لا يقبل البحث. والرجل منفردا قد لا يقر على أمر أو ينفر منه نفورا لا يتعدى مجرد الرغبة عنه. وأما الرجل في الجماعة فإنه متى نفر انقلب نفوره حقا شديدا» وقوله في موضع آخر: «كثير ما سمعنا عن ملهى كان يكثر من تمثيل الروايات المحزنة فكان الحرس يحيط دائما بممثل الخائن الأثيم عند خروجه خوفا عليه من هياج المتفرجين الذين ثارت نفوسهم للانتقام منه لأنه ارتكب تلك الجرائم الوهمية. وهذا فيما أرى من أكبر الأدلة على حالة الجماعات العقلية وبالأخص على سهولة التأثير فيها. فللهومي عليها من ذلك ما للحقيقي تقريبا. وهي ميالة ميلا ظاهرا إلى عدم التمييز بينهما».

وكننت أعتقد أن لا شيء يؤثر في نفوس الجماعات غير إخلاص الدعاة. ثم استحال علىّ التوفيق بين ما أعتقد وبين ما أعلم من أطوار زعماء الحزب الوطني ودخائل نفوسهم من أنهم لا يطلبون مما يعملون في هذه الحياة غير ما يطلب كل عامل فيها من لقمة سائغة، وجرعة صافية. ومركب فاره. ومتكأ وثير حتى اهتديت إلى حل هذه العقدة في قول صاحب روح الاجتماع: «وجد القواد في الأمم على الدوام، غير أنهم ليسوا جميعا من أهل الاعتقاد الصادق الذي يصير به المرء رسولا في قومه. بل هم في الغالب سوفسطائيون لا يسعون إلا وراء منافعهم الذاتية فيتملقون ذوي المشاعر السافلة ليكتسبوا رضاهم، وقد يكون النفوذ الذي ينالونه بهذه الوسائل كبيرا جدا إلا أنه سريع الزوال».

وكننت أعتقد أن أقدر الناس على قيادة الجماعات أذكاهم قلبا. وأوسعهم عقلا. وأفصحهم لسانا. وأجرأهم قلما، فلما رأيت أن قواد لحزب الوطني ليس فيهم من يمتاز عن أفراد الطبقة التي نشأ فيها بميزة خاصة من طلاقة لسان. أو بلاغة قلم، أو علم واسع، أو خلق مؤثر. وقفت أمام هذه المعضلة المستعصية وقفة الحائر المضطرب حتى قرأت في روح الاجتماع قوله: «ليس القواد غالبا من أهل الرأي والحصافة. بل هم من أهل العمل والإقدام. وهم قليلو التبصر، على أنه ليس في استطاعتهم أن يكونوا بصراء. لأن التأمل يؤدي غالبا إلى الشك ثم إلى السكون. وهم يخرجون عادة من بين ذوي الأعصاب

المريضة المتهوسين الذين اضطربت قواهم العقلية إلى النصف وأمسوا على شفا جرف الجنون. لا ينفع الدليل على فساد ما اعتقدوا كيفما كان معتقدهم باطلا. ولا تثنهم حُجة عن طلب ما قصدوا بالغاً منها الخطل ما بلغ. ولا يؤثر فيهم الاحتقار ولا الاضطهاد. بل ذلك يزيدهم تهوساً وعناداً» وقوله في موضع آخر: «وكان أكبر القواد من الأمم خصوصا قواد الثورة الفرنسية من قصار العقول جدا. وكان أكبرهم تأثيراً أشدهم قصراً في العقل. فإن الإنسان ليدهش مما يراه من التخبط عند مطالعة رسائل أعظمهم قدراً وهو روسبير. ومن لم يقرأ غيرها من ترجمة حياته لا يجد ما يعجل به قوة ذلك المسيطر الجبار... صيغ كلية جارية على كل لسان. وشقشقة في الفصاحة المحفوظة من كتب التربية والتعليم على الطريقة اللاتينية اجتمعتا في نفس خلوها أكثر من انحطاطها. نفس تكاد لا تعرف من وسائل الهجوم أو الدفاع إلا ما تعودته التلاميذ من قول الواحد منهم لزميله: هل من مبارز: وليس هناك رأي ولا تدبير ولا شاردة. عنف ممل وشدة مسئمة. فإذا فرغ القارئ من تلك المطالعة المملة شعر بالحاجة إلى قول أف كما كان يفعل الرجل الظريف كاميل ديمولان.

وكننت أعجب لبعض أتباع الحزب الوطني وبعض كتاب جرائده كيف استحالوا إلى جناة مجرمين. بعد أن كانوا أشرافاً أتقياء. وكيف هان عليهم أن يجاملوا نفوسهم بالإغضاء عما تقتترفه من سب الأبرياء وهتك أعراض الأشراف والعب في الدماء البشرية بصورة

وحشية بعد أن كانوا يترفعون عن لم الذنوب وصغائر الدنيا. كما كنت أعجب لهذا البائس المسكين الذي كان أندى الناس وجهاً. وأكثرهم حياءً وأدباً. كيف حسن في نظره منظر جريمة القتل التي ارتكبها ثم هلك في سبيلها فضرب بجريمته الوطن الذي يحسب أنه يخدمه ضربة هيهات أن يئل من بعدها^(١). ثم عرفت أن ذلك لازم من لوازم الجماعات عندما قرأت قول صاحب روح الاجتماع: «إن الفرد يكتسب من وجوده وسط الجمع قوة كبيرة تشجعه على الاسترسال في أمياله مما كان يحجم عنه مفرداً بالضرورة. ثم هو لا يكبح جماح نفسه لأن الجماعة لا تسأل عن أفعالها لشيوعها بين جميع الأفراد. فلا يشعر الواحد منهم بما قد يجره العمل عليه من التبعة. وهذا الشعور هو الزاجر للنفوس عما لا ينبغي» وقوله في موضع آخر «تصدر الجرائم عن الجماعة غالباً بسبب تحريض قوي. ويعتقد الذين ارتكبوها من أفرادها أنهم قاموا بواجب كان مفروضاً عليهم، وهذا ليس شأن الجناة في الأحوال الاعتيادية». وهنا يمكنني أن أستخلص مما تقدم الحقائق الآتية.

(١) ليس إجماع واحد أو عشرة آلاف أو مائة ألف متأثرين بشعور واحد مستمد من قوة واحدة على رأي من الآراء دليلاً على صحة ذلك الرأي، لأنه رأي فرد واحد تأثر به الباقي تقليداً وعدوى. ورأي الواحد مترجح بين الخطأ والصواب.

(١) المراد بهذه الجريمة جريمة الورداني قاتل بطرس باشا.

(٢) ليس انضمام جماعة من أذكىء الناس وعقلائهم في حزب من الأحزاب أو جمعية من الجمعيات دليلا على فضل ذلك الحزب أو شرف مقاصده أو صحة مبادئه لأنهم لا يجتازون عتبته إلا بعد أن يخلعوا عقولهم ومواهبهم مع أرديتهم وعصيتهم خارج باب.

(٣) لا يشترط في قيادة الجموع أن يكون القائد ذكيا أو عاقلا أو داهية أو مفكرا أو فصيحاً، بل يكفيه من ذلك كله شيء من العلم بأذواق أتباعه وسبل الوصول إلى قلوبهم لا يزيد على علم التاجر بأذواق زبائنه ورغباتهم.

(٤) ليس حب الجماعة لبعض الناس وبغضهم لآخرين دليلا على رفعة من يحبون. وضعة من يبغضون. وليست جرائمهم التي يقترفونها باسم الشعور الذي يشتركون فيه دليلا على أن من يُقتل يستحق القتل. أو من يُشتم يستحق الشتم. أو من يُحتقر يستحق الاحتقار. بل كثيرا ما تكون الحقيقة على العكس من ذلك عندما يكون قائد تلك الجماعة من أشرار الناس وأدنيائهم.

(٥) لا يكون مقتدرا تمام الاقتدار على قيادة الجماعات واستهوائها أو مقاومتها ومصارعتها من يذهب في كتاباته أو خطابه مذهب القياس الصحيح والبرهان العقلي. ومن يكون كثيرا لاحتباس من الكذب والتلفيق والسفسطة والتضليل أو طاهر اللسان والقلم من السفاهة والشتم.

(٦) لا سبيل للإنسان إلى الخلاص من خطر الجماعات وضلالها

مهما كان ذكيا أو مفكرا إلا إذا حبس نفسه عن الانضمام إليها، أو كان له من عزيمة الرأي وصلابة النفس ما يمكنه من تربية نفسه على التجرد حتى يصير طبيعة له، فيحضرها شاهدا كغائب ومجتمعاً كمنفرد.

(٧) لا يجوز للتلميذ في أثناء الدراسة أن ينضم إلى حزب من الأحزاب أو جمعية من الجمعيات بالفعل أو بالقوة إلا بعد أن يستمد من العلم قوة تساعد على اكتساب ملكة التجرد التي لا بد له من معالجة اكتسابها للخلاص من جنون الجماعات وتهوسها إن اضطر في مستقبل أمره إلى الانضمام إليها.

(٨) جميع القوى التي يتوسل بها قائد الحزب أو الجماعة إلى التأثير في أتباعه أو تكثير عددهم ضعيفة بجانب القوة التي يستمدّها من مقاومة الحكومة التي يعيش فيها له بالتهديد أو السجن أو التعذيب. فإنه يستفيد من ذلك عطف أتباعه عليه. وتشبّثهم به. ويؤنس بأحاديث نكبته ونوادر رزيلته قلوبهم كلما ألمّ بها الملل منه ومن وعوده الكاذبة وأقواله المرددة. فإن كان لتلك الحكومة أرب في القضاء عليه وعلى أتباعه وكانت قادرة على قطع الصلة بينه وبينهم بقفل جريدته إن كان صحافياً أو قطع خطابه إن كان خطيباً فلتفعل. وإلا فلتتركه وشأنه حتى يعيى بأمرهم. وتنفذ بقية القوى التي يتوسل بها إليهم.

(٩) ليست تلك الطبيعة المقررة للجماعات المؤلفة من البساطة

والبله وسرعة التصديق والاندفاع والغلو شرا دائما. بل قد تكون خيراً محضاً إذا رزق الله تلك الجماعات قواداً دهاة مقتدرين على الخداع الشريف يسوقونها إلى سعادة أممهم وهنائها. وحريتها واستقلالها.

(١٠) ليس وجود التهوس والتحمس والغضب والتهور في حزب من الأحزاب المصرية دليلاً على تأخر الأمة وانحطاطها انحطاطاً كثيراً لأنها صفات عامة في كل الجموع الشرقية والغربية وإن كان خطرنا علينا أكثر من خطرنا على غيرنا.

مناجاة القمر

أيها الكوكب المثل من علياء سمائه، أنت عروس حسناء تشرف
من نافذة قصرها، وهذه النجوم المبعثرة حواليك قلائد من جمان؟
أم ملك عظيم جالس فوق عرشه، وهذه النيرات حور وولدان؟ أم
فص من ماس يتلألأ، وهذا الأفق المحيط بك خاتم من الأنوار؟ أم
مرآة صافية، وهذه الهالة الدائرة بك إطار؟ أم عين ثرة ثجاجة؟
وهذه الأشعة جداول تتدفق؟ أم تنور مسجور؛ وهذه الكواكب شرر
يتألق؟!

أيها القمر المنير:

إنك أنرت الأرض: وهادها ونجادها، وسهلها ووعرها،
وعامرها وغامرها؛ فهل لك أن تشرق في نفسي فتنير ظلمتها،
وتبدد ما أظلمها من سحب الهموم والأحزان؟

أيها القمر المنير:

إن بيني وبينك شبها واتصالا؛ أنت وحيد في سمائك، وأنا وحيد
في أرضي كلانا يقطع شوطه صامتا هادئا، منكسرا حزينا، لا يلوي
على أحد ولا يلوي عليه أحد، وكلانا يبرز للآخر في ظلمة الليل
فيسايره ويناجيه، يراني الرائي فيحسبني سعيدا، لأنه يغتر
بابتسامة في ثغري، وطلاقة في وجهي، ولو كشف له عن نفسي
ورأى ما تنطوي عليه من الهموم والأحزان لبكى لي بكاء الحزين

إثر الحزين؛ ويراك الرائي فيحسبك مغتبطا مسرورا، لأنه يغتر
بجمال وجهك ولمعان جبينك، وصفاء أديمك، ولو كشف له عن
عالمك لرآه عالما خرابا، وكونا يبابا، لا تهب فيه ريح ولا يتحرك
شجر، ولا ينطق إنسان، ولا يبيغم حيوان.
أيها القمر المنير:

كان لي حبيب يملأ نفسي نورا، وقلبي لذة وسرورا، وطالما كنت
أناجيه ويناجيني بين سمعك وبصرك، وقد فرق الدهر بيني وبينه،
فهل لك أن تحدثني عنه، وتكشف لي عن مكان وجوده؟ فربما كان
ينظر إليك نظري، ويناجيك مناجاتي، ويرجوك رجائي.
وهأنذا يخيل إليّ أنني أرى صورته في مرآتك، وكأنني أراه يبكي
من أجلي كما أبكي من أجله، فأزداد شوقا إليه، وحزنا عليه.. فابق
في مكانك طويلا تطل وقفتنا، ويدوم اجتماعنا.
أيها القمر المنير:

ما لي أراك تنحدر قليلا قليلا إلى مغربك كأنك تريد أن تفارقني،
وما لي أرى نورك الساطع قد أخذ في الانقباض شيئا فشيئا، وما هذا
السيف المسلول الذي يلمع من جانب الأفق على رأسك؟
قف قليلا، لا تغب عني، لا تفارقني، لا تتركني وحيدا، فإني
لا أعرف غيرك، ولا آنس بمخلوق سواك.
آه، لقد طلع الفجر، ففارقني مؤنسي، وارتحل عني صديقي،
فمتى تنقضي وحشة النهار ويقبل إليّ أنس الظلام!!

الماس بيرا

ليس في الناس من يجهل أن في القاهرة شارعاً يسمى بشارع الموسكي. وليس فيهم من يجهل أن في ذلك الشارع حانوتا كبيراً فتحه صاحبه ليبيع فيه الزجاج باسم الماس.

عرف ذلك التاجر أن الناس لا يصدقونه بمجرد دعواه فأقام لهم على صدقه برهانا لا علاقة بينه وبين الموضوع. لأنه يعلم أن البسطاء وإن كانوا يهتمون بطلب البراهين فإنهم لا يهتمون بالعلاقات بينها وبين الدعاوى.

أما البرهان فهو أنه علق في جدران حانوته وفي سقفه ونوافذه مصابيح كهربائية تدور على نفسها تارة وعلى بعضها تارة أخرى. فإذا انعكست أشعتها على ما في تلك الخواتم والأقراط والأساور والدمالج من القطع الزجاجية كان لها بريق ولمعان كبريق الماس ولمعانه. فتخدع بها المرأة البسيطة فتبتاعها بما قدر لها صاحبها من الأثمان. فإذا عادت إلى منزلها ولبستها رأَتْ حجرا ما كانت تظنه جوهرًا ورأت ذلك النور الساطع سوادا قاتما وظلاما فاحما. وهيهات أن يعود لها سرورها بذلك المنظر المتلألئ إلا إذا سكنت الحانوت واتخذته بيتا لها. أو علقت في جيدها وشعرها وفي كل أصبع من أصابعها وساعد من سواعدها أرجوحة كهربائية.

ما أشبه الحزب الوطني بالتاجر الغاش. وما أشبه الوطنية الكاذبة بالماس بيرا. وما أشبه المظاهرات والاحتفالات بالمصاييح الدائرات. وما أشبه البسطاء بالنساء.

لو عرف ذلك التاجر أن في حانوته جوهرًا صحيحًا لما احتاج أن ينفق تلك النفقات الكثيرة على تلك المصاييح اللامعة. ولو عرف الحزب الوطني أن بين جوانحه وطنية صادقة لأعفى نفسه من تلك النفقات التي ينفقها على تلك المظاهرات. ولقام له صدقه وإخلاصه مقام تلك الاحتفالات. ولكنه عرف سلعته وعرف أنه إن عرضها في سوقها لا يجد من يساومه فيها بسحتوت واحد. فطلاها بذلك الطلاء الكاذب ليخدع الناس عنها ويفتنهم بها.

ما مررت بحانوت الماس إلا نظرت إليه وإلى مبلغ إقبال الناس عليه. لأنني أصبحت أعد الميزان الذي أزن به عقل الأمة وفهمها صعودًا وهبوطًا، ولقد مررت به اليوم فلم أر أمامه ذلك الزحام الذي كنت أراه من قبل. فألم بنفسى من السرور والغبطة ما الله عالم به. وأيقنت أن ما ألم بحانوت الموسكى قد ألم مثله بحانوت الدواوين.

الغد

عرفت أني فكرت ليلة أمس فيما أكتب اليوم، وعرفت أني آخذ الساعة بقلمني بين أناملني، وأن بين يدي صحيفة بيضاء تسود قليلا قليلا كلما أجريت القلم فيها؛ ولكنني لا أعلم هل يبلغ القلم مداه أو يكبو^(١) دون غايته؟ وهل أستطيع أن أتمم رسالتي هذه، أو يعترض عارض من عوارض الدهر في سبيلها؟ لأنني لا أعرف من شؤون الغد شيئا، ولأن المستقبل بيد الله..

عرفت أني لبيت أثوابي في الصباح، وإنني لا أزال ألبسها حتى الآن، ولكنني لا أعلم هل أخلعها بيدي أو تخلعها يد الغاسل؟
الغد شبح مبهم يتراءى للناظر من مكان بعيد، فربما كان ملكا رحيفا، وربما كان شيطانا رجيفا، بل ربما كان سحابة سوداء إذا هبت عليها ريح باردة حللت أجزائها، وبعثرت ذراتها، فأصبحت كأنما هي عدم من الأعدام التي لم يسبقها وجود.
الغد بحر خضم زاخر يعب عبابه^(٢) وتصطخب أمواجه، فما يدريك إن كان يحمل في جوفه الدر والجوهر، أو الموت الأحمر.
لقد غمض الغد عن العقول، ودق شخصه عن الأنظار، حتى لو أن إنسانا رفع قدمه ليضعها في خروجه من باب قصره؛ لا يدري أين يضعها على عتبة القصر أم على حافة القبر.

(١) كبا: سقط على وجهه.

(٢) يعب عبابه: يرتفع موجه.

الغد صدر مملوء بالأسرار الغزار، تحوم حوله البصائر،
وتتسقطه^(١) العقول، وتستدرجه الأنظار، فلا يبوح بسر من
أسراره؛ إلا إذا جاءت الصخرة بالماء الزلال.

كأني بالغد وهو كامن في مكمنه، رابض في مجثمه^(٢). متلغف بفضل
إزاره، ينظر إلى آمالنا وأمانينا نظرات الهزء والسخرية ويبتسم
ابتسامات الاستخفاف والازدراء، يقول في نفسه: لو علم هذا الجامع
أنه يجمع للوارث، وهذا الباني أنه يبني للخراب، وهذا الوالد أنه
يلد للموت: ما جمع الجامع ولا بنى الباني ولا ولد الوالد.

ذل الإنسان كل عقبة في هذا العالم، فاتخذ نفقا في الأرض،
وصعد بسلم إلى السماء، وعقد ما بين المشرق والمغرب بأسباب^(٣) من
حديد وخيوط من نحاس، وانتقل بعقله إلى العالم العلوي، فعاش في
كواكبه، وعرف أغوارها وأنجادها، وسهولها وبطاحها، وعامرها
وغامرها، ورطبها ويابسها، ووضع المقاييس لمعرفة أبعاد النجوم
ومسافات الأشعة، والموازين لوزن كرة الأرض إجمالا وتفصيلا،
وغاص في البحار فعرف أعماقها، وفحص تربتها، وأزعج سكانها،
ونبش دفائنها، وسلبها كنوزها، وغلبها على لآلئها وجواهرها،
ونفذ من بين الأحجار والآكام إلى القرون الخالية، فرأى أصحابها
وعرف كيف يعيشون، وأين يسكنون، وماذا يأكلون ويشربون،

(١) تسقط الخبر: أخذه شيئا فشيئا.

(٢) مجثم الطائر: موضع جثومه، أي تليده بالأرض.

(٣) الأسباب: الحبال، وكل ما يوصل بين الشيئين.

وتسرب من منافذ الحواس الظاهرة إلى الحواس الباطنة، فعرف النفوس وطبائعها، والعقول ومذاهبها، والمدارك ومراكزها، حتى كاد يسمع حديث النفس ودبيب المنى، واخترق بذكائه كل حجاب، وفتح كل باب، ولكنه سقط أمام باب الغد عاجزا مقهورا لا يجرؤ على فتحه، بل لا يجسر على قرعه؛ لأنه باب الله، والله لا يطلع على غيبه أحدا.

أيها الشبح المثلث بلثام الغيب، هل لك أن ترفع عن وجهك هذا اللثام قليلا لنرى صفحة^(١) واحدة من صفحات وجهك المكنع، أو لا، فاقترب منا قليلا علَّنا نستطيع أن نستشف صورتك من وراء هذا اللثام المسبل دوننا، فقد طارت قلوبنا شوقا إليك، وذابت أكبادنا وجدا عليك.

أيها الغد؛ إن لنا آمالا كبارا وصغارا، وأمانيا حسانا وغير حسان، فحدثنا عن آمالنا، أين مكانها منك، وخبرنا عن أمانينا ماذا صنعت بها؛ أذللتها واحتقرتها، أم كنت لها من المكرمين؟ لا، لا، صن سرك في صدرك، وأبق لثامك على وجهك، ولا تحدثنا حديثا واحدا عن آمالنا وأمانينا حتى لا تفجعنا فيها فتفجعنا في أرواحنا ونفوسنا، فإنما نحن أحياء بالآمال وإن كانت باطلة، وسعداء بالأمانيا وإن كانت كاذبة:

وليست حياة المرء إلا أمانيا إذا هي ضاعت فالحياة على الأثر

(١) صفحة الشيء: جانبه.

الكأس الأولى

كان لي صديق أحبه وأحب منه سلامة قلبه، وصفاء سريرته،
وصدقه ووفاءه في حالي بعده وقربه، وغضبه وحلمه، وسخطه
ورضاه، ففرق الدهر بيني وبينه فراق حياة لا فراق ممات، فأنا
اليوم أبكيه حيا أكثر مما كنت أبكيه لو كان ميتا، بل أنا لا أبكي
إلا حياته، ولا أتمنى إلا مماته، فهل سمعت بأعجب من هذه الخلقة
الغريبة في طبائع النفوس!

علقت حبالي بحباله حقبة من الزمان عرفتة فيها وعرفني،
ثم سلك سبيلا غير سبيله فأنكرته وأنكرني، حتى ما أمر بباله،
لأن الكأس التي علق بها لم تدع في قلبه فراغا يسع غيرها وغير
العالمين بها، وربما كان يدفعني عن مخيلته دفعا إذا تراءيت فيها
لأنه إذا ذكرني ذكر معي تلك الكلمات المرة التي كنت ألقاه بها في
فاتحة حياته الجديدة، وما كان له وهو يهيم في فضاء سعادته التي
يتخيلها أن يكدر على نفسه بمثل هذه الذكرى صفاء هذا الخيال.

ثم لم أعد أعلم من أمره بعد ذلك شيئا؛ لأن حياة المدمنين حياة
متشابهة متماثلة، لا فرق بين صباحها ومساءنها، وأمسها وغدها؛
ذهاب إلى الحانات، فشرب، فخمار^(١) فنوم، فذهاب، كالحلقة

(١) الخمار: صدام الشراب.

المفرغة، لا يدري أين طرفاها، والمنظر المتكرر لا يلفت النظر ولا يشغل الذهن، حتى إن بعض من ينام على دورة الرحى يستيقظ عند سكونها، وكان أخرى أن يوقظه دورانها.

لذلك لم يشغل هذا المسكين محلا من قلبي إلا بعد أن سكنت دورته، وهدأت حركته، فلم أعد أراه معربدا في الحانات، ولا مطرحا في مدارج الطرق، ولا معتقلا في أيدي الشرط^(١). هناك سألت عنه فقيل لي: مريض، فلم أعجب لشيء كنت أعد له الأيام والأعوام كما يعد الفلكي الساعات والدقائق لكسوف الشمس واصطدام الكواكب.

دخلت عليه أعوده فلم أجد عنده طبيبا ولا عائدا، لأنه فقير؛ والأطباء يظهرون الرحمة بالفقراء، ويبطنون حب الصفراء والبيضاء؛ والأصدقاء يخافون عدوى المرض وعدوى الفقر؛ فلا يعودون المريض ولا يزورون الفقير.

دخلت منزله فلم أجد المنزل ولا صاحبه؛ لأنني لم أجد فيه ذلك الروح العالي الذي كان يرفرف بأجنحته في غرفه وقاعاته، ولم أر دخان المطبخ؛ ولم أسمع ضوضاء الخدم، ولا بكاء أطفال؛ ولا رنين الأجراس؛ فكأنني دخلت القبر أزور الميت، لا المنزل أعود الحي! ثم تقدمت نحو سرير المريض فكشفت كلته البالية عن خيال لم يبق منه إلا إهاب^(٢) لاصق بعظم ناحل؛ فقلت: «أيها الخيال

(١) الشرط: أعوان الأمير، ومفرده «شرطي» بضم الشين وسكون الراء.

(٢) الإهاب: الجلد.

النشاخص ببصره إلى السماء قد كان لي في إهابك هذا صديق محبوب
فهل لك أن تدلني عليه؟ فبعد لأي^(١) حرك شفتيه وقال: هل
أسمع صوت فلان؟ قلت: نعم، مم تشكو؟ فزفر زفرة كادت تتساقط
لها أضلاعه وأجاب: أشكو الكأس الأولى، قلت: أي كأس تريد؟
قال: أريد الكأس التي أودعتها مالي وعقلي وصحتي وشرفي، وها
أنا ذا اليوم أودعها حياتي؛ قلت: قد كنت نصحتك ووعظتك،
وأذرتك بهذا المصير الذي صرت إليه فما أجديت عليك شيئاً،
قال: ما كنت تعلم حين نصحتني من غوائل هذا العيش النكد أكثر
مما أعلم، ولكنني كنت شربت الكأس الأولى فخرج الأمر من يدي.
كل كأس شربتها جنتها عليّ الكأس الأولى، أما هي فلم يجنّها
عليّ غير ضعفي وقصور عقلي عن إدراك خداع الأصدقاء والخطأ.
لم تكن شهوة الشراب مركبة في الإنسان كبقية الشهوات فيعذر
في الانقياد إليها كما يعذر في الانقياد إلى غيرها من الشهوات
الغريزية؛ فلا سلطان لها عليه إلا بعد أن يتناول الكأس الأولى.
فلم يتناولوها؟ يتناولوها لأن الخونة الكاذبين من خلانه وعشرائه
خدعوه عن نفسه في أمرها ليستكملوا بانضمامه إليهم لذاتهم التي
لا تتم إلا بقراع الكئوس وضوء الاجتماع. ولو علمت كيف خدعوه
وزينوا له الخروج عن طبعه ومألوفه، وأي ذريعة تذرعوا بها إلى
ذلك؛ لتحققت أنه أبله إلى النهاية من البلاهة، وضعيف إلى الغاية
التي ليس وراءها غاية.

(١) يقال «فعله بعد لأي» أي إبطاء، و «ما» زائدة.

أنا ذلك الأبله وذلك الضعيف، فاسمع كيف خدعني الأصدقاء، وزينوا لي ما يزينه الشيطان للإنسان.

قالوا: إن حياتك حياة هموم وأكدار، ولا دواء لهذه الأدواء إلا الشراب، وقالوا: إن الشراب يزيد رونق الجسم، ويبعث نشاطه، وإنه يفتق اللسان ويعلم الإنسان البيان، وإنه يشجع الجبان، ويبعث في القلب الجرأة والإقدام، هذا ما سمعته فصدقته وخدعت به. صدقت أن في الشراب أربع مزايا: السعادة، والصحة، والفصاحة، والإقدام؛ فوجدت فيه أربع رزايا: الفقر، والمرض، والسقوط، والجنون.

غرهم من الصحة ذلك اللون الأحمر، الذي يتركه الشراب وراءه في الأعضاء. وهو يتغلغل في الأحشاء، ومن الفصاحة الهذر والهذيان، وهجر^(١) القول وبذاءة اللسان، ومن الإقدام العريضة التي لا تسكن إلا في غرفة السجن، ومن السعادة اللحظات القليلة التي يغشى فيها على عقل الشارب فيعمى عن رؤية ما يحيط به من الأشياء كما هي، فتنعكس في نظره الحقائق حتى يتخيل الشتم طرفة^(٢) والصفع تحية، فيضحكه من ذلك ما يضحك الأطفال والمرورين^(٣).

أي سرور لمن يعيش في منزل لا يزور الابتسام ثغرا من ثغور ساكنيه؟ أي سرور لمن يودعه أهله كل يوم في صباحه بالחסرات،

(١) الهجر: الفحش.

(٢) الطرفة: الملحة المستحسنة.

(٣) المرور: الذي هاجت مرته، ويطلق على الجنون.

ويستقبلونه في مسائه بالزفرات؟ أي سعادة لمن يمشي دائما في طريقه متلويا متخلجا^(١) يتسرب في المنعطفات والأزقة، ويعود بألواز^(٢) الجدر والأسوار فرارا من نظرات الجزار، وتهكمات العطار، وصرخات الخمار؟!

ولقد كنت أرى هؤلاء الأشقياء في فاتحة حياتي التعسة فكان يمر بخاطري ما يمر بخاطر أمثالي أنهم قتلى الإدمان لا قتلى الشراب، وكنت أقدر لنفسي القصد فيه إن قدر لي في أمره شيء حتى لا أبلغ مبلغهم، ولا أنزل منزلتهم، فلما شربت أخطأ العد، وضاع الحساب، وفسد التدبير، واختلف التقدير، وغلبت على أمري كما يغلب على أمره كل مخدوع بمثل ما خدعت به؛ ولولا الكأس الأولى ما هلكت ولا شكوت الذي شكوت، ولولاها ما عافني الأصدقاء، ولا زهد في الأقرباء، فكن أنت وحدك صديق السراء والضراء. فعاهدته على ذلك، ثم تركته في حالة:

تصم السميع وتعمي البصير ويسأل من مثلها العافية

(١) متخلجا: متثنيا.

(٢) لوز الجبل: جانبه، والجمع: ألواز.

أين الفضيلة

قرأت في بعض الروايات أن فتى قضى حقبة من دهره مولعا بحب فتاة خيالية لم يرها مرة واحدة في حياته، وإنما تخيل في ذهنه صورة ألفها من شتى المحاسن ومتفرقاتها في صور البشر، فلما استقرت في مخيلته تجسمت في عينيه فرآها أحبها حبا ملك عليه قلبه وحال بينه وبين نفسه وذهب به كل مذهب: فأنشأ يفتش عنها بين سمع الأرض وبصرها أعواما طوالا حتى وجدها.

لا أستطيع أن أكذب هذه القصة لأنني أنا ذلك الفتى بعينه، لا فرق بيني وبينه إلا أنه يسمى ضالته: الفتاة، وأسميها الفضيلة، وأنه فتش عنها فوجدها، وفتشت عنها حتى عييت بأمرها فما وجدت إليها سبيلا.

فتشت عن الفضيلة في حوانيت التجار فرأيت التاجر لصا في أثواب بائع، وجدته يبيعي بدينارين ما ثمنه دينار واحد، فعلمت أنه سارق للدينار الثاني، ولو وكل إلي أمر القضاء ما هان علي أن أعاقب لصوص الدراهم، وأغفل لصوص الدنانير، ما دام كل منهما يسلبني مالي ويتغفلني عنه.

أنا لا أنكر على التاجر ربحه، ولكن أنكر عليه أن يتناول منه أكثر من الجزاء الذي يستحقه على ما بذل من جهد في جلب السلعة وما أنفق من راحته في سبيل صونها وإحرازها، وكل ما أعرف من

الفرق بين حلال المال وحرامه : أن الأول بدل الجد والعمل ، والثاني بدل الغش والكذب.

فتشت عن الفضيلة في مجالس القضاء ، فرأيت أن أعدل القضاة من يحرص الحرص كله على ألا يهفو في تطبيق القانون الذي بين يديه هفوة يحاسبه عليها من منحه هذا الكرسي الذي يجلس عليه مخافة أن يسلبه إياه ، أما إنصاف المظلوم والضرب على يد الظالم. وإراحة^(١) الحقوق على أهلها وإنزال العقوبات منازلها من الذنوب : فهي عنده زيول وأذئاب لا يأبه^(٢) لها ، ولا يحتفل بشأنها إلا إذا أشرق عليها الكوكب بسعده فمشت مع القانون في طريق واحد مصادفة واتفاقا ، فإذا اختلف طريقاهما بين يديه حكم بغير ما يعتقد ونطق بغير ما يعلم ، ودان البريء وبرأ المجرم ، فإذا عتب عليه في ذلك عاتب كانت معذرتة إليه حكم القانون عليه. كأنما يريد أن يجعل العقل أسير القانون ، وما القانون إلا حسنة من حسنات العقل وصنيعة من صنائعه.

فتشت عن الفضيلة في قصور الأغنياء ، فرأيت الغني إما شحيحا أو متلافا ؛ أما الأول ، فلو كان جارا لبيت فاطمة - ﷺ - وسمع في جوف الليل أنينها وأنين ولديها من الجوع ما مد أصبعيه إلى أذنيه ثقة منه أن قلبه المتحجر لا تنفذه أشعة الرحمة ، ولا تمر

(١) أراح الحق على أهله : أعاده إليهم.

(٢) أبه للشيء : تفتن له واحتفل.

بين طياته نسمات الإحسان، وأما الثاني: فماله بين الثغرين: ثغر الحسناء، وثغر الصهباء.. فعلى يد أي رجل من الرجلين تدخل الفضيلة قصور الأغنياء؟

فتشت عنها في مجالس السياسة، فرأيت أن المعاهدة والاتفاق والقاعدة والشرط: ألفاظ مترادفة معناها الكذب، فرأيت أن الملك في كرسي مملكته، كالحوزي في كرسي عربته، لا فرق بينهما إلا أن هذا ينقض (تعريفته)، وذاك ينقض معاهدته، ورأيت أن أعدى عدو للإنسان الإنسان، وأن كل أمة قد أعدت في مخازنها ومستودعاتها وفي بطون قلاعها وعلى ظهور سفنها وفوق متون طياراتها ما شاء الله أن تعده لأختها من الموت وأفانين العذاب حتى إذا وقع الحثف بينهما على حد من الحدود أو جدار من الجدران، لبس الإنسان فروة السبع واتخذ له من تلك العدد الوحشية أظفارا كأظفاره وأنيابا كأنيابه، فشحذ الأولى وكشر عن الأخرى، ثم هجم على ولد أبيه وأمه هجمة لا يعود منها إلا بنفسه التي بين جنبيه، وإنك لو سألت الجنديين المتقاتلين ما خطبكما وما شأنكما؟ وعلام تقتتلان؟ وما هذه الموجدة التي تحملانها بين جنبيكما؟ ومتى ابتدأت الخصومة بينكما، وعهدي بكما أنكما ما تعارفتما إلا في الساعة التي اقتتلتما فيها؟ لعرفت أنهما مخدوعان عن نفسيهما، وأنهما ما خرجا من ديارهما إلا ليضعا درة في تاج الملك، أو نيشانا على صدر القائد.

فتشت عنها بين رجال الدين فرأيتهم - إلا من رحم الله - يتجرأون بالعقول في أسواق الجهل، ورأيت كلا منهم قد ثغر له في كل رأس من رؤوس البشر ثغرة ينحدر منها إلى العقول فيفسدها، والمشاعر فيقتلها، ليتوسل بذلك إلى الذخائر فيسرقها، والخزائن فيسلبها. فتشت عنها في كل مكان أعلم أنه تربتها وموطنها فلم أعر بها، فليت شعري هل أجدها في الحانات والمواخير، أو في مغارات اللصوص، أو بين جدران السجون.

سيقول كثير من الناس: قد غلا الكاتب في حكمه وجاوز الحد في تقديره، فالفضيلة لا تزال تجد في صدور كثير من الناس صدرا رحبا، وموردا عذبا؛ وإني قائل لهم قبل أن يقولوا كلمتهم: إني لا أنكر وجود الفضيلة، ولكنني أجهل مكانها، فقد عقد رياء الناس أمام عيني سحابة سوداء أظلم لها بصري، حتى ما أجد في صفحة السماء نجما لامعا، ولا كوكبا طالعا.

كل الناس يدّعي الفضيلة وينتحلها، وكلهم يلبس لباسها ويرتدي رداءها ويعد لها عدتها من منظر يستهوي الأذكياء والأغبياء، ومظهر يخدع أسوأ الناس بالناس ظنا، فمن لي بالوصول إليها في هذا الظلام الحالك، والليل الأليل؟

إن كان صحيحا ما يتحدث به الناس من سعادة الحياة وطيبها وغبطتها ونعيمها، فسعادتي فيها أن أعر في طريقي في يوم من أيام

حياتي بصديق يصدقني الود وأصدقته، فيقنعه مني ودي وإخلاصي
دون أن يتجاوز ذلك إلى ما وراءه من مآرب وأغراض، وأن يكون
شريف النفس فلا يطمع في غير مطمع، شريف القلب، فلا يحمل
حقدا ولا يحفظ وترا. ولا يحدث نفسه في خلوته بغير ما يحدث
به الناس في محضره؛ شريف اللسان فلا يكذب ولا ينم، ولا يلم
بعرض ولا ينطق بهجر^(١). شريف الحب فلا يحب غير الفضيلة،
ولا يبغض غير الرذيلة.

هذه هي السعادة التي أتمناها ولكني لا أراها.

إنني لأرى الرياض الغناء تهفو أشجارها، وترن أطيارها، وأرى
جداول الماء تنساب بين أنوارها وأزهارها، انسياب الأفاعي الرقطاء،
في الرمال البيضاء، وأرى أنامل النسائم تعبت بمنتورات الأوراق،
عبث الهوى بألباب العشاق، وأسمع ما بين صفير البلابل، وخريير
الجداول نغمات شجية تبلغ من نفس الإنسان، ما لا تبلغ أوتار
العيدان، فلا يسرني منها منظر، ولا يطربني مسمع؛ لأنني لا أرى
بين هذه المشاهد التي أراها ضالتي التي أنشدها.

لقد سمع وجه الرذيلة في عيني، وثقل حديثها في مسمعي، حتى
أصبحت أتمنى أن أعيش بلا قلب، فلا أشعر بخير الحياة وشرها،
وسرورها وحزنها.

(١) الهجر: الفحش.

ولولا بنيات صغار يفقدن بفقدي طيب العيش ونعيمه لفررت
من هذا العالم الناطق إلى ذلك العالم الصامت، فأجد من الأنس به
والسكون إليه ما وجدته الذي يقول:

عوى الذنب فاستأنست بالذنب إذ عوى وصوت إنسان فكدت أطيّر

الغني والفقير

مررت ليلة أمس برجل بئس فرأيتَه واضعا يده على بطنه كأنما يشكو ألما، فرثيت لحاله وسألته: ما باله؟ فشكا إليَّ الجوع، فقثأته^(١) عنه، ببعض ما قدرت عليه، ثم تركته وذهبت إلى زيارة صديق لي من أرباب الثراء والنعمة، فأدهشني أني رأيته واضعا يده على بطنه، وأنه يشكو من الألم ما يشكو ذلك البئس الفقير، فسألته عما به فشكا إليَّ البطنة، فقلت: يا للعجب! لو أعطى الغني الفقير ما فضل عن حاجته من الطعام ما شكا واحد منهما سقما ولا ألما.

لقد كان جديرا به أن يتناول من الطعام ما يشبع جوعته، ويطفي غلته؛ ولكنه كان محبا لنفسه، مغاليا بها، فضم إلى مائدته ما اختلسه من صحيفة الفقير فعاقبه الله على قسوته بالبطنة، حتى لا يهنا للظالم ظلمه ولا يطيب له عيشه. وهكذا يصدق المثل القائل: بطنة الغني انتقام لجوع الفقير.

ما ضنت السماء بمائها، ولا شحت الأرض بنباتها، ولكن حسد القوي الضعيف عليهما فزواهما^(٢) واحتجتهما^(٣) دونه فأصبح فقيرا معدما، شاكيا متظلما، غرماؤه المياسير الأغنياء، لا الأرض والسماء.

(١) يقال: قثأت فلانا عن فلان، إذا سكنت غيظه عليه.

(٢) زرى عنه حقه: منعه إياه.

(٣) احتجن الشيء: إذا جذبه بالهجن إلى نفسه؛ والهجن الصولجان، والمراد

أنه استأثر به.

ليتني أملك ذلك العقل الذي يملكه هؤلاء الناس فأستطيع أن أتصور كما يتصورون، حجة الأقوياء في أنهم أحق بإحراز المال، وأولى بامتلاكه من الضعفاء؛ إن كانت القوة حجتهم عليه، فلم لا يملكون بهذه الحجة سلب أرواحهم كما ملكوا سلب أموالهم؟ وما الحياة في نظر الحي بأثمن قيمة من اللقمة في يد الجائع. وإن كانت حجتهم أنهم ورثوا ذلك المال من آبائهم قلنا لهم: إن كانت الأبوة غلة الميراث فلم ورثتم آباءكم في أموالهم ولم ترثوهم في مظالمهم؟ لقد كان آباؤكم أقوياء فاغتصبوا ذلك المال من الضعفاء، وكان حقا عليهم أن يردوا إليهم ما اغتصبوا منهم، فإن كنتم لا بد ورثاءهم فاخلفوهم في رد المال إلى أربابه، لا في الاستمرار على اغتصابه.

ما أظلم الأقوياء من بني الإنسان، وما أقسى قلوبهم، ينام أحدهم ملء جفنيه على فراشه الوثير، ولا يقلقه في مضجعه أنه يسمع أنين جاره وهو يرعد بردا، ويجلس أمام مائدة حافلة بصنوف الطعام قديده وشواءه حلوه وحامضه ولا ينجص عليه شهوته علمه أن بين أقربائه وذوي رحمه من تثب أحشاؤه شوقا إلى فتات تلك المائدة، ويسيل لعابه تلهفا على فضلاتها. بل إن بينهم من لا تخالط الرحمة قلبه ولا يعقد الحياء لسانه، فيظل يسرد على مسمع الفقير أحاديث نعمته، وربما استعان به على عد ما تشتمل خزائنه من الذهب وصناديقه من الجواهر وغرفته من الأثاث والريش، ليكسر قلبه وينجص عليه عيشه ويبغض إليه حياته وكأنه يقول له في كل

كلمة من كلماته وحركة من حركاته: «أنا سعيد لأنني غني، وأنت شقي لأنك فقير».

أحسب لولا أن الأقوياء في حاجة إلى الضعفاء يستخدمونهم في مرافقهم وحاجاتهم كما يستخدمون أدوات منازلهم، ويسخرونهم في مطالبهم كما يسخرون مراكبهم، ولولا أنهم يؤثرون الإبقاء عليهم ليمتعوا أنفسهم بمشاهدة عبوديتهم لهم وسجودهم بين أيديهم، لامتصوا دماءهم كما اختلسوا أرزاقهم، ولحرموهم الحياة كما حرموهم لذة العيش فيها.

لا أستطيع أن أتصور أن الإنسان إنسان حتى أراه محسناً؛ لأنني لا أعتمد فصلاً صحيحاً بين الإنسان والحيوان إلا بالإحسان، وإنني أرى الناس ثلاثة: رجل يحسن إلى غيره ليتخذ إحسانه إليه سبيلاً إلى الإحسان إلى نفسه، وهو المستبد الجبار الذي لا يفهم من الإحسان إلا أنه يستعبد الإنسان؛ ورجل يحسن إلى نفسه ولا يحسن إلى غيره، وهو الشره المتكالب الذي لو علم أن الدم السائل يستحيل إلى ذهب جامد لذبح في سبيله الناس جميعاً؛ ورجل لا يحسن إلى نفسه ولا إلى غيره، وهو البخيل الأحمق الذي يجيع بطنه ليشبع صندوقه؛ أما الرابع: هو الذي يحسن إلى غيره ويحسن إلى نفسه، فلا أعلم له مكاناً، ولا أجد إليه سبيلاً، وأحسب أنه هو ذلك الذي كان يفتش عنه الفيلسوف اليوناني «ديوجين الكلبى» حينما سئل: ما يصنع بمصباحه؟ وكان يدور به في بياض النهار، فقال: «أفتش عن إنسان».

عبرة الدهر

بنى فلان في روضة من رياض بساتينه الزاهرة قصرا فخما يتلأأ
في تلك البقعة الخضراء تلألؤ الكوكب المنير في البقعة الزرقاء..
ويطاول بشرفاته السماء أفلاك السماء، كأنه نسر محلق في الفضاء،
أو قرط معلق في أذن الجوزاء، وكأن شرفاته آذان تفضي إليها النجوم
بالأسرار، وطاقاته أبراج تنتقل فيها الشمس والأقمار.

شاده مرمرا وجلله كاسا فللطير في ذراه وكور^(١)

ولم يدع ريشة لمصور ولا ليقة^(٢) لرسام إلا أجراها في سقوفه
وجدرانه وطاقاته وأركانه، حتى ليخيل إلى السالك بين أبهائه^(٣)
وحجراته، ومحاريبه وعرصاته^(٤) أنه ينتقل من روضة تزهو
بالورود الحمراء والأنوار البيضاء، إلى بادية تسنح فيها الذئاب
الغبراء؛ والنمرور الرقطاء، ومن ملعب تصيد فيه الظباء الأسود،
إلى غاب تصيد فيه الأسود الظباء، وأنشأ في كبرى ساحاته، وأوسع
باحاته: صهريجا من المرمر مستديرا يضم بين حاشيته فوارة ينفر
منها الماء صعدا كأنه سيف مجرد، أو سهم مسدد، فيخيل إلى

(١) الكلث: الصاروخ يبنى به.

(٢) ليقة الدواة: صوفتها، ويتخذها أيضا لجمع أخطائه فيها.

(٣) الأبهاء، جمع بهو، وهو البيت المقدم أمام البيوت.

(٤) المحراب هنا: صدر البيت، والعربات، جمع عرصة: وهي ساحة الدار.

الرائي أن الأرض تتأثر لنفسها من السماء وتتفاضها ما أراقت منها من الدماء، تلك تقاتلها بالرجوم والشهب، وهذه تحاربها بالسهام والقضب. وغرس حول دائرة الصهريج دوائر من شجرات مؤلفات ومختلفات، وأغصان صنوان وغير صنوان، إذا رنحتها نسائم الأسحار.. رقصت فوق بساط الأزهار، وتحت ظلال الأثمار، فغنت على رقصها الأطيار، غناء الأغاريد لا غناء الأوتار، وادخر فيه لنعيمه وبلهنيته^(١) ما شاء الله أن يدخر من نضائد^(٢) ومقاعد، ووسائد ومساند، وفرش، وعرش، وكلل^(٣) وحجل^(٤)، وتماثيل وتهاويل^(٥) وصحاف من ذهب، كاللهب، وأكواب من بلور، كالنور، وأقفاص للحمائم والنسور، ومقاصير للسباع والنمور، وعربات وسيارات، وجياد صافنات، ووصائف وولائد، تحيط بالمجالس والموائد.. إحاطة القلائد.. بأعناق الخرائد.. وخدم حسان.. تتنقل في الغرف والقيعان.. تنقل الولدان في غرف الجنان.

في ليلة من ليالي الشتاء حالكة الجلباب، غداقية^(٦) الإهاب، أفاق صاحب القصر من غشيته فتحرك في سريره وفتح عينيه، فلم ير أمامه غير خادمه «بلال»، وهو خصي أسود من ذوي الأسنان،

(١) بلهنية العيش: رخاء.

(٢) النضائد: جمع نضيدة، وهي الوسادة.

(٣) جمع (كلة) بالكسر: وهي الستر الرقيق.

(٤) جمع (حجلة) بفتححات: وهي ستر العروش في جوف البيت.

(٥) التهاويل: النقوش والصور؛ لأنها تهول من ينظر إليها.

(٦) الغداف: الغراب الأسود؛ وليلة غداقية شبيهة به.

رباه صغيرا وكفله كبيرا، وكان يجمع بين فضيلتي الذكاء والوفاء، فأشار إليه إشارة الواله المتلهف أن يأتيه بجرعة ماء، فجاءه بها، فتساند على نفسه حتى شرب، وكأن الماء قد حل عقدة لسانه، فسأله: في أي ساعة من ساعات الليل نحن يا بلال؟ فأجابه: نحن في الهزيع الأخير يا سيدي، فقال: ألم تعد سيدتك إلى الآن؟ قال: لا؛ فامتعض امتعاضا شديدا وزفر زفرة كادت تخرق حجاب قلبه، ثم أنشأ يتكلم كأنما يحدث نفسه ويقول: إنها تعلم أنني مريض، وإني في حاجة إلى من يسهر بجانبني ويتعهد أمري ويرفقه^(١) عني بعض ما أعالجه، وليس بين سكان القصر من هو أولى بي وأقوم عليّ منها، أين وفاؤها الذي كانت تزعمه وتقسم لي بكل محرجة من الأيمان عليه؟ أين حبها الذي كانت تهتف به في صباحها ومساءها وبكورها وأصائلها؟ أين النعيم الذي كنت أقلبها في أعطافه والعيش الرغد الذي كنت أرشفها كؤوسه؟ إن علمت أنني أصبحت بين حياة لا أرجوها وموت لا أجد السبيل إليه برمت^(٢) بي واستثقلت ظلي واستبطأت أجلي واستطالت ضجعتي، فهي تفر من وجهي كل ليلة إلى حيث تجد لذات العيش ومواطن السرور، آه من العيش ما أطوله، وآه من الموت ما أبعده!

(١) رَفَّه عنه: نفس عنه وخفف.

(٢) برم به: سئمه وضجر منه.

وما زال يحدث نفسه بمثل هذه الأحاديث، حتى هاج ساكنه واضطربت أعصابه، فعاودته الحمى وغلى رأسه بنارها غليان القدر بمائها فسقط على فراشه ساعة تجرع فيها من كأس الموت جرعا مريرة، بيد أنه لشقائه لم يأت على الجرعة الأخيرة منها.

أفاق من غشيته مرة ثانية، فلم ير بجانبه تلك التي تسيل نفسه حسرات عليها، فسأل الخادم: ألا تعلم أين ذهبت سيدتك يا بلال؟ قال: خير لك ألا تنتظرها يا مولاي، وألا تلومها في بعدها عنك؛ فإن لها عند بعض الناس دينا فهي تخرج كل ليلة لتتقاضاه؛ قال: ما عرفت قبل اليوم أن بينها وبين أحد من الناس شيئا من ذلك، ومتى كان يتقاضى الدائن دينه في مثل هذه الساعة من الليل؟ وهل أعيها أن تجد من يقوم لها بذلك، فهي تتولاه بنفسها؟ وهلا فرغت من أمر دينها بعد اختلافها إليه سنة كاملة! قال: إن بينها وبين غريمها صكا مكتوبا أن يؤدي ما عليه من الدين أقساطا في كل ليلة قسط، على أن تتناوله بيدها وأن تكون مواعيد الوفاء أخريات الليالي، قال: ما سمعت في حياتي بأغرب من هذا الدين ولا أعجب من هذا الصك، ومن هو غريمها؟ قال: أنت يا سيدي. فنظر إليه نظرة الحائر المشدوه^(١) وقال: إنني أكاد أجن لغرابة ما أسمع، وأحسب أنك هاذٍ فيما تقول أو هازئ. فدنا منه الخادم وقال: والله يا سيدي ما هزأت في حياتي ولا هذيت، ألا

(١) المشدوه: المدهوش.

تذكر تلك الليالي الطوال التي كنت تقضيها خارج المنزل بين شهوة تطلبها، وكأس تشربها، وملاعب تجرر فيها أذيالك، ومراقص تهتك فيها أموالك، تاركا زوجتك في هذه الغرفة على هذا السرير تشكو الوحشة وتبكي الوحدة، وتتقلب على أحر من الجمر شوقا إليك ووجدا عليك، فلا تعود إليها إلا إذا شاب غراب الليل وطار نسر الصباح؛ إنك سلبتها تلك الليالي السابقة فأصبحت غريمها فيها، فهي تستردها منك اليوم ليلة حتى تأتي عليها، ذلك هو دينها وهذا هو غريمها؛ ألا تذكر أنك كنت في لياليك هذه ربما تحبس الزوجة عن زوجها وتملكها عليه وهو واقف موقفك هذا في حسرتك هذه، يبكي ما تبكي ويندب ما تندب؟ ذلك الزوج هو الذي يتقاضاك اليوم حقه، ويأبى إلا أن يأخذه عينا بعين ونقدا بنقد، فهو يفجعك في زوجتك كما كنت تفجعه في زوجته، ويقض^(١) مضجعك كما كنت تقض مضجعه، وأنا أعيذك بعدلك وإنصافك أن تكون من لواة الدين أو تكون من الظالمين.

قال: حسبك يا بلال؛ فقد بلغت مني، وإن لي في حاضري ما يشغلني عن ماضي، فادع لي ولدي، قال: لم يعد يا سيدي من الوجه الذي بعثته فيه حتى الآن، قال: لا أذكر أنني بعثته في وجه ما، وأين ذهب، قال: ذهب إلى الحانة التي يختلف إليها، ولن يرجع منها حتى يرتوي ولن يرتوي حتى يعجز عن الرجوع، إنني

(١) أقض مضجعه: جعله خشنا.

طالما وقفت بين يديك يا مولاي ضارعا إليك أن تحول بينه وبين خلطاء السوء وعشراء الشر حتى لا يفسدوه عليك، فكنت تعرض عني إعراض من يرى أن تدليل الولد وترفيهه^(١) وإرخاء العنان له عنوان من عناوين العظمة ومظهر من مظاهر الأبهة والجلال؛ كنت أسألك أن تعلمه العلم وأن تهديه إلى طريق المدرسة ليضل عن طريق الحانة، فكنت ترى أن الذي يحتاج إلى العلم من يرتزق منه. وأن ولدك عن ذلك من الأغنياء، فلا تشك من عمل يديك، ولا تبك من جناية نفسك عليك، فأنت الذي أرسلته إلى الحانة، وأنت الذي أبقيته فيها إلى مثل هذه الساعة، وأنت الذي أبعدته عن فراشك أحوج ما كنت إليه.

وما وصل الخادم من حديثه إلى هذا الحد حتى نصل الليل من خضابه واشتعل المبيض في مسوده، وإذا صوت الناعورة يرن في بستان القصر رنين الثكلى فقدت واحدها، فقال السيد: هات يدك يا بلال واحملني إلى جوار النافذة لأروِّح عن نفسي بعض ما ألم بها، أو أودع إلى جانبها نسيمات الحياة، ثم اعتمد على يده حتى وصل إلى النافذة: فجلس على متكأ طويل وألقى على البستان نظرة طويلة فرأى البستاني وزوجه جالسين إلى الناعورة وقد برقت بوارق السعادة من خلال أثوابهما البالية بريق الكواكب المنيرة من خلال السحب المتقطعة. رآهما متحابين متعاطفين؛ لا يتعتبان

(١) رفهه: جعله مرفها، أى لين العيش.

ولا يتشاحان^(١) ولا يشكوان هما ولا يندبان حظا؛ رآهما قويين نشيطين يجري دمهما في عروقهما صافيا متسلسلا وكأنهما يحاولان أن يخرجوا من إهابهما^(٢) مرحا ونشاطا؛ رآهما راضيين بما قسم الله لهما من خشونة الملابس وجشونة^(٣) المطعم، فلا يتشهيان ولا يتمنيان ولا ينظران إلى ذلك القصر الشامخ المطل عليهما نظرات الهم والحسرة؛ سمعهما يتحدثان فأصغى إليهما فإذا البستاني يقول لزوجته: والله لو وهب لي هذا القصر برياضه وبساتينه، وآنيته وخرثيه^(٤)؛ على أن تكون لي تلك الزوجة الخائنة الغادرة لفضلت العيش فوق صخرة في منقطع العمران، على البقاء في مثل هذا المكان أقاسي تلك الهموم والأحزان. فقالت: لا أحسب أن سيدنا ينجو من خطر هذا المرض، فقد مر به على حاله تلك عام كامل، وهو يزداد كل يوم ضعفا ونحولا، قال: قد علمت أن الطبيب قد نفذ يده من الرجاء فيه وأضرر اليأس منه. ولا عجب في ذلك، فإنه ما زال يسرف على نفسه ويذهب بها المذاهب كلها حتى قتلها: قالت: ما أشقاه، أكانت نفسه عدوةً إليه فجنى عليها هذا الشقاء، وذلك البلاء، قال: ما كان عدواً لنفسه، ولا كانت نفسه عدوةً إليه، ولكنه

(١) من المشاحة. وهي المخاصمة والمجادلة.

(٢) الإهاب: الجلد.

(٣) جشونة المطعم: خشوته.

(٤) الخرثي: أثاث البيت.

كان جاهلا مغرورا، غرّه شبابه وماله وعزه وجاهه فظن أنه قد أخذ على الدهر عهدا بالسلامة والبقاء فانطلق في سبيله لا يلوي على شيء مما وراءه حتى سقط في الحفرة التي احتفرها لنفسه؛ قالت: أتعلم ماذا يكون حال هذا القصر من بعده؟ قال: لا أعلم إلا أنه سيكون لولده؛ قالت: ولكنني أعلم أنه سيكون لفلان، قال: إن فلانا ليس وريث السيد، بل صديقه، قالت: إنه ليس بصديق السيد، بل صديق السيدة، فهو خاطب زوجته قبل وفاته، وزوجها بعد مماته. فما سمع السيد هذه الكلمات حتى اضطرب اضطرابا شديدا، وسقط عن كرسيه وهو يقول: أشهد أنني من الأشقياء. وما زال في غشيته تلك حتى صحا صحو الموت وفتح عينيه فرأى بين يديه هذا المنظر المحزن المؤلم.

رأى ولده لاهيا بمحادثة فتاة من فتيات القصر، ورأى زوجته تضاحك تريا من أترابها وتغمزها بطرفها أن قد حان حينه ودنا أجله، ورأى صديقه أو ولي عهده يأمر في القصر وينهى، ويتصرف تصرف السيد المطاع، ورأى نفسه يعالج سكرات الموت، ويعد عدته للانتقال من القصر إلى القبر، وهنا سمع كأن هاتفا يهتف به من السماء ويقول: أيها الرجل، لو وفيت لزوجك لوفت لك، ولو أدبت ولدك لعناه أمرك، ولو أحسنت اختيار صديقك ما خانك، ولو رحمت نفسك ما خسرت حياتك.. فأغمض عينيه وهو يقول: «فلتكن مشيئة الله».

وهكذا فارق هذا المسكين حياته مفجوعا بزوجته وولده وصديقه
ونفسه ، وبستانه وقصره :

رب ركب قد أناخوا حولنا يشربون الخمر بالماء الزلال
عصف الدهر بهم فانقرضوا وكذلك الدهر حالا بعد حال

مدينة السعادة

رأيت فيما يرى النائم أنني أمشي في قفر جرداء قد انبسطت رمالها على سطحها متجعدة تجعد الأمواج المتكسرة على سطح القاموس^(١) المحيط، وكانت الشمس قد طفلت^(٢) للإياب فلم أر في بطائها ظلا غير ظلي المستطيل الذي رسمته يد الشمس فأخطأت في تصويره، كأنما حسبتني آدم أبا البشر^(٣) فأوسعتني طولا، ورسمتني ميلا.

أنشأت أمشي لا أعرف لي مذهباً ولا مضطرباً، وأنى يكون ذلك في صحراء قد تشابهت مسالكها. وتشاكلت مذهبها وانفرج ما بين قاصيها ودانيها حتى انحدرت الشمس إلى مستقرها: وطار طائر الليل من مكمنه. ونشر الظلام أجنحته السوداء في الأفق حتى وجدتني أحير من دمة وجد في مقلة عاشق؛ يدفعها الحب ويمنعها الحياء، لا أعلم هل أنا سر كامن في باطن الظلماء، أو حوت مضطرب في أعماق الماء. وأحيانا كان يخيل إليّ أني في منجم من مناجم الفحم، فأمد يدي أتلمس جدرانها مخافة أن أصطدم بواحد منها؛ ولم أزل كذلك حتى شعرت بأن الظلام بدأ ينفض صبغته.

(١) القاموس: وسط البحر ومعظمه.

(٢) طفلت الشمس: احمرت للغروب.

(٣) ربما لم يكن آدم أطول من بنييه قامة، ولكن التشبيه بحسب الخيال الذهني على

حد قوله تعالى ﴿كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ﴾.

وأن ذراته تتطاير هاهنا وهاهنا؛ فإذا أنا بين يديّ جبل عال كأنما هو جدار قائم يمسك السماء أن تقع على الأرض، أو ملك جبار قد لبس من قرص الشمس التاج الأحمر، ومن شعاعها الرداء الأصفر. ولا تسلم هنالك عما ألمّ بقلبي من الهم وعقلي من الخبال؛ حينما رأيت أن صعود السماء أقرب إلى الأمل، من صعود هذا الجبل، وحررت بين الإقدام والإحجام، فلم أر بداً من الاستسلام لمقدور الحمام، ثم رميت بطرفي فرأيت بين الصخور المبعثرة في سفح الجبل صخرة بيضاء ناعمة الملمس، فاضطجعت عليها وأنا أتمثل بقول أبي العلاء؛

ضجعة الموت رقدة يستريح الـ جسم فيها والعيش مثل السهاد

وما هي إلا غمضة الطرف حتى شعرت بأنها تتحرك قليلا قليلا، ثم استقلت ثم طارت، فكدت أحسب أنه الموت قد نزل، وأنها الروح تصعد إلى الملاء الأعلى.. لولا أن فتحت عيني فرأيت ما كنت أحسبه صخرة طائرا أشبه شيء بالنسر في خلقه والقبة في ضخامتها واستدارتها، واستمر ذاهبا بي في أفق السماء، ثم رنق لحظة في الهواء ثم هبط إلى قمة الجبل فأسرعت بالانحدار عنه وهنالك أحسست بسلسلة باردة من الأمل يتسرب إلى قلبي فينقع غلته. ويطفى لوعته، لأنني رأيت السفح الثاني ورأيت بهجة الحياة وزهرة العمران.

رأيت على البعد خطوط الخضرة حول سطور الماء ورأيت الأكواخ الصغيرة والقصور كأنها العصفير السوداء، والحمام

البيضاء، وكأن ما ألمّ بنفسي من السرور أنساني ما ألمّ بجسمي من النصب فانحدرت إليها فما بلغتها حتى رأيتني في مزرعة في وسطها بنية قد وقف على بابها شيخ هو أشبه الأشياء بما يتخيله فريق الخياليين من علماء الهيئة في صور سكان المريخ، فذعر مني كما يذعر الإنسان لرؤية الجان، وما كان الذي قام في نفسه مني بأكثر مما قام في نفسي منه، لولا أنني ألقت الغرائب، وعجمت عود العجائب فتقدمت نحوه وكأنما ألهمت لغته، فحييته بها فحياني وهو يقول: ما كنت أحسب أن الشمس تطلع على مدينة غير هذه المدينة، أو أن في العالم إنسانا غير هذا الإنسان؛ فما زلت أحدثه وأستدنيه حتى أنس بي ودعاني إلى منزله وخلطني بنفسه وأهله، وقدم لي طعاما شهيا، ومهد لي مرقدا وثيرا^(١). وكان الليل قد أقبل للمرة الثانية من هجرتي هذه، فزمت نوما هادئا مطمئنا لا تروعني فيه خواطر الموت ولا وساوس الهلاك.

استيقظت أنا والشمس من مرقدينا على صوت تلك الأسرة الطاهرة الكريمة تصلي إلى الله تعالى صلاة الخاشعين المتبتلين وتدعو وهي مصطفة صفا واحدا أن ييسر الله لها عسرها، ويسهل أمرها، ويصلح شأنها، ويمنحها معونته ونصره؛ فأخذ منظرها هذا مأخذا عظيما فلم أر بدا من الانتظام في صفها، والدعاء بدعائها، والبكاء لبكائها؛ وعجبت أن يكون مثل هذا الإيمان الخالص راسخا في

(١) الوثير: الواطئ.

نفوس أهل هذه المدينة، ولم يرسل إليها رسول، ولم ينزل عليها كتاب؛ فلما فرغنا من الصلاة التفت إليّ صاحب البيت، فقلت له: أراكم تتعبدون، فمن تعبدون؟ وتصلون، فمن الذي تدعون؟ قال: نعبد الله خالق هذه الكائنات ومديرها؛ قلت: هل رأيتموه حتى عرفتموه قال: نعم رأيناه في آثاره ومصنوعاته؛ ورأيناه في السماء، والماء والفلك الدائر والنجم السائر، وفي أجنحة الحيوان وبذور النبات؛ ورأيناه في أنفسنا وعقولنا وأرواحنا قبل ذلك؛ قلت: ولم تعبدونه؟ قال: شكرا له على نعمة الخلق والرزق، وإن ألدنا ليعنيه أن يشكر لصاحبه نعمته إذا أحسن إليه بجرعة أو أنعم عليه بمضغة؛ فأحرى به أن يشكر مانح المانحين، والمحسن إلى المحسنين؛ فقلت في نفسي: لقد بلغ الرجل مرتبة الموحدين الصادقين الذين يعبدون الله مخلصين له الدين، لا يرجون ثوابا، ولا يخافون عقابا ثم سألته: أين تذهبون بعد الموت؟ قال: إلى النعيم المقيم؛ أو العذاب الأليم؛ قلت: لعلك تريد الجنة والنار؟ قال: لا أفهم ما تقول، وإنما أعلم أن الإله الحكيم لا يترك المحسن دون أن يجازيه خيرا على إحسانه، كما يأبى عدله أن يسوّي بين المحسن والمسيء؛ قلت: متى يكون المحسن محسنا والمسيء مسيئا؟ قال: الإحسان عمل الخير؛ والإساءة عمل الشر؛ لذلك لا ترى بيننا من يحدث نفسه بالإضرار بأخيه، أو من يقصر في دفع الأذى عنه؛ فقلت في نفسي ليت الفقهاء الذين ينفقون أعمارهم في الحيض

والاستحاضة، والمذي والودي^(١) والحدث الأكبر والحدث الأصغر. وليت الكلاميين الذين يسهرون الليالي ويقرحون المآقي في عينية الصفات وغيريتها والجوهر والعرض والحدوث والقدم، والدور والتسلسل؛ وليت المتصوفة الذين يحاولون أن ينازعوا الله ويجاذبوه من سر الدين وحكمته والغرض الذى قام له ما يعرف هؤلاء البله الأغرار، الذين لا يفهمون معنى الجنة والنار، ولا يميزون بين الدين والتين.

فرغنا من الحديث وعرضت على الشيخ أن يزيروني المدينة. فانحدر بي إليها؛ فرأيت شوارعها فسيحة منتظمة ومنازلها متفرقة غير متلاصقة، وقد أحاطت بكل منزل منها حديقة زاهرة؛ ورأيت سكانها مكبين على أعمالهم، مجدين في شئونهم.. صغارا وكبارا.. رجالا ونساء.. ما فيهم فقير يتسول.. ولا متبطل يتشاءب ويتململ؛ وأغرب ما استهوى نظري أنني لم أر في تلك المدينة ذلك التفاوت الذي أعرفه في مدائننا بين الناس في منازلهم ومراكبهم.. ومطاعمهم ومشاربهم، وأزيائهم، كأن جميع سكانها سواسية في حالة المعيشة ودرجة الثروة، فسألت الشيخ: ألا يوجد فيكم غني وفقير، وسيد ومسود؟ قال: لا يا سيدي، حسب الرجل منا بيت يؤويه، ومزرعة تقيته، ودابة تحمل أثقاله، ثم لا شأن له بعد هذا فيما سوى ذلك، لذلك لا يوجد فينا سيد ومسود لأنه لا يوجد فينا

(١) المذي والودي: نوعان من الماء الذى يخرج من القضيب.

غني وفقير. قلت لا بد أن يوجد بينكم العاجز عن العمل المتعطل والكسلان! قال: أما الكسلان فلا وجود له بيننا، لأنه يعلم أنا لا نرحمه ولا نغفر له زلته في احتقار نعمة العقل والقوة بتعطيلهما عن العمل، وأما العاجز فنحذب عليه ونحسن إليه، ولا نرى لأنفسنا في ذلك فضلا لأننا إنما نمنحه جزءا من القوة التي منحنا الله إياها لنعبده بها، ولا نرى في وجوه العبادة أفضل من موااساة العاجزين، ورحمة البائسين.

وإنه ليحدثني بهذا الحديث إذ لاحت لنا بنية فخمة تمتاز عن غيرها من البني بحسن نظامها، وجمال هدامها، فقلت للشيخ: هل أرى قصر الملك، قال لا، ولكنه قصر رجل شرير طماع قد خالف إرادة الله وحكمه فاحتج^(١) دون عباده أرضهم ومالههم ليعلو عليهم، ويستأثر بالنعمة من دونهم، فغضب الله عليه، وقلب نعمته نقمة، ورخاءه شدة، فإنه ما أراح^(٢) رائحة العيش الرغد حتى أسلم نفسه إلى شهواتها، وحملها فوق ما تحمل طبيعتها فما هو ذا اليوم يقاسي من آلام الأمراض وأنواع الأسقام ما بغض إليه العيش، وحبب إليه الموت: لم يحمه قصره، ولم يغن عنه ماله، فهو عبرة للمعتبرين، وموعظة السابلة^(٣)؛ فكبر الرجل في ذرعي^(٤) وعظم في عيني، وأكبرت فيه وفي أمته هذه الخلال الشريفة، والأخلاق العالية؛

(١) احتج المال: ضمه واحتواه.

(٢) أراح فلان الشيء: وجد ريحه.

(٣) السابلة: المختلفون على الطرقات في حوائجهم.

(٤) كبر في ذرعي: عظم وقعه عندي.

وقلت في نفسي إن مدارسنا على ما تشتمل عليه دروسها من قواعد الحكمة وأصول التربية وفنون الآداب، لتعجز عن أن تخرج للناس رجالا يستطيعون أن يساجلوا هؤلاء القوم في صفاتهم وفضائلهم؛ وأردت- على ذكر المدارس - أن أعرف مناهج التعليم عندهم فقلت للشيخ: هل لك أن تزيروني مدرسة من مدارسكم؟ فعجب لسؤالي وقال: ما المدرسة؟ فكان عجبي لجوابه أكثر من عجبه لسؤالي، وقلت: المدرسة مكان محدود يجتمع فيه صغار يتعلمون وكبار يعلمون؛ قال: ما الذي يتعلمه الصغار من الكبار؟ قلت: ما يصلح شأنهم وينفعهم في معاشهم وميعادهم؛ قال: وأي حاجة بنا إلى مثل هذا المجتمع الحاشد في مثل هذا المكان المحدود؟ إنا يا سيدي أرحم بأبنائنا من أن نكل أمرهم إلى غيرنا، فنحن الذين نتولى هذا الشأن منهم، فلا مدارس عندنا غير المصانع والمزارع؛ نعلمهم فيها كيف يرمون البذور.. وكيف يستنبتونها.. وكيف يصنعون الآلات وكيف يستعملونها.. وفيها نعلمهم كيف يبنون منازلهم وينسجون ملابسهم ويعدون عددهم.. وإنا لا نعرف علما غير العمل ولا نعرف من العمل غير ما نحفظ به قوام حياتنا.. ونستعين به على عبادة ربنا. قلت ألكم حاكم يتولى أموركم؟ قال لنا: حَكَم لا حاكم وهو رجل قد وثقنا به وبفهمه واستقامته.. فاخترناه لفصل الخصومات إن عرض لنا من ذلك عارض. قلت: أليس له جند وأعوان يؤيدونه ويتولون تنفيذ أحكامه؟ قال: كلنا جنده، وكلنا أعوانه على كل من يختلف عليه أو يتمرّد على حكمه فقد وثقنا به وحسبنا ذلك وكفى.

وقلت: أليس له سجناء يسجن فيه المجرمين؟
قال: لا.. حسب المجرم عندنا عقوبة أن يتفق أهل المدينة على احتقاره والزرابة به.. وإن أحدنا ليؤثر أن يتخطفه الطير أو يسقط عليه كسف^(١) من السماء على أن يرى نفسه بغيضا إلى قومه صغيرا في نفوسهم ذليلا في أعينهم.. لا يرفعون إليه طرفا ولا يقيمون له وزنا.

وما وصلنا من حديثنا إلى هذا الحد حتى كنا قد فرغنا من الطواف بالمدينة ووصلنا إلى المنزل الذي خرجنا منه.. فاستقبلنا أهله بالبشر والترحاب واستقبلوا شيخهم بالتقبيل والعناق.. فلم أر فيما رأيت من البيوت في مدن العالم وقراه بيتا أسعد حفا ولا أنعم عيشا ولا أروح بالا من هذا البيت.
تلك «مدينة السعادة» التي يعيش أهلها سعداء لا يشكون هما.. لأنهم قانعون. ولا يمسكون في أنفسهم حقدا.. لأنهم متساوون؛ ولا يستشعرون خوفا لأنهم آمنون.

تلك «مدينة السعادة» التي رأيتها، فأحببتها وأحببت العيش فيها.. لولا أن لله في خلقه سنة لا تتبدل.. وشأنا لا يتحول.. فقد جاء الليل وأخذت مكاني من مرقي في منزل الشيخ فلم أستيقظ حتى رأيتني في فراشي وفي منزلي؛ فلا السهل ولا الجبل.. ولا الشيخ ولا المزرعة.. ولا المدينة ولا السعادة:

(١) الكسف: القطعة.

ولما نزلنا منزلاً طله الندى^(١) أنيقاً وبستاناً من النور حالياً
أجد لنا طيب المكان وحسنه منى فتمنيناً فكنت الأمانيا

أيها المحزون

إن كنت تعلم أنك أخذت على الدهر عهداً أن يكون لك كما تريد
في جميع شئونك وأطوارك.. وألا يعطيك ولا يمنعك إلا كما تحب
وتشتهي؛ فجدد بك أن تطلق لنفسك في سبيل الحزن عنانها كلما
فاتك مأرب أو استعصى عليك مطلب. وإن كنت تعلم أخلاق الأيام
في أخذها وردّها وعطائها ومنعها وأنها لا تنام عن منحة تمنحها،
حتى تكررّ عليها راجعة فتستردّها.. وأن هذه سنتها وتلك خلقتها
في جميع أبناء آدم.. سواء في ذلك ساكن القصر وساكن الكوخ.. ومن
يطأ بنعله هام الجوزاء.. ومن ينام على بساط الغبراء؛ فخفض من
حزنك وكفكف من دمعك.. فما أنت بأول غرض أصابه سهم الزمان.
وما مصابك بأول بدعة طريفة في جريدة المصائب والأحزان.

أنت حزين لأن نجماً زاهراً من الأمل كان يتراءى لك في سماء
حياتك فيملاً عينيك نورا.. وقلبك سروراً؛ وما هي إلا كثرّة الطرف
أن افتقدته.. فما وجدته. ولو أنك أجملت في أمّلك لما غلوت في
حزنك.. ولو كنت أنعمت نظرك فيما تراءى لك لرأيت برقاً خاطفاً..

(١) طل: أمطره الطل، وهو المطر القليل.

ما تظنه نجما زاهرا. وهنالك لا يبهرك طلوعه ، فلا يفجعك أفوله.
أسعد الناس في هذه الحياة من إذا وافته النعمة تنكر لها.. ونظر
إليها نظرة المستريب بها.. وترقب في كل ساعة زوالها وفناءها..
فإن بقيت في يده فذاك ؛ وإلا فقد أعد لفراقها عدته من قبل.
لولا السرور في ساعة الميلاد ما كان البكاء في ساعة الموت ؛ ولولا
الوثوق بدوام الغنى ما كان الجزع من الفقر. ولولا فرحة التلاق ما
كانت ترحة الفراق.

إلى الدير

مسكين ذلك الفتى الذي رأيته صباح أمس منزويا في ركن من
أركان أحد الأندية وقد ظللت جبينه الواضح سحابة سوداء من
الحزن، وانحنى على نفسه كأنما يشعر أن قلبه يتنزى في صدره
وأنه يحاول الفرار منه وهو يعطف عليه ليمسكه بين جوانحه،
ولو أنه أراد بنفسه خيرا لتركه وشأنه يمضي في سبيله حيث شاء،
فبعدا لقلب لا يسكن عن الخفقان ولا يفيق من الهموم والأحزان!

سألته: ما بالك أيها الصديق؟ قال: لا شيء؛ قلت: أنت تكتمني
ما في نفسك، ولو عرفتني ما كتمتني، قال: ما جهلتك مذ عرفتك،
ولكني أعطيت الله تعالى عهدا مذ خلقت ألا أشكو إلا إلى من أرجو
عنده البرء، وما أنا براج عندك ولا عند أحد من الناس برءاً من
دائي، قلت: هبني طبيبا، والطبيب وإن كان لا يشفي إلا نادرا فإنه
يسكن غالبا ويعزي دائما. فأنا إن عجزت عن معالجتك فلن أعجز
عن تعزيتك، على أن الماء إذا اشتد غليانه احتاج إلى التنفيس عنه،
وإلا طار بالقدر، طيران الهم بالصدر.

فأصغى إلى كلماتي واستخذى لها وأنشأ يحدثني حديثا تمازجه
العبرات، وتقطعه الزفرات، ويقول: زوّجني أبي منذ سنين من
زوجة جاهلة غبية لا تفهم من معنى الزواج إلا أن فيه قضاء لبانتها
وترفيه عيشها وإرضاء نفسها وهو يحسب أنه قد أحسن إليّ بسليلة

المجد، ورببية النعمة، ومالكة الدور، وساكنة القصور؛ أجل إنها ذات مال وفير، وخير كثير، ولكن ذهب عنه - غفر الله له! - أنني ما كنت أريد أن أكون تاجرا أكسب مالا، بل زوجا، وأن أجد بجانب نفسي يؤنسني محضرها ويوحشني مغيبها، ومراة صافية نقية أترأى فيها فتريني نفسي كما هي، لا تكذبني في خير ولا شر وإني أريد أن أجد في الزوجة التي أتزوجها صديقا في المرتبة العليا من مراتب الصداقة، من لي به في امرأة تجهل حتى إرضاع طفلها، وليس ثوبها! على أن ثروتها ما كانت تقوم بحاجتها؛ فقد كانت لها خادم للملبسها، وأخرى لشعرها وأخرى لسريرها، وطابخة وغاسلة؛ ومرضع وقهرمانة^(١) وخياطة خاصة بها، وطبيب لا يغيب^(٢) عن زيارتها، ومؤسسات لا يفارقن مجلسها.. ولم تكن ممن أنعم الله عليهن بنعمة الجمال.. فكانت تنفق ما يزيد على نصف دخلها في الحسن المجلوب والجمال المكذوب.. وليتها كانت تُغفل أمري وتتركني وشأني فأستطيع أن أتناساها وأعد نفسي من العزَّاب تخيلا وتقديرا، بل كانت تقيم عليَّ من نفسها ومن هذا الجحفل اللجب^(٣) المحيط بها حرسا كحراس الليل وجواسيس كجواسيس الإنكليز، يراقبن مواقع نظري ومواطن قدمي، لتعلم أين مذهب قلبي ووجهة نفسي فتغار عليَّ من الكوكب إذا رأته أنظر إليه..

(١) القهرمان: الوكيل، أو أمين الدخل والخرج، جمعها: قهارمة.

(٢) أغب فلان القوم: إذا جاءهم حيناً بعد حين.

(٣) الجحفل: الجيش واللجب: ذو الجلبة والصياح.

وتكاد تمزق الثوب الذي تعلم أنني أحبه وأؤثره.. وتحسبها آهة الوجد أو دمة الحب إذا رأتني أتأوه من آلام عشتها أو أبكي لعظم مصيبتني فيها.. وما هي بغيرة الحب، ولكنها الأثرة^(١) قبحها الله وقبح كل ما تأتي به، وأكثر ما كان يغيظني منها: أنها ما كانت تفتح عليّ باب الحساب على اللفات والخطوات إلا في الساعة التي أريد أن أخلو فيها بنفسي أو بكتابي، فما أكاد أنتفع بواحد منهما، فإن سكّْتُ أغضبها سكوتي وإن نطقت أغضبها حديثي. وإن قرأت في كتابي ظنت أن المؤلفين ما ألفوا الكتب إلا نكاية بالنساء لكي يتخذها الرجال ملجأ يعتصمون به من محادثتهن ومسامرتهن.. فكان الكتاب في نظرها أعدى أعدائها وأبغض الأشياء إليها، وجملة القول إنها ما كانت تستطيع أن تتصور إلا أن الله خلقها لتكون طفلة لاهية لاعبة في جميع أطوار حياتها، وأنه ما خلقني إلا لأكون زينة مجلسها ودمية^(٢) قصرها، وأداة لهوها ولعبها، فلا أقرأ ولا أكتب ولا أعطي نفسا حقا من حقوقها، ولا أبكر لمزاولة أعمالي ولا أسأم أحاديثها الطويلة المملة التي لا تشتمل إلا على نقد الأزياء واغتيال النساء. فإن وافيت فذاك وإلا استحالت في لحظة واحدة من إنسان ناطق إلى وحش مفترس، فلا تعرف كلمة مؤلمة لا تسمعنيها ولا تترك وسيلة من وسائل التنعيص لا تهجم بها عليّ. فكنت - بين

(١) الأثرة: اختيار الشيء والاستئثار به.

(٢) الدمية: الصورة المنحوتة من المرمر.

ألم رضاها وعذاب غضبها - في شقاء حبيب إليّ الموت وبغض إليّ وجه الحياة. وبعد فقد رأيت أن العيش معها مستحيل.. فلم أر بدا من فراقها ففارقتها وما على وجه الأرض شيء أبغض إليّ من المجد.. ولا أسمح في نظري من المال. قلت: ولكنني لا أزال أراك حزيناً حتى الساعة. قال: نعم لأنني نفضت يدي من الزوجة الجاهلة.. ورحت أفتش عن الزوجة المتعلمة وقلت: ليكون لي من الشأن في الزواج الثاني ما لم يكن لي في الزواج الأول.. بعدما صار إليّ الخيار، وبعد تلك التجربة وذاك الاختيار.. فهيأ لي الحظ جاراً ملاصقاً ما زلت أسمع مذ حل في جوارِي أن في بيته فتاة جميلة ما زال يعنى بأمرها حتى خرجها^(١) وأدبها فأصبحت نابغة مدرستها.. وسيدة أترابها علماً وفضلاً وتهذيباً وأدباً. فما قنعت بالخبر حتى خالطت أباهاً ثم خالطتها.. فإذا المرأة الجديدة من جميع وجوهها.. فوقع من نفسي أحسن موقع.

وَحَلَّتْ مَكَاناً لَمْ يَكُنْ حُلٌّ مِنْ قَبْلُ

خطبت الفتاة إلى أبيها فما لبث أن أخطبني^(٢) فامتلاً قلبي فرحاً وسروراً.. وخُيِّلَ إليّ أنني أرى في سماء الآمال نجماً لامعاً يدنو مني قليلاً قليلاً، وسَجَلْتُ أن الدهر أنشأ يُكفِّر بحسناته ما أسلف من سيئاته؛ فإني لذلك - وقد أعددت للبناء بها عدته، ولم يبق

(١) خرج الأستاذ تلميذه: هذبه وعلمه.

(٢) يقال خطب فلان إلى فلان فأخطبه: أى أجابه.

بيني وبينه إلا يوم واحد - وإذا بحامل البريد قد جاءني بهذا الكتاب فهাকে فاقراه؛ فإن فيه بقية قصتي، وسر نكبتني. ثم ألقى إليّ بغلاف معنون باسمه، فوجدت فيه بطاقة تشتمل على رسم فتى حسن الصورة والهندام يخاصر فتاة جميلة وقد ألفت برأسها على كتفه، ووجدت مع البطاقة كتابا فقرأت فيه ما يأتي:

«علمت أنك خطبت فلانة إلى أبيها وأنك عما قليل ستكون زوجها، ولعمري لقد كذبتك نظرك، وخدعك من قال لك إنك ستكون سعيدا بها، فإنها لن تكون لك بعد أن صارت لغيرك، ولا يخلص حبك إلى قلبها بعد أن امتلأ بحب عاشقها، فاعدل عن رأيك فيها، وانفض يدك منها، وإن أردت أن تعرف من هو ذلك العاشق وتتحقق صدق خبري وإخلاصي إليك في نصيحتي فانظر إلى الصورة المرسلة مع هذا الكتاب»

التوقيع:

فما نظرت الصورة وقرأت الكتاب حتى عرفت كل شيء، فأحسست برعشة تتمشى في أعضائي، وشعرت بسحابة سوداء قد غشت على نظري لهول ما سمعت، وسوء ما رأيت، إلا أنني تماسكت قليلا، فأعدت إليه كتابه، وقلت له وهو كل ما استطعت أن أقول: ماذا يعينك من أمر فتاة عاهرة بعدما انكشف لك سرها، وظهرت لك حقيقتها، ولو كنت في مكانك لعدلت عن الحزن على فوتها، إلى الاستغفار من حبها، وحمد الله تعالى على ما ألهم من

صواب الرأي فيها؛ أما إن سألتني عن رأيي في زواجك بعد الآن،
فإني لا أرى لك إلا أن تتربع وتتعرب^(١) وأن تقول ما قاله «هملت»
وقد زهد في الزواج بعدما عرف حقيقة المرأة وأدرك خبيثة نفسها:
«إلى الدير.. إلى الدير».

(١) تعرب: أى عاش عزبا لا يتزوج.

الرحمة

سأكون في هذه المرة شاعرا بلا قافية ولا بحر، لأنني أريد أن
أخاطب القلب وجها لوجه، ولا سبيل إلى ذلك إلا سبيل الشعر.
إن البذور تلقى في الأرض فلا تنبت إلا إذا حرث الحارث تربتها،
وجعل عاليها سافلها، وكذلك القلب لا تبلغ منه العظة إلا إذا داخلته،
وتخللت أجزائه، وبلغت سويداءه، ولا محراث للقلب غير الشعر.
أيها الرجل السعيد: كن رحيما، أشعر قلبك الرحمة، ليكن
قلبك الرحمة بعينها.

ستقول: إني غير سعيد، لأن بين جنبي قلبا يلم به من الهم ما
يلم بغيره من القلوب، أجل. فليكن ذلك كذلك، ولكن أطعم الجائع
واكس العاري، وعزّ المحزون، وفرّج كربة المكروب، يكن لك من
هذا المجموع البائس خير عزاء يُعزّيكَ عن همومك وأحزانك، ولا
تعجب أن يأتيك النور من سواد الحلك، فالبدر لا يطلع إلا إذا شق
رداء الليل، والفجر لا يدرج إلا من مهد الظلام.
لقد بليت اللذات كلها.. ورثت حبالها.. وأصبحت أثقل على
النفس من الحديد المعاد.. ولم يبق ما يعزي الإنسان عنها إلا لذة
واحدة: هي لذة الإحسان.

إن منظر الشاكر منظر جميل جذاب.. ونعمة ثنائه وحمده أوقع في السمع من العود في هزجه ورملة^(١) وأعذب من نغمات معبد في الثقليل الأول^(٢).

أحسن إلى الفقراء والبائسين، وأعدك وعدا صادقا أنك ستمر في بعض لياليك على بعض الأحياء الخاملة فتسمع من يحدث جاره من حيث لا يعلم بمكانك، أنك أكرم مخلوق وأشرف إنسان، ثم يعقب الثناء عليك بالدعاء لك أن يجزيك الله خيرا بما فعلت.. فيدعو صاحبه بدعائه، ويرجو برجائه، وهنالك تجد من سرور النفس وحبورها بهذا الذكر الجميل في هذه البيئة الخاملة: ما يجده الصالحون إذا ذكروا في الملأ الأعلى.

ليتك تبكي كلما وقع نظرك على محزون أو مفؤود^(٣) فقتبسم سرورا ببكائك.. واغتباطا بدموعك، لأن الدموع التي تنحدر على خديك في مثل هذا الموقف إنما هي سطور من نور.. تسجل لك في تلك الصحيفة البيضاء أنك إنسان.

إن السماء تبكي بدموع الغمام.. ويخفق قلبها بلمعان البرق.. وتصرخ بهدير الرعد، وإن الأرض تنئن بحفيف الريح.. وتضج

(١) الهزج والرملة: نوعان من الموسيقى.

(٢) معبد: أحد كبار المغنين في العصر الأموي، والثقليل الأول: ضرب من ضروب الغناء.

(٣) المفؤود: المصاب في فؤاده بألم أو غيره.

بأمواج البحر ، وما بكاء السماء ولا أنين الأرض إلا رحمة بالإنسان..
ونحن أبناء الطبيعة فلنجارها في بكائها وأنينها.

إن اليد التي تصون الدموع ، أفضل من اليد التي تريق الدماء ،
والتي تشرح الصدور. أشرف من التي تبقر البطون ، فالمحسن أفضل
من القائد وأشرف من المجاهد ، وكم بين من يحيي الميت. ومن
يميت الحي.

إن الرحمة كلمة صغيرة.. ولكن بين لفظها ومعناها من الفرق
مثل ما بين الشمس في منظرها. والشمس في حقيقتها.

وإذا وجد الحكيم بين جوانح الإنسان ضالته من القلب الرحيم..
وجد المجتمع ضالته من السعادة والهناء.

لو تراحم الناس لما كان بينهم جائع ولا مغبون ولا مهضوم..
ولأقفرت الجفون من المدامع.. ولاطمأنت الجنوب في المضاجع.
ولمحت الرحمة الشقاء من المجتمع كما يمحو لسان الصبح مداد
الظلام.

لم يخلق الله الإنسان ليقتر عليه رزقه. ولم يقذف به في هذا
المجتمع ليموت فيه جوعاً.. بل أرادت حكمته أن يخلقه ويخلق
له فوق بساط الأرض وتحت ظلال السماء ما يكفيه مؤنته. ويبد
حاجته.. ولكن سلبه الرحمة فبغى بعضه على بعض ، وغدر القوي
بالضعيف واحتجن دونه رزقه.. فتغيّر نظام القسمة العادلة..

وتشوّه وجهها الجميل.. ولو كان للرحمة سبيل إلى القلوب لما كان للشقاء إليها سبيل.

الفرد هو المجتمع.. وإنما يتعدد بتعدد الصور.. أتدري متى يكون الإنسان إنساناً؟ متى عرف هذه الحقيقة حق المعرفة وأشعرها نفسه.. فحقق قلبه لخفقان القلوب وسكن لسكونها. فإذا انقطع ذلك السلك الكهربائي بينه وبينها، انفرد عنها واستوحش من نفسه، وإذا كان الأنس مأخذ^(١) الإنسان المجتمع.. فالوحشة مأخذ الوحش المنقطع.

وجماع القول إنه لا يمكن أن تجتمع رحمة الرحماء وشقوة الأتقياء في مكان واحد؛ إلا إذا أمكن أن يجتمع في بقعة واحدة الملك الرحيم والشیطان الرحيم.

إن من الناس من تكون عنده المعونة الصالحة للبر والإحسان فلا يفعل.. فإذا مشى مشى مندفعاً مندلاً^(٢) لا يلوي على شيء مما حوله من المناظر المؤثرة المحزنة، وإذا وقع نظره على بائس لا يكون نصيبه منه إلا الإغراق في الضحك سخرية به وببذاءة ثوبه ودمامة خلقه، وإن من الناس من إذا عاشر الناس عاشرهم ليعرف كيف يحتلب درتهم^(٣) ويمتنص دماءهم، ولا يعاملهم إلا كما يعامل شويحاته وبقراته.. لا يطعمها ولا يسقيها إلا لما يتربص من الربح في الاتجار بألبانها وأصوافها.. ولو استطاع أن يهدم بيتا

(١) مأخذ الكلمة: أصل اشتقاقها.

(٢) اندلث: كاندفع.

(٣) الدرا: اللبن إذا كثر وسال.

ليربح حجرا لفعل.. وإن من الناس من لا حديث له إلا الدينار وأين مستقره وكيف الطريق إليه وما السبيل إلى حبسه والوقوف في وجهه والحيطة لفراره.. يبيت ليله حزينا كئيبا لأن خزانته ينقصها درهم كان يتخيل في يقظته أو يحلم في منامه أنه سيأتيه فلم يقيض له، وإن من الناس من يؤذي الناس لا يجلب لنفسه بذلك منفعة أو يدفع عنها مضرة، بل لأنه شرير يدفعه طبعه إلى ما لا يعرف وجهه أو ليعضري^(١) نفسه بالأذى مخافة أن ينساه عند الحاجة إليه.. حتى لو لم يبق في العالم شخص غيره لكانت نفسه مدب عقاربه وغرض سهامه.. وإن من الناس من إذا كشف لك عن أنيابه رأيت الدم الأحمر يترقق فيها، أو عن أظافره رأيت تحتها مخالب حادة لا تسترها إلا الصورة البشرية، أو عن قلبه رأيت حجرا صلدا من أحجار الغرانيت لا يبيض^(٢) بقطرة من الرحمة.. ولا تخلص إليه نسمة من العظة.

فيا أيها الإنسان احذر الحذر كله من أن تكون واحدا من هؤلاء فإنهم سباع مفترسة وذئاب ضارية.. بل أعظك ألا تدنو من أحد منهم أو تعترض طريقه.. فربما بدا له أن يأكلك فأكلك غير حافل بك.. ولا آسف عليك.

أيها الإنسان. ارحم الأرملة التي مات عنها زوجها، ولم يترك لها غير صبية صغار، ودموع غزار، ارحمها قبل أن ينال اليأس منها ويعيث الهم بقلبها فتؤثر الموت على الحياة.

(١) يقال: أضرى فلان كلبه بالصيد، وضرا: إذا أغراه به وعوده متابعته.

(٢) بض الدم: سال.

ارحم المرأة الساقطة لا تزين لها خلالها ولا تشتتر منها عرضها
علها تعجز عن أن تجد مساوما يساومها فيه فتعود به إلى كسر
بيتها.

ارحم الزوجة أم ولدك وقعيدة بيتك ومرأة نفسك وخادمة فراشك
لأنها ضعيفة، ولأن الله قد وكل أمرها إليك، وما كان لك أن تكذب
ثقتك بك.

ارحم ولدك وأحسن القيام على جسمه ونفسه فإنك إلا تفعل
قتلته أو أشقيته فكنت أظلم الظالمين.

ارحم الجاهل لا تتحين فرصة عجزه عن الانتصاف لنفسه
فتجمع عليه بين الجهل والظلم، ولا تتخذ عقله متجرا تريح فيه
ليكون من الخاسرين.

وارحم الحيوان لأنه يحس كما تحس ويتألم كما تتألم ويبكي
بغير دموع، ويتوجع ولا يكاد يبين.. ارحمه وكذب من يقول إن
الإنسان طبع على ضرائب لؤم، أقلها أنه يُقبَل يد ضاربه ويضرب
من لا يمد إليه يدا.

ارحم الطيور لا تحبسها في أقفاصها ودعها تهيم في فضاءها
حيث تشاء، وتقع حيث يطيب لها التغريد والتنقير، إن الله وهبها
فضاءً لا نهاية له فلا تغتصبها حقها فتضعها في محبس لا يسع
مد جناحيها؛ أطلق سبيلها وأطلق سمعك وبصرك وراءها لتسمع
تغريدها فوق الأشجار، وفي الغابات، وعلى شواطئ الأنهار، وترى

منظرها وهي طائرة في جو السماء فيخيل إليك أنها أجمل من منظر
الفلك الدائر والكوكب السيار.
أيها السعداء. أحسنوا إلى البائسين والفقراء، وامسحوا دموع
الأشقياء، وارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء.

رسالة الغفران^(١)

غفوت إغفاءة طويلة لا علم لي بمداهها ولا بما وقع لي فيها، ثم صحت، فرأيت نفسي في صحراء مد البصر مكتظة^(٢) بأنواع من الخلق لا أحصيهم عددا، فعلمت أنني بعثت، وأنه يوم القيامة، فساورني^(٣) من الهم ما ساورني حين ذكرت أن مقداره ألف سنة من سني الدنيا، وقلت: من لي بالصبر على موقف يهلك فيه صاحبه ظمأ وجوعا، ويحترق تحت أشعة شمس ليس بينه وبينها إلا قيد ظفر، فتماسكت بضعة أشهر، ثم لم أجد بعد ذلك إلى الصبر سبيلا، فزيّنت لي نفسي الكاذبة أن أذهب إلى رضوان خازن الجنان، وكنت أحمل شهادة التوبة في يدي لأسترحمه وألتمس منه الإذن بالدخول قبل انقضاء المحشر، فما زلت أرقيه بقصائد المدح المسومة^(٤) باسمه كما كنت أرقى بأمثالها أمثاله من عظماء العاجلة وسادتها، فما أبه^(٥) لي ولا فهم كلمة مما أقول؛ فانصرفت عنه إلى خازن آخر اسمه زفر فكان شأني معه شأني مع صاحبه؛ إلا أنه كان أرق منه وألين جانبا، فأشار عليّ بالذهاب إلى النبي الذي أتبعه، وأفهمني

(١) للمعري رسالة طويلة بهذا العنوان هذه خلاصتها.

(٢) مكتظة: مملوءة.

(٣) ساورته الهموم: واثبته وملكت ناصيته.

(٤) المسومة: العلامة.

(٥) أبه: احتفل.

أن الأمر موكول إليه، فعدت وبين جنبيّ من الحسرة والوجد ما الله عالم به، فبينما أنا أتخلل الصفوف، وأزاحم الوقوف، إذ وقع بصري على حلقة من الناس تحيط بشيخ هرم، أنعمت النظر فيه، فإذا هو الشيخ أبو عليّ الفارسي النحوي، وإذا بالمحتفين به جماعة من شعراء العرب كلهم يخاصمه وكلهم ينقم عليه، هذا يقول له: رويت بيتي على غير وجهه؛ وذلك يقول: أعربته على غير ما أردت وذهبت، فدفعني الفضول كما دفعهم إلى النزول في ميدانهم، فما فرغنا من الرفع والنصب والزيادة والحذف حتى أدركت شؤم ما فعلت، وعلمت أن شهادة التوبة قد سقطت مني في ذلك المعترك، فقلت: قَبِّحَ الله الشعر والإعراب، واللغة والأدب، إنهم شؤم الآخرة والأولى.

وقفت أحير من ضب في حمارة قيظ^(١) لا أدري ما آخذ، وما أدع، حتى رميت بطرفي فإذا بأmir المؤمنين عليّ بن أبي طالب في لفيف من العترة^(٢) الطاهرة النبوية فدلقت^(٣) إليه وأبثثته^(٤) أمري وأمر الشهادة المفقودة فقال: لا عليك، ألك شاهد بالتوبة؟ قلت: نعم، فنودي بشهودي فشهدوا بتوبتي، فقال: تريث^(٥) قليلا حتى تمر فاطمة بنت محمد فنسألها في أمرك، فهي تمت إلى أبيها بما لا

(١) الحمارة - بالتشديد - شدة الحر.

(٢) عترة الشخص: عشيرته وأهله.

(٣) دلف: مشى مشيا متثاقلا.

(٤) أبثثه السر: كاشفه به.

(٥) تريث: أبطأ.

نمت به^(١) وكانت ممن قسم لهم دخول الجنة قبل فصل القضاء ، إلا أنها كانت تخرج كل حين للتسليم على أبيها ، ثم تعود إلى مستقرها ؛ فإننا لذلك ، وإذا بمناد ينادي أن غصوا أبصاركم يا أهل الموقف حتى تعبر فاطمة بنت محمد ﷺ فهرعت إليها ، فرأيتها راكبة مع إخوتها وجواربها على أفراس من نور ، وتقدم من وعدني بسؤالها في أمري ، فأنجز وعده ، فقالت لأخيها إبراهيم : دونك الرجل ، فقال : تعلق بركابي فتعلقت ، فطارت الأفراس في الهواء تقطع الأجيال وتتخطى رءوس القرون حتى وافينا محمد ﷺ ، واقفا لشهادة القضاء ، فقصت عليه فاطمة ما علمت من أمري ، فراجع الديوان الأعظم فوجد اسمي في التائبين فشفع لي فعدت في ركب فاطمة فرحا مستبشرا ، وما كنت أقدّر أن بين يديّ عقبة الصراط ، فلما وافيته وجدته لا أستمسك عليه لرقته فأمرت فاطمة جارية من جواربها أن تعبر معي فأمسكت بيدي ، فمشيت أترنح ذات اليمين وذات الشمال ، وخفت السقوط فقلت لها : احمليني زقفونة ، فقالت : وما زقفونة؟ فقلت : أما سمعت قول الجحجلول من أهل كفر طاب :

صلحت حالتي الى الخلف حتى صرت أمشي الى الورى زقفونة

فقالت : ما سمعت بزقفونة ولا الجحجلول ولا كفر طاب فقلت : ألقى يدي فوق كتفيك ، وأجعل بطني إلى ظهرك ، فحملتني ، وجازت

(١) مت بالشيء : توسل به .

بي الصراط كالبرق الخاطف، حتى صرت إلى باب الجنة، فرمت الدخول، فوقف رضوان في وجهي وقال: أين جوازك^(١) فبعلت^(٢) بالأمر؛ ثم رأيت في دهليز الجنة شجرة صفاف فعالجته على أن يعطيني منها ورقة أعود بها إلى الموقف لأستكتب عليها الجواز فأبى؛ فقلت، وقد ملك الهم عليّ رشدي وصوابي: أما والله لو أنك حارس على أبواب الكرماء، أو خازن لخزائن الملوك والأمراء لما وصل شاعر إلى درهم، ولا سائل إلى سحتوت^(٣)، ولهلك الفقراء بؤسا وجوعا، فسمع إبراهيم عليه السلام حواري^(٤) فجذبني جذبة حصلني بها في الجنة وصاحبي ينظر إليّ شزرا فدخلت، فرأيت ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

رأيت أنهارا من الماء العذب أصفى من أديم السماء، وأصلق من مرآة الحسناء، تَنْصَبُ فيها جداول من الكوثر، إذا جرع الشارب منها جرعة جرع ماء الحياة وأمن أن يذوق كأس المنون مرة أخرى، ورأيت جداول تفيض بالراح فيضا قد زُينت حوافيها بأباريق من العسجد، وكئوس من الزبرجد، فما نهلت منها نهلة حتى قلت لو كشف لأهل العاجلة عما في هذه الخمرة من اللذة التي لا يشوبها

(١) الجواز: سك المسافر.

(٢) بعل بأمره: برم به فلم يدر ما يصنع فيه.

(٣) السحتوت في الأصل: السويق القليل الدسم، ثم أطلق على كل شيء قليل.

(٤) الحواري: مراجعة الكلام.

كدر، والنشوة التي لا يعقبها خمار^(١) ما باعوا قطرة منها بكل ما تشتمل عليه بابل وقطربل^(٢) من البواطى^(٣) والدنان، ولو نظر الأقيشر الأسدي بعين الغيب إلى عسجد هذه الأباريق وزبرجد تلك الكئوس لخلج من نفسه أن يقول:

أفنى تلادي وما جمعت من نشب قرع القوايز^(٤) أفواه الأباريق

وفي تلك الأنهار آنية ترفرف فوق سطحها على صور الطيور الكراكى والطواويس، والبط والعندليب ينحدر من مناقيرها شراب أرق من السراب وتنسبح فيها أسماك من الذهب والياقوت. **يُغْمَنُ فِيهَا بِأَوْسَاطٍ مَجْنَحَةٍ^(٥) كَالطَّيْرِ تَنْشُرُ فِي جَوْ خَوَافِيهَا**

ورأيت أنهارا من لبن، وأنهارا من عسل لا يدرك الوهم كنهه إلا إذا أدرك ما يمتص نحل الجنة من أزهارها وأنوارها.

رأيت جميع تلك الأنهار مكبرة، ثم تمثلت في نظري مصغرة، فإذا هي سطور من النور، وأحرف بيضاء في صحيفة خضراء، قرأتها فرأيتها ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرَ طَعْمُهُ، وَأَنْهَارٌ مِنْ حَمَرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ [سورة محمد: ١٥].

(١) الخمار: صداع الخمر.

(٢) بلدان معروفان بجودة خمرهما.

(٣) جمع باطية، وهي إناء للشراب يوضع بين الشرب للاعتراف منه.

(٤) القوايز: جمع قازوذة، وهي قدح الشراب.

(٥) مجنحة: ذات أجنحة.

ظللت أمشي فما أكاد أخطو خطوة حتى أرى منظرا عجيبا
ينسي السابق، ويشوق إلى اللاحق، فوددت لو طُوِّيت لي الأرض
طيا فأتعجل النظر إلى ما غاب عني من الجنة وبدائعها. فما أخذ
هذا الخاطر مكانه من نفسي حتى رأيت بين يدي فرسا من الجوهر
المتخير مسرجا ملجما، فعلمت أنني قد سعدت وأنها الأمنية التي
كنت أتمناها، فعلوت ظهره وغمزته غمزة خرج بها خروج الودق^(١)
من السحاب، والسيف من القراب^(٢)، وعلى ما جهدته لم يشك إليّ
ما شكاه جواد عنتره العبسي إليه في قوله:

فازور من وقع القنا بلبانه وشكا إليّ بعبرة وتحمحم

أو ما شكاه جواد عمر بن أبي ربيعة إليه في قوله:

تشكى الكميت الجري لما جهدت له وبين لو يستطيع أن يتكلما

ذكرت أنني، وأنا في الدار الفانية كنت أسمع بذكر الزاهبين
الأولين من الأدباء والشعراء والرواة، فآسف على أن لم أكن في
زمنهم أراهم وأحضر مجالسهم، فقلت: ليت شعري ما فعل الله
بهم في هذه الدار، وهل سعدوا أو شقوا، وهل يقيض لي من رؤيتهم
في دار البقاء، ما لم يقيض في دار الفناء؟

(١) الودق: المطر.

(٢) قراب السيف: غمده.

ثم رميت بطرفي فإذا فارس يحضر فرسه^(١) في الهواء إحضارا حتى تقاربنا فتماست الركب واختلفت الأعناق، فقال: انتسب، فقلت: فلان، ومن أنت يرحمك الله، وقد فعل؟ فقال: عدي بن زيد العبادي، فدهشت وقلت: عدي بن زيد في الجنة بعد الزين والضلال؟ فقال: أنا عيسوي، وأنت محمدي، وليس لصاحبك على أحد حجة إلا بعد ظهوره، وبلوغ دعوته، فقلت: لا نكران؛ ولكن كيف لم يقعد بك فسقك وشرابك، وأين استهتارك في قولك:

بكر العاذلون في وضح الصبح يقولون لي أما تستفيق
ودعوا بالصبح فجرا فجاءت قينة في يمينها إبريق

قال: غفر الله لنا ما غفر لكم، قلت: هل لك علم بجماعة الشعراء والرواة فقد تمنيت على الله أن أراهم فكنت عنوان الكتاب وفاتحة الإجابة! فقال: اصحبني، فطارت بنا الخيل، فقلت له: هل آمن ألا يقذف بي هذا السابح على صخرة من الزمرد أو هضبة من الياقوت فيكسر لي عضدا أو ساقا؟ فتبسم، وقال: أين يذهب بك؟ نحن في دار الخلود والبقاء.

مررنا بروضه من رياض الجنة يخترقها غدير خمري على شاطئه جمع كثير، على سرر متقابلين، أو على الأرائك متكئين، فهوئ صاحبني بفرسه فهوئ هوئ هويه، وقلنا: ﴿سَلِّمْ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾ [سورة الرعد: ٢٤] فرحبوا بنا وهشوا للقاءنا وانتسبنا

(١) أحضر الفرس: ارتفع في عدوه.

فتعارفنا، ثم أخذوا فيما كانوا فيه، فإذا الأصمعي ينشد مروياته، وأبو عبيدة يسرد وقائع الحروب ومقاتل الفرسان، وإذا سيوييه والكسائي متصافيان بعد أن وقع بينهما في مجلس البرامكة ما وقع، وأحمد بن يحيى لا يضرر لمحمد بن زيد من الموحدة ما كان يضرر، وأخذت تهب من ناحية النهر نفحة عطرية ذكرتني بقول الأعشى ميمون:

مثل ريح المسك ذاك ريحها

وعلى ذكر الأعشى ذكرت مصرعه وشقاعه، وقلت في نفسي: لولا أن قريشا صدته عن الإسلام لكان اليوم بيننا في مجلسنا هذا، فسمعت هاتفا من ورائي يقول: أنا بينكم، وفي مجلسكم، فالتفت فإذا الأعشى ميمون، فلم أدر من أي مدخله^(١) أعجب، أمن مدخله إلى الجنة؟ أم من مدخله إلى نفسي، وعلمه بما هجس في صدري؟ فعلمت أن أهل الجنة ملهمون، ثم سألته: كيف غفر لك؟ فقال: سحبتني الزبانية إلى سقر فرأيت في عرصات القيامة رجلا يتلأأ وجهه تالأؤ القمر والناس يهتفون به من كل جانب: الشفاعة يا محمد، فأخذت أخذهم، وهتفت هتافهم فأمر أن أدنو منه، فدنوت فسألني: ما حرمتك؟ فقلت: أنا القائل:

ألا أيهذا السائل أن يمت فإن لها في أهل يشرب موعدا
فأليت لا أرثي لها من كلاله ولا من وجى حتى تلاقي محمدا
متى ما تناخي عند باب ابن هاشم تراحي وتلقى من فواضله ندا

(١) المدخل: مصدر دخل، كالدخول.

نبي يرى ما لا ترون وذكره أغار لعمرى في البلاد وأنجدنا

فقال: ما سمعتها منك قبل اليوم، قلت: خدعني عنك الناس بعدما شددت راحلتي إليك، وكنت رجلا أحب الشراب وخفتك عليه أن تفرق بيني وبينه، فشفع لي، فدخلت الجنة على ألا أذوق فيها الخمر، فقنعت بالرضاب عن الشراب، وبماء الثغر المنضود عن ماء العنقود، ورأيت بجانبه شابا ريق الشباب، فسألت عنه فقيل لي: زهير بن أبي سلمى، فما كدت أصدق أنه القائل:

سئمت تكاليف الحياة ومن يعيش ثمانين حولا لا أبالك يسام
فقلت له: بم غفر الله لك؟ فقال: كنت في جاهليتي أترقب مبعث محمد وأتمنى البقاء حتى أراه، فحال بيني وبينه الموت؛ فأوصيت به ابني كعبا وبجيرا وكنت أوّمن بالحساب فما نفعني شيء ما نفعني قولي:

فلا تكتن الله ما في نفوسكم ليخفى ومهما يكتن الله يعلم
يؤخر فيوضع في كتاب ويدخر ليوم الحساب أو يقدم فينقم
وإلى جانب زهير، عبيد بن الأبرص، فسأله عن مصير أمره؟ فقال: كتبت لي النار، فما زال الناس يهتفون بقولي:

من يسأل الناس يحرموه وسائل الله لا يخيب
والعذاب يخفف عني شيئا فشيئا حتى خرجت ببركة هذا البيت من الجحيم إلى النعيم.

ذهبنا في الحديث كل مذهب وذهب بعضنا إلى ارتشاف الخمر من النهر، في آنية الدر، فانتشينا جميعا فما أفقنا إلا على حفيف رف^(١) من إوز الجنة نزل بنا، ثم انتفض عن كواعب أتراب يغنين بالمزاهر والآلات الثقيل والخفيف والهزج، فما أتينا على الألحان الثمانية حتى دارت بنا الأرض الفضاء، وحتى ملكنا من الطرب ما يستخف الحلوم ويطير بالهموم، وقلنا: لو علم جبلة بن الأيهم بما نحن فيه لقرع السن على أن باع دينه بسرور محدود، وأنس معدود، ودف وعود.

ذكرت جبلة فذكرت لذكره النار وقوله تعالى: ﴿فَاطْلَعَ قَرَأَهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ﴾ [سورة الصافات: ٥٥] فتمنيت أن أطلع فأرى المعذبين كما رأيت المنعمين؛ فألهمت الإذن؛ فأشرت لصاحبي فقام وقمت، وركبنا فرسينا فطارتا بنا حتى انتهينا إلى سور الجنة، فرأينا عنده من الداخل كوخا يسكنه شيخ زري الهيئة، فأشرفنا عليه فقال: «لا تعجبوا لشأني، أنا الحطيئة، ووالله لولا أنني صدقت مرة واحدة في حياتي في قلبي:

أرى لي وجهاً شوه الله خلقه فقبح من وجهه وقبح حامله
لما دخلت الجنة.. ولما أدركت كوخا ولا جحرا؛ فتركناه..
واطلعنا، فما رأنا أهل النار حتى ضجوا بصوت واحد أن ﴿أَنْ أَفِضُوا

(١) الرف: الطيع من الطير.

عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ ﴿٥٠﴾ [سورة الأعراف: ٥٠] فرأينا
ملوكا وأكاسرة يتضاغون^(١) في السلاسل والأغلال ويقولون: ﴿رَبَّنَا
أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَدَقَاتٍ غَيْرَ آلِدِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوْلَمَ نُنْعِمِكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ
مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ ﴿٣٧﴾﴾ [سورة
فاطر: ٣٧].

ورأيت بجانبني امرأة تبينتها فإذا هي الخنساء، تطلع مثلنا
فترى رجلا كالجبل الأشم على رأسه شعلة من النار، فتمتعص
وتقول: «يا صخر هذا تأويل قلبي فيك من قبل:

وان صخرًا لتاتم الهداة به كأنه علم في رأسه النار

ورأيت هناك كثيرا من أمثال امرئ القيس وعنترة وعمر بن
كلثوم وطرفة بن العبد، ورأيت بشار بن برد تفتح عيناه بكلايب
من نار، وكلما اشتد به الألم رفس إبليس برجله، وقال له ما كنت
لأدخل النار لولا قلبي فيك:

إبليس أفضل من أيكم آدم فتبينوا يا معشر الأشرار
النار عنصره وأدم طينة والطين لا يسمو سمو النار

وجزعا من المنظر فهممنا بالرجوع.. وإذا إبليس يهتف بنا:
يا أهل الجنة! بلغوا عني أباكم آدم أني لم أدخل النار بسببه حتى
أخذت معي أكثر ولده وأفلاذ كبده، فلا يهنا كثيرا بمصيري، فقلنا:

(١) يقال: بات الصبيان يتضاغون من الجوع، أى يتضورون منه.

قبحه الله، لا يزال ينفس على آدم نعمته حتى اليوم، فما كان لنا هم بعد رجوعنا إلا لقاء أبيينا آدم عليه السلام.. فلقيناه.. فبلغناه الرسالة، فقال: وا رحمته له، ما كان بينه وبين الإيمان إلا القليل.. فأرداه الحسد فكان من المهلكين.. فقبلنا يده وانصرفنا إلى ما أعد الله لنا من ملك كبير وجنة وحريير.. وهور وولدان، كأنهم الياقوت والمرجان، فحمدنا الله الذي هدانا لهذا، وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله.

أفسدك قومك

أيها المجرم الفاتك الذي يسلب الخزائن نفائسها، والأجسام أرواحها، لست أحمل عليك من العتب فوق ما يحتمله ذنبك، ولا أنظر إليك بالعين التي نظر بها إليك القاضي الذي قسا في حكمه عليك، لأنني أعتقد أن لك شركاء في جريمتك. فلا بد لي من أن أنصفك، وإن كنت لا أستطيع أن أنفك.

شريكك في الجريمة أبوك، لأنه لم يتعهدك بالتربية في صغرك، ولم يحل بينك وبين مخالطة المجرمين، بل كثيرا ما كان يبخبخ^(١) لك إذا رآك هجمت على تربك وضربته، ويصفق لك إذا رأى أنك تمكنت من اختلاس درهم من جيب أخيك، أو اختطاف لقمة من يده، فهو الذي غرس الجريمة في نفسك وتعهدها بالسقيا حتى أينعت ونمت وأثمرت لك هذا الحبل الذي أنت معلق به اليوم، وها هو ذا الآن يذرف عليك العبرات، ويصعد الزفرات، ولو عرف أنها جريمته، وأنها غرس يمينه لضحك مسرورا بغفلة الشرائع عنه وسجد لله شكرا على أن لم يكن حبلك في عنقه وجامعتك^(٢) في يده. شريكك في الجريمة هذا المجتمع الإنساني الفاسد الذي أغراك بها، ومهد لك السبيل إليها، فقد كان يسميك شجاعا إذا قتلت،

(١) بخبخ: قال له «بخ بخ».

(٢) الجامعة: الغل.

وذكيا فطنا إذا سرقت، وعالما إذا احتلت، وعاقلا إذا خدعت، وكان
يهابك هيبتة للفاتحين، ويجلك إجلاله للفاضلين، وكثيرا ما كنت
تحب أن ترى وجهك في مرآته فتراه وجهاً أبيض ناصعا، فتنمى لو
دام لك هذا الجمال؛ ولو أنه كان يؤثر نصحك ويصدقك الحديث عن
نفسك لمثل لك جريمتك في صورتها الشواء، وهنالك ربما وددت
بجدع الأنف لو طواك بطن الأرض عنها وحالت المنية بينك وبينها.
شريك في الجريمة حكومتك؛ لأنها كانت تعلم أن الجريمة هي
الحلقة الأخيرة من سلسلة كثيرة الحلقات، وكانت تراك تمسك بها
حلقة حلقة وتعلم ما سينتهي إليه أمرك، فلا تضرب على يدك،
ولا تعترض دون سبيلك؛ ولو أنها فعلت لما اجترمت، ولا وصلت
إلى ما إليه وصلت.

كانت حكومتك تستطيع أن تعلمك وتهذب نفسك، وأن تغلق بين
يديك أبواب الحانات والمواخير، وأن تحول بينك وبين مخالطة
الأشرار بإبعادهم عنك وتشريدكم في مجاهل الأرض ومخارمها.. وأن
تعديك^(١) على قتيلك قبل أن يبلغ حقدك عليه مبلغه من نفسك، وأن
تحسن تأديبك في الصغيرة قبل أن تصل إلى الكبيرة.. ولكنها أغفلت
أمرك فنامت عنك نوما طويلا.. حتى إذا فعلت فعلتك استيقظت
على صوت صراخ المقتول.. وشممت عن ساعدها لتمثل منظرا من
مناظر الشجاعة الكاذبة.. فاستصرخت جندها؛ واستنصرت قوتها

(١) أعدى الأمير فلانا على فلان، إذا نصره وأعانه عليه.

وأعدت جذعها وجلادها؛ وكان كل ما فعلت أنها أعدمته حياتك.
هؤلاء شركاؤك في الجريمة.. وأقسم لو كنت قاضيا لأعطيتك من
العقوبة على قدر سهمك في الجريمة وجعلت تلك الجزوع قسمة
بينك وبين شركائك، ولكنني لا أستطيع أن أنفعل.
فيا أيها القاتل المظلوم: رحمة الله عليك.

الصدق والكذب

جاءني هذا الكتاب من أحد الفضلاء.

يا صاحب النظرات :

سمعت بالصدق، وما وعد الله به الصادقين من حسن المثوبة
وجزيل الأجر.. وسمعت بالكذب.. وما أعد الله للكاذبين من سوء
العذاب وأليم العقاب.. وقرأت ما كتبه حكماء الأمم من عهد آدم
إلى اليوم.. وإجماعهم أن الصدق فضيلة الفضائل والأصل الذي تتفرع
عنه جميع الأخلاق الشريفة.. والصفات الكريمة.. وأنه ما تمسك
به متمسك إلا كان النجاح في أعماله ألصق به من ظله.. وأعلق به
من نفسه. سمعت هذا وقرأت هذا فلم يبق في نفسي ريب في أن ما
أنا مرزوء به في حظي من الشقاء، وعيشي من الضنك، وحياتي من
الهموم والأكدار، إنما جرّه عليّ شؤم الكذب، وأن ما كنت أتخيله
قبل اليوم من أن هناك مواقف يكون فيها الكذب أنفع من الصدق
وأسلم عاقبة، إنما هو ضرب من ضروب الوهم الباطل.. ونزغة من
نزغات الشيطان، فعاهدت الله ونفسي ألا أكذب ما حييت، وأعددت
لذلك القسم العظيم عدته من شجاعة في النفس وقوة في عزيمة بعد ما
وجهت وجهي لله تعالى وسألته أن يمدني بمعونته ونصره.
وهأنذا أذكر لك مواقف الصدق التي وقفتها بعد ذلك العهد، وما
رأيت من آثارها ونتائجها.

الموقف الأول: جلست في حانوتي فما وقف بي مساوم إلا صدقته القول في الثمن الذي اشتريت به السلعة والربح الذي أريده لنفسي فيها، والذي لا أستطيع أن أعد نفسي رابحا إذا تجاوزت عن بعضه.. فيأبى إلا الحطيطة^(١) فأبأها عليه، فينصرف عني استثقالا للثمن واستعظاما لمقداره، وما هو إلا الربح الذي اعتدت أن آخذه منه في مثل تلك الصفقة، إلا أنني كنت أكذب عليه في أصل الثمن فيصغر في نظره الربح، فلما صدقته عنه أعظمه وانصرف عني إلى سواي، ولم أزل على هذه الحال حتى أظلني الليل، ولم يفتح الله عليّ بقوت يومي، وما هي إلا أيام قلائل حتى عرفت في السوق بالطمع والمغالاة فأصبحت لا يطرق باب حانوتي طارق.

الموقف الثاني: جلست في مجلس يتصدره شيخ من تجار العقول الضعيفة المعروفين بمشايع الطرق.. وقد حَفَّ به جماعة من عبده وسدنة^(٢) هيكله فسمعتة يشرح لهم معنى التوكل شرحا غريبا يذهب فيه إلى أنه القعود عن العمل، وإلقاء حبل هذا الوجود على غاربه، والإعراض عن كل سعي يؤدي إلى أي غاية، ويعتمد في هذيانه هذا على آيات يؤولها كما يشاء، وأحاديث لا يستند في صحتها على مستند سوى أنه سمعها من شيخه، أو قرأها في كتابه، وأكثر ما كان يدور على لسانه حديث: «لو توكلتم على الله

(١) الحطيطة: ما يحط من الثمن.

(٢) السادن: خادم الهيكل أو خادم الكعبة والمراد به الحاجب، والجمع: سدنة.

حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير، تغدو خماسا وتروح بطانا»^(١). فقلت له، وقد أخذ الغيظ من نفسي مأخذه: يا شيخ: أردت أن تحتج لنفسك فاحتججت عليها، أتعمد إلى حديث يستدل به رواته على وجوب السعي والعمل فتستدل به على البطالة والكسل، ألم تر أن الله سبحانه وتعالى ما ضمن للطير الرواح بطانا إلا بعد أن أمرها بالغدو، وهي التي ترويه القطرة، وتشبعها الحبة، فكيف لا يأمر الإنسان بالسعي، وهو من لا تفنى مطالبه، ولا تنتهي رغباته؟

أيها القوم، إنكم تقولون بألسنتكم ما ليس في قلوبكم، إنكم عجزتم عن العمل، وأخلدتم إلى الكسل، وأردتم أن تقيموا لأنفسكم عذرا يدفع عنكم هاتين الوصمتين، فسميتم ما أنتم فيه توكلا، وما هو إلا العجز الفاضح، والإسفاف الدنيء.

وهنا زفر الشيخ زفرة الغيظ، ونادى في قومه: أن أخرجوا هذا الزنديق الملحد من مجلسي، فتألبوا عليّ تألبهم على قصعة الثريد، وأوسعوني لطما وصفعا، ثم رموا بي خارج الباب، فما بلغت منزلي حتى هلكت أو كدت، فما مررت بعد ذلك بطائفة من العامة إلا رموني بالنظر الشزر، وعادوا بالله من رؤيتي كما يعوذون به من الشيطان الرجيم.

الموقف الثالث: لا أكتمك يا سيدي، أني كنت أبغض زوجتي بغضا يتصدع له القلب، غير أني كنت أصانعها وأتودد إليها

(١) الخماس جمع خميص، وهو ضامر البطن، والبطان جمع بطين، وهو ممتلئ

البطن.

وأمنحها من لساني ما ليس له أثر في قلبي ، مداورة لها وإبقاء على ما تحتويه يدي من صباغة مال كانت لها ، فرأيت أن ذلك أكذب الكذب وأقبحه ، فآليت على نفسي ألا أسدل بعد اليوم دونها حجابا يحول بينها وبين سريرتي ، فانقطع عن مسمعها ذلك السلسيل العذب من كلمات الحب ، فاستوحشت مني وأظلم ما بيني وبينها ، فما هي إلا عشية أو ضحاها ، حتى وهنت تلك العقدة ، وانحل ذلك الوثاق ، وختمت سورة الفراق بآية الطلاق.

الموقف الرابع : حضرت مجتمعا يضم بين حاشيتيه جماعة من الفضوليين الذين تضيق بهم مذاهب القول فيلجأون إلى الحديث عن الناس وتتبع عثراتهم ، ويحاولون أن ينبشوا دفائن صدورهم ويتغلغلوا فى أطواء^(١) سرائرهم ؛ ويغالون في ذلك مغالة الكيميائي في تحليله وتركيبه ، فرأيتهم يتناولون بالسنتهم رجلا عظيما من أصحاب الآراء السياسية لا أعتقد أن بين السالكين مسلكه والآخذين إخذة من أخلص لأمته إخلاصه ، أو وقف في المواقف المشهودة موقفه ؛ أو لاقى في ذلك السبيل من صدمات الدهر وضربات الأيام ما لاقاه ، سمعتهم يسمونه خائنا ، فوالله لأن تقع السماء على الأرض أحب إليّ من أن يتهم البريء أو يجازى المحسن سوءاً على إحسانه ؛ سمعت ما لم أملك نفسي معه ؛ فقلت يا قوم ، أظالعون من كتاب الحرية مائة

(١) أطواء الثوب : طرائفه ومكاسر طيه.

صفحة ونيفا^(١) ثم لا تزالون عبيد الأوهام، أسرى الخيالات، سراحاً إلى كل داع، ساعة مع كل ساع، تنظرون بغير روية، وتحكمون بغير علم، إنكم بعملكم هذا تزهدون المحسن في إحسانه؛ وتلقون الرعب في قلب كل عامل يعمل لأجلكم؛ وتثبطون همة كل من يحدث نفسه بخدمتكم وخدمة قضيتكم؛ أليس مما يلقي في النفس اليأس من نجاحكم وصلاح حالكم، أن نراكم طعمة كل آكل؛ ولعبة كل لاعب، يستهويكم الكاذب بالكلمات التي تستهوي بها المرضعات أطفالهن ثم يدعوكم إلى مناوأة الصادق فتمنحون الأول ودمكم وإخلاصكم، والثاني بغضكم وموجدتكم. خاطبتهم بهذه الكلمات أريد بها خيراً لهم، فأرادوا شرا بي! فما خلصت من بينهم إلا وأنا ألس رأسي بيدي لأعلم أين مكانها من عنقي!

الموقف الخامس: قابلني في الطريق شاعر يحمل في يده طوماراً^(٢) كبيراً وكنت ذاهباً إلى موعد لا بد لي من الوفاء به، عرض عليّ أن يسمعني قصيدة من طريف شعره، وأنا أعلم الناس بطريفه وتليده، فاستعفيت به بعد أن كاشفته بعذري فأبى، فانتحيت به ناحية من الطريق، فأنشأ يترنم بالقصيدة بيتاً بيتاً، وأنا أشعر كأنما يجرعني السم قطرة قطرة، حتى تمنيت أن لو ضربني بها ضربة واحدة

(١) يريد أن تاريخ الحرية في مصر قرن ونيف.

(٢) الطومار: الصحيفة.

يكون فيها انقضاء أجلي ليرychني من هذا العذاب المتقطع والتمثيل
الفظيع ، وكلما أتى على بيت منها أقبل عليّ بوجهه ، وأطال النظر
في وجهي وحدّق في عينيّ ، ليعلم كيف كان وقع شعره من نفسي ،
فإذا رأى تقطيب وجهي ظنه تقطيب الشارب لارتشاف الكأس
فيستمر في شأنه حتى أنشد نحو خمسين بيتا ، ثم وقف وقال :
هذا هو القسم الأول من أقسام القصيدة ، فقلت ؛ وكم عدد أقسامها
يرحمك الله؟ قال : عشرة ليس فيها أصغر من أولها . قلت : أتأذن لي
أن أقول لك يا سيدي إن شعرك قبيح ، وأقبح منه طوله ، وأقبح من
هذا وذاك صوتك الأجش الخشن ، وأقبح من الثلاثة اعتقادك أنني من
سخافة الرأي وفساد الذوق بحيث يعجبني مثل هذا الشعر البارد
عجبا يسهل عليّ فوات الغرض والذي ما خرجت من منزلي إلا من
أجله .. فتلقاني بضربة بجمع يده^(١) في صدري ، فرفعت عصاي ، وما
زالت أكفنا تأخذ مأخذها من خدودنا وأقفائنا حتى كلت ، فجردت
عصاي وضربته بها على رأسه ضربة ما أردت بها - يعلم الله - إلا
أن أصيب مركز الشعر من مخه فأفسده عليه فسقط مغشيا عليه .
وسقطت القصيدة من يده فأسرعت إليها ومزقتها ، وأرحت نفسي
منها ، وأرحت الناس من مثل مصيبتني فيها ، وكان الشرطي قد
وصل إلينا فاحتملنا جميعا إلى المخفر ثم إلى السجن حيث أكتب
إليك كتابي هذا .

(١) جمع اليد : هيئتها حين تقبضها .

فيا صاحب النظرات أفتني في أمري، وأنر ظلمة نفسي، فقد
أشكل عليَّ الأمر، وأصبحت أسوأ الناس بالصدق ظناً، بعدما رأيت
أنني ما وقفت موقفه في حياتي إلا خمس مرات، فكانت نتيجة ذلك
إفلاسي وخراب بيتي، واتهامي بالخيانة مرة والزندقة أخرى؛
ذلك إلى ما أقاسيه اليوم في هذا السجن من أنواع الآلام، وصنوف
الأسقام.

سجين المحافظة غزة ١١٨

أيها السجين:

كتبت إليَّ - مسح الله ما بك، وألهمك صواب الرأي في حاليك
- تشكو من جناية الصدق عليك ما وقف بك موقف الشك في أمره،
وكاد يزلق بك إلى الاعتقاد أنه رذيلة الرذائل لا فضيلة الفضائل،
وما كان لك أن تجعل لليأس هذا السبيل إلى نفسك، وأن يبلغ بك
الجزع من نكبات العيش وضربات الأيام مبلغا يذهب برشدك،
ويطير بلبك؛ فما أنت أول صادق في الأرض ولا بأول من لقي في
سبيل الصدق شراً؛ وكابد ضراً.

إنك لو فهمت معنى الفضيلة حق الفهم وصبرت على مرارتها
حق الصبر لذقت من حلاوتها ما تقطع دونه أعناق الرجال.

ليست الفضيلة وسيلة من وسائل العيش أو كسب المال، وإنما هي حالة من حالات النفس تسمو بها إلى أرقى درجات الإنسانية وتبلغ بها غاية الكمال.

إن الذي يطلب الفضيلة ليستكثر بها ماله، أو يرفه بها عيشه، يحتقرها ويزدريها؛ لأنه لا يفرق بينها وبين سلعة التاجر وآلة الصانع.

ليس من صواب الرأي أن يجعل الإنسان حالة عيشه ميزانا يزن به أخلاقه فإن اتسع عيشه اطمأن إليها، وإن ضاق أساء الظن بها، فكم رأينا بين الفاضلين أشقياء، وبين الأرزلين كثيرًا من ذوي النعمة والثراء!

لا يستطيع الرجل الفاضل أن يبلغ غايته من عيشه إلا إذا استطاع أن ينزل من نفوس الناس منازل الحب والإكرام، ولن يستطيع ذلك إلا إذا عاش بين قوم يعرفون الفضيلة ويعظمون شأنها، ولن يكونوا كذلك إلا إذا كانوا فضلاء أو أشباه فضلاء، والسواد الأعظم الذي يمسك بيده أسباب العيش ويملك يناييعه: سواد أبله ساذج يبغض الصادق لأنه يصادره في ميوله وأهوائه وينقم منه جهله وغباوته، ويحب الكاذب لأنه لا يزال يزين له أمره حتى يحبب إليه نفسه، فلا بد للصادق من صدر يسع هموم العيش، وقلب يحتمل بغض القلوب ليبلغ غايته من إصلاح النفوس وتهذيبها كما يبذل المجاهد حياته ودمه ليبلغ غايته من الفوز والانتصار.

الصدق جنة حُفَّتْ بالمكاره، فإن كان للصادق في جنة الصدق أرب
فليحمل في سبيلها ما حملة الأنبياء والمرسلون والحكماء والقائمون
بإصلاح المجتمع الإنساني ودعاة المطالب الدينية والسياسية.
كما أن الجود يُفقر والإقدام قتال، وكما أن لكل فضيلة من الفضائل
آفة من الآفات ترفع توغر طريقها وتبعد منازلها إلا على الصابرين
المخلصين، كذلك للصدق آفة من مصادقة الكاذبين وهم الأكثرون،
للصادقين وهم الأقلون.

أتريد أيها الرجل أن تُسمَّى صادقاً، وأن تنال أشرف لقب
يستطيع أن يناله بشر، وأن يوافيك المجد طائعا مدعنا دون أن
تبذل في سبيله شيئاً من مالك أو راحتك؟

إنك إن أردت ذلك أو قدرته في نفسك؛ تظلم الفضيلة ظلماً بيناً
وترخص قيمتها، وتلقي بها في مدارج الطرق وتحت مواطئ النعال.
أيحزنك انصراف الأغبياء عن حانوتك أو اتهامك بالزندقة
والإلحاد أو المروق والخيانة، وترى أن ذلك كثير في سبيل بلوغك
منزلة الصدق وإحرازك فضيلته، وأنت تعلم أن الفاضلين قد بذلوا
من قبلك أكثر مما بذلت، في سبيل إحراز ما أحرزت، فما ندموا
ولا حزنوا؟

أيها السجين الشريف:

هنيئاً لك السجن الذي تكابده، وهنيئاً لك البغض الذي تحتمله،
وهنيئاً لك العيش الذي تعالج همومه، فوالله لأنت أرفع في نظري

من كثير من أولئك الذين يعدهم الناس سعداء، ويسمونهم عظماء.
لا تظلم الصدق ولا تكن سيئ الظن به، وكن أحرص الناس على
ولائه ومودته، وإياك أن يخدعك عنه خادع، واصبر قليلا يثمر لك
غرسه ويمتد عليك ظله، وهنالك تجد في نفسك من اللذة والغبطة
ما لو بذل فيه ذوو التيجان تيجانهم، وأرباب الكنوز كنوزهم، لما
استطاعوا إليه سبيلا.

النظامون

ما لهؤلاء النظامين لا يهدءون ساعة واحدة عن تصديع رؤوسنا وتمزيق أفئدتنا بهذه الصواعق التي يمطرونها علينا كل يوم من سماء الصحف، حتى صرنا كلما فتحنا صحيفة ورأينا في وسطها جدولاً أبيض مستطيلاً تخيلناه حية رقطاء، ففزعنا وألقينا الصحيفة كما ألقاها الشاعر المتلمس لينجو بنفسه ويسلم بحياته.

من لي بالقلم العريض الذي يكتب به كُتَّاب الصحف عناوين مقالاتهم في معرض التهويل والتفخيم، فأكتب به إلى هؤلاء المساكين هذه الكلمة الآتية:

أيها القوم: إن علماء الضاد الذين عرّفوا الشعر بأنه الكلام الموزون المقفى، لم يكونوا شعراء ولا أدباء ولا يعرفون من الشعر أكثر من إعرابه وبنائه أو اشتقاقه وتصريفه، وإنما جروا في ذلك التعريف مجرى علماء العروض الذين لا مناص لهم من أن يقفوا في تعريف الشعر عند هذا القدر ما دام لا يتعلق لهم غرض منه بغير أوزانه وقوافيه وعلله وزحافاته.

لا تظنوا أن الشعر كما تظنون، وإلا لاستطاع كل قارئ بل كل ناطق أن يكون شاعراً؛ لأنه لا يوجد في الناس من يعجزه تصور النعمة الموسيقية والتوقيع عليها من أخصر طريق.

أيها القوم: ما الشعر إلا روح يودعها الله فطرة الإنسان من مبدأ نشأته ولا تزال كامنة فيه كمون النار في الزند حتى إذا شدا^(١) فاضت على أسلات أقلامه^(٢) كما تفيض الكهرباء على أسلاكها، فمن أحس منكم بهذه الروح في نفسه فليعلم أنه شاعر، أو لا، فليكيف نفسه مئونة التخطيط والتسطير، وليصرفها إلى معاناة ما يلائم طبعه ويناسب فطرته من أعمال الحياة، فوالله للمحراث في يد الفلاح، والقدوم في يد النجار، والمسير في يد الحداد: أشرف وأنفع من القلم في يد النظام.

فإن غم عليكم الأمر وأعجزكم أن تعلموا مكان الروح الشعرية من نفوسكم، فاعرضوا أنفسكم على من يرشدكم إليكم ويدلكم عليكم، حتى تكونوا على بينة من أمركم.

الحرية

استيقظت فجر يوم من الأيام على صوت هرة تموء^(٣) بجانب فراشي وتتمسح بي، وتلح في ذلك إلحاحا غريبا، فرابني أمرها، وأهمني همها وقلت: لعلها جائعة، فنهضت، وأحضرت لها طعاما فعافته، وانصرفت عنه. فقلت: لعلها ظمآنة، فأرشدتها إلى الماء فلم تحفل به وأنشأت تنظر إليّ نظرات تنطق بما تشتمل عليه نفسها

(١) شدا: أخذ طرفا من الأدب والعلم.

(٢) الأسلات جمع أسلة: وهي نبات رقيق الغصن.

(٣) المواء: صوت الهرة.

من الآلام والأحزان، فآثر في نفسي منظرها تأثيرا شديدا، حتى تمنيت أن لو كنت سليمان أفهم لغة الحيوان، لأعرف حاجتها وأفرج كربتها، وكان باب الغرفة مرتجا، فرأيت أنها تطيل النظر إليه وتلتصق بي كلما رأتني أتجه نحوه، فأدركت غرضها وعرفت أنها تريد أن أفتح لها الباب، فأسرعت بفتحه فما وقع نظرها على الفضاء، ورأت وجه السماء، حتى استحالت حالتها من حزن وهم إلى غبطة وسرور، وانطلقت تعدو في سبيلها، فعدت إلى فراشي وأسلمت رأسي إلى يدي، وأنشأت أفكر في أمر هذه الهرة، وأعجب لشأنها وأقول: ليت شعري هل تفهم الهرة معنى الحرية فهي تحزن لفقدانها وتفرح ببقاياها؟ أجل. إنها تفهم معنى الحرية حق الفهم، وما كان حزنها وبكاؤها وإمساكها عن الطعام والشراب إلا من أجلها، وما كان تضرعها ورجاؤها وتمسحها وإلحاحها إلا سعيا وراء بلوغها.

وهنا ذكرت أن كثيرا من أسرى الاستبداد من بني الإنسان لا يشعرون بما تشعر به الهرة المحبوسة في الغرفة، والوحش المعتقل في القفص، والطير المقصص الجناح من ألم الأسر وشقائه، بل ربما كان بينهم من لا يفكر في وجهه الخلاص أو يلتمس السبيل إلى النجاة مما هو فيه، بل ربما كان بينهم من يتمنى البقاء في هذا السجن ويأنس به ويتلذذ بآلامه وأسقامه.

من أصعب المسائل التي يحار العقل البشري في حلها: أن يكون الحيوان الأعجم أوسع ميدانا في الحرية من الحيوان الناطق، فهل

كان نطقه شؤما عليه وعلى سعادته؟ وهل يجمل به أن يتمنى
الخرس والبله ليكون سعيدا بحريته كما كان سعيدا بها قبل أن
يصبح ناطقا مدركا؟

يخلق الطير في الجو، ويسبح السمك في البحر، ويهيم الوحش في
الأودية والجبال، ويعيش الإنسان رهين المحبسين: محبس نفسه
ومحبس حكومته، من المهد إلى اللحد.

صنع الإنسان القوي للإنسان الضعيف سلاسل وأغلالا، وسماها
تارة ناموسا وأخرى قانونا، ليظلمه باسم العدل، ويسلب منه
جوهره حريته باسم الناموس والنظام.

صنع له هذه الآلة المخيفة، وتركه قلقا حذرا، مروع القلب،
مرتعد الفرائص يقيم من نفسه على نفسه حراسا تراقب حركات
يديه وخطوات رجله وحركات لسانه وخطرات وهمه وخياله،
لينجو من عقاب المستبد ويتخلص من تعذيبه، فويل له ما أكثر
جهله! وويح له ما أشد حمقه؟ وهل يوجد في الدنيا عذاب أكبر
من العذاب الذي يعالجه؟ أو سجن أضيق من السجن الذي هو فيه؟
ليست جناية المستبد على أسيره أنه سلبه حريته، بل جنايته
الكبرى عليه أنه أفسد عليه وجدانه، فأصبح لا يحزن لفقد تلك
الحرية، ولا يذرف دمعة واحدة عليها.

لو عرف الإنسان قيمة حريته المسلوبة منه وأدرك حقيقة ما
يحيط بجسمه وعقله من والقيود، لانتحر كما ينتحر البلبل إذا

حبسه الصياد في القفص، وكان ذلك خيرا له من حياة لا يرى فيها شعاعا من أشعة الحرية، ولا تخلص إليه نسمة من نسوماتها. كان في مبدأ خلقه يمشي عريانا، أو يلبس لباسا واسعا يشبه أن يكون ظلة تقيه لفحة الرمضاء، أو هبة النكباء، فوضعه في القمط كما يضعون الطفل، وكفونه كما يكفنون الموتى، وقالوا له: هكذا نظام الأزياء.

كان يأكل ويشرب كل ما تشتهيه نفسه وما يلتئم مع طبيعته، فحالوا بينه وبين ذلك، وملأوا قلبه خوفا من المرض أو الموت، وأبوا أن يأكل أو يشرب إلا كما يريد الطبيب، وأن يتكلم أو يكتب إلا كما يريد الرئيس الديني أو الحاكم السياسي، وألا يقوم أو يقعد أو يمشي أو يقف أو يتحرك أو يسكن، إلا كما تقضي به قوانين العادات والمصطلحات.

لا سبيل إلى السعادة في الحياة، إلا إذا عاش الإنسان فيها حرا مطلقا، لا يسيطر على جسمه وعقله ونفسه ووجدانه وفكره مسيطر إلا أدب النفس.

الحرية شمس يجب أن تشرق في كل نفس، فمن عاش محروما منها عاش في ظلمة حالكة، يتصل أولها بظلمة الرحم، وآخرها بظلمة القبر.

الحرية هي الحياة، ولولاها لكانت حياة الإنسان أشبه شيء بحياة اللعب المتحركة في أيدي الأطفال بحركة صناعية.

ليست الحرية في تاريخ الإنسان حادثا جديدا، أو طارئا غريبا؛ وإنما هي فطرته التي فطر عليها مذ كان وحشا يتسلق الصخور، ويتعلق بأغصان الأشجار.

إن الإنسان الذي يمد يديه لطلب الحرية ليس بمتسول ولا مستجد، وإنما هو يطلب حقا من حقوقه التي سلبته إياها المطامع البشرية، فإن ظفر بها فلا منة لمخلوق عليه، ولا يد لأحد عنده.

عبرة الهجرة

إن في أخلاق النبي ﷺ، وسجاياه التي لا تشتمل على مثلها نفس بشرية ما يغنيه عن كل خارقة تأتيه من الأرض أو السماء، أو الماء أو الهواء.

إن ما كان يبهر العرب من معجزات علمه وحلمه وصبره واحتماله وتواضعه وإيثاره، وصدقه وإخلاصه، أكثر مما كان يبهرهم من معجزات تسبيح الحصى وانشقاق القمر، ومشى الشجر، ولين الحجر؛ ذلك لأنه ما كان يريبهم في الأولى ما كان يريبهم في الأخرى من الشبه بينها وبين عرافة العرافين وكهانة الكهنة، وسحر السحرة، فلولا صفاته النفسية وغرائزه وكمالاته ما نهضت له الخوارق بكل ما يريد، ولا تركت المعجزات في نفوس العرب ذلك المعروف الأثر الذي تركته، ذلك هو معنى قوله تعالى: ﴿وَلَوْ كُنْتَ فَظًا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ [سورة آل عمران: ١٥٩].

كان النبي ﷺ شجاع القلب، فلم يهب أن يدعو إلى التوحيد قوما مشركين يعلم أنهم غلاظ جفاة شرسون متنمرون، يغضبون لدينهم غضبهم لأعراضهم؛ ويحبون آلهتهم كما يحبون أبناءهم.

كان على ثقة من نجاح دعوته، فكان يقول لقريش - أشد ما كانوا هزءً به وسخرية -: «يا معشر قريش، والله لا يأتي عليكم غير قليل حتى تعرفوا ما تنكرون، وتحبوا ما أنتم له كارهون».

كان حليماً سمح الأخلاق فلم يزعجه أن كان قومه يؤذونه
ويزدرونه ويشعثون^(١) منه ويضعون التراب على رأسه، ويلقون
على ظهره أمعاء الشاة وسلى^(٢) الجزور، وهو في صلاته، بل كان
يقول: اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون.

كان واسع الأمل كبير الهمة صلب النفس، لبث في قومه ثلاث
عشرة سنة يدعو إلى الله فلا يلبي دعوته إلا الرجل بعد الرجل، فلم
يبلغ الملل من نفسه، ولم يخلص اليأس إلى قلبه، فكان يقول: «والله
لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في شمالي على أن أترك هذا الأمر
حتى يظهره الله أو أهلك ما تركته».

وما زال هذا شأنه حتى علم أن مكة لن تكون مبعث الدعوة،
ولا مطلع تلك الشمس المشرقة، فهاجر إلى المدينة فانتقل الإسلام
بانتقاله من السكون إلى الحركة، ومن طور الخفاء إلى طور الظهور.
لذلك كانت الهجرة مبدأ تاريخ الإسلام؛ لأنها أكبر مظهر من
مظاهره، وكانت عيداً يحتفل به المسلمون في كل عام لأنها أجمل
ذكرى للثبات على الحق والجهاد في سبيل الله.

لقد لقي ﷺ ما تركته في هجرته عناء كبيراً ومشقة عظيمة، فإن
قومه كانوا يكرهون مهاجرته لا ضناً به، بل مخافة أن يجد في
دار هجرته من الأعوان والأنصار ما لم يجد بينهم، كأنما يشعرون

(١) يقال شعث فلان من: تنقصه.

(٢) السلى الدواب بمنزلة المشيمة للإنسان.

بأنه طالب حق، وأن طالب الحق لا بد أن يجد بين المحقين أعوانا وأنصارا، فوضعوا عليه العيون والجواسيس فخرج من بينهم ليلة الهجرة متنكرا بعدما ترك في فراشه ابن عمه عليّ بن أبي طالب عليه السلام، عبثا بهم وتضليلا لهم عن اللحاق به، ومشى هو وصاحبه أبو بكر عليه السلام يتسلقان الصخور ويتسربان في الأغوار والكهوف، ويلوذان بأكناف الشباب والهضاب، حتى انقطع عنهما الطلب، وتم لهما، ما أرادا بفضل الصبر والثبات على الحق.

إن حياة النبي صلّى الله عليه وآله أعظم مثال يجب أن يحتذيه المسلمون للوصول إلى التخلق بأشرف الأخلاق والتحلي بأكرم الخصال، وأحسن مدرسة يجب أن يتعلموا فيها كيف يكون الصدق في القول والإخلاص في العمل والثبات على الرأي وسيلة إلى النجاح وكيف يكون الجهاد في سبيل الحق سببا في علوه على الباطل.

لا حاجة لنا بتاريخ حياة فلاسفة اليونان وحكماء الرومان وعلماء الإفرنج، فلدينا في تاريخنا حياة شريفة مملوءة بالجد والعمل، والصبر والثبات والحب والرحمة، والحكمة والسياسة، والشرف الحقيقي، والإنسانية الكاملة، وهي حياة نبينا صلّى الله عليه وآله، وحسبنا بها وكفى.

الإنصاف

إذا كان لك صديق تحبه وتواليه، ثم هجمت منه على ما لم يحل في نظرك، ولم يتفق مع ما علمت من حاله، وما اطرده عندك من أعماله، أو كان لك عدو تدم طباعه، وتنقم منه شئونه، ثم برقت لك من جانب أخلاقه بارقة خير فتحدثت بما قام في نفسك من مؤاخذة صديقك على الخصلة التي ذممتها وحمدت عدوك على الخلعة التي حمدتها، عدك الناس متلوناً أو مخادعاً أو ذا وجهين تمدح اليوم من تدم بالأمس، وتدم في ساعة من تمدح في أخرى، وقالوا: إنك تظهر ما لا تضر، وتخفي غير الذي تبدي، ولو أنصفوك لأعجبوا بك وبصدقك، ولأكبروا سلامة قلبك من هوى النفس وضلالها، ولسموا ما بدا لهم منك اعتدالاً لا نفاقاً، وإنصافاً لا خداعاً، لأنك لم تغل في حب صديقك غلو من يعميه الهوى عن رؤية عيوبه، ولم تتمسك من صداقته بالسبب الضعيف، فعنيت بتعهد أخلاقه، وتفقد خلاله، لإصلاح ما فسد من الأولى، واعوجج من الأخرى.

إن صديقك الذي يبسم لك في حالي رضاك وغضبك، وحلمك وجهلك، وصوابك وسقطك، ليس ممن يغتبط بمودته، أو يوثق بصداقته، لأنه لا يصلح أن يكون مرآتك التي تتراءى فيها فتكشف لك عن نفسك، وتصدقك عن زينك وشينك وحلوك ومرك، وهو إما جاهل متهور في ميوله وأهوائه، فلا يرى غير ما تريد أن ترى

نفسه، لا ما يجب أن يراه؛ وإما منافق مخادع قد علم أن هواك في الصمت عن عيوبك وتجريير الذبول، فجارك فيما تريد ليبلغ منك ما يريد.

فها أنت ذا ترى أن الناس يعكسون القضايا، ويقلبون الحقائق، فيسمون الصادق كاذبا، والكاذب صادقا؛ ولكن الناس لا يعلمون.

المدنية الغربية

سأودّع في هذه النظرة الخيال والشعر، وداع من يعلم أن الأمر أعظم شأنًا وأجل خطراً من أن يعبت فيه العابث بأمثال هذه الطرائف التي هي بالهزل أشبه منها بالجد، والتي إنما يلهو بها الكاتب في مواطن فراغه ولعبه لا في مواطن جده وعمله.

إن في أيدينا معشر الكتاب من نفوس هذه الأمة وديعة يجب علينا تعهدها والاحتفاظ بها والحدب عليها حتى نؤديها إلى أخلافنا من بعدنا، كما أداها إلينا أسلافنا سالمة غير مأروضة^(١) ولا متأكّلة، فإن فعلنا فذاك، أولاً فرحمة الله على الصدق والوفاء، وسلام على الكتاب الأمناء.

الأمة المصرية أمة مسلمة شرقية، فيجب أن يبقى لها دينها وشرقيتها ما جرى نيلها في أرضها، وذهبت أهرامها في سمائها، حتى تبدل الأرض غير الأرض والسموات.

إن خطوة واحدة يخطوها المصري إلى الغرب تدني إليه أجله، وتدنيه من مهوى سحيق يقبر فيه قبرا لا حياة له من بعده إلى يوم يبعثون.

لا يستطيع المصري وهو ذلك الضعيف المستسلم أن يكون من المدنية الغربية إن داناها إلا كالغربال من دقيق الخبز، يمسك

(١) الخشب المأروض: الذي أكلته الأرضة.

خشاره ويفلت لبابه، أو الراووق^(١) من الخمر، يحتفظ بعقاره، ويستهيئ برحيقه؛ فخير له أن يتجنبها جهده، وأن يفر منها فرار السليم من الأجر.

يريد المصري أن يقلد الغربي في نشاطه وخفته، فلا ينشط إلا في غدواته وروحاته، وقعدته وقومته، فإذا جد الجد وأراد نفسه على أن يعمل عملا من الأعمال المحتاجة إلى قليل من الصبر والجلد، دب الملل إلى نفسه دبيب الصهباء في الأعضاء والكرى بين أهذاب الجفون. يريد أن يقلده في رفاهيته ونعمته فلا يفهم منهما إلا أن الأولى التأنث في الحركات، والثانية الاختلاف إلى مواطن الفسق ومخابئ الفجور.

يريد أن يقلده في الوطنية فلا يأخذ منها إلا نعيقها ونعيبها، وضجيجها وصفيرها، فإذا قيل له: هذه المقدمات، فأين النتائج؟ أسلم رجله إلى الرياح الأربع واستن في فراره استنان المهر الأرنب^(٢) فإذا سمع صفير الصافر مات وجلا، وإذا رأى غير شيء ظنه رجلا. يريد أن يقلده في السياحة، فلا يزال يترقب فصل الصيف ترقب الأرض الميتة فصل الربيع، حتى إذا حان حينه طار إلى مدن أوروبا طيران حمام الزاجل لا يبصر شيئا مما حوله، ولا يلوي على شيء مما وراءه، حتى يقع على مجامع اللهو ومكامن الفجور، وملاعب

(١) الراووق: المصفاة.

(٢) الأرنب: النشيط.

القمار، وهناك يبذل من عقله وماله ما يعود من بعده فقير الرأس والجيب، لا يملك من الأول ما يقوده إلى طريق السفينة التي تحمله في أوبته، ولا من الثاني أكثر من الجعالة التي يجتعلها منه صاحب الجريدة ليكتب له بين حوادث صحيفته، حادثة عودته موشاة بجمل الإجلال والاحترام مطرزة بوشائج الإكرام والإعظام. يريد أن يقلده في العلم، فلا يعرف منه إلا كلمات يرددها بين شذقيه ترديدا لا يلجأ فيه إلى ركن من العلم وثيق، ولا يعتصم به من جهل شائن.

يريد أن يقلده في الإحسان والبر، فيترك جيرانه وجاراته يطوون حنايا الضلوع على أمعاء تلتهب فيها نار الجوع التهابا حتى إذا سمع دعوة إلى اكتتاب في فاجعة نزلت في القطب الشمالي أو كارثة ألت بسد يأجوج ومأجوج سجل اسمه في فاتحة الاكتتاب، ورصد هيبته في مستهل جريدة الحساب.

يريد أن يقلده في تعليم المرأة وتربيتها، فيقنعه من علمها مقالة تكتبها في جريدة أو خطبة تخطبها في محفل؛ ومن تربيتها التفنن في الأزياء، والمقدرة على استهواء النفوس، واستلاب الأبواب. هذا شأنه في الفضائل الغربية، يأخذها صورة مشوهة وقضية معكوسة لا يعرف لها مغزى، ولا ينتحي بها مقصدا، ولا يذهب فيها إلى مذهب، فيكون مثله كمثل جهلة المتدينين الذين يقلدون السلف الصالح في تطهير الثياب، وقلوبهم ملأى بالأقذار والأكدار،

ويجاريونهم في أداء صور العبادات، وإن كانوا لا ينتهون عن فحشاء ولا عن منكر، أو كمثل الذين يتشبهون بعمر في ترقيع الثياب، وإن كانوا أحرص على الدنيا من صيارفة اليهود.

أما شأنه في رذائلها فإنه أقدر الناس على أخذها كما هي، فينتحر كما ينتحر الغربي، ويلحد كما يلحد، ويستهتر في الفسوق استهتاره، ويترسم في الفجور آثاره.

إن في المصريين عيوباً جمّة في أخلاقهم وطباعهم، ومذاهبهم وعاداتهم، فإن كان لا بد لنا من الدعوة إلى إصلاحها، فلندع إلى ذلك باسم المدنية الشرقية لا باسم المدنية الغربية.

إن دعوانهم إلى الحضارة فلنضرب مثلاً بحضارة بغداد وقرطبة وثيبة وفينيقيا، لا بباريس ورومة وسويسرا ونيويورك، وإن دعوانهم إلى مكرمة، فلنقل عليهم آيات الكتب المنزلة؛ وأقوال أنبياء الشرق وحكمائه، لا آيات روسو وباكون ونيوتن وسبنسر؛ وإن دعوانهم إلى حرب، ففي تاريخ خالد بن الوليد وسعد بن أبي وقاص وموسى بن نصير، وصلاح الدين؛ ما يغنينا عن تاريخ نابليون وولنجتون وواشنطن ونلسن وبلوخر؛ وفي وقائع القادسية وعمورية وإفريقية والحروب الصليبية، ما يغنينا عن وقائع واترلو وترافلغار وأوسترليتز والسبعين.

إن عارا على التاريخ المصري أن يعرف المسلم الشرقي في مصر من تاريخ بونابرت ما لا يعرف من تاريخ عمرو بن العاص، ويحفظ

من تاريخ الجمهورية الفرنسية، ما لا يحفظ من تاريخ الرسالة
المحمدية، ومن مبادئ ديكارت وأبحاث دارون ما لا يحفظ من حكم
الغزالي وأبحاث ابن رشد، ويروي من الشعر لشكسبير وهو جو ما
لا يروي للمتنبى والمعري.

لا مانع من أن يعرب لنا العربون المفيد النافع من مؤلفات علماء
الغرب، والجيد الممتع من أدب كتابهم وشعرائهم، على أن ننظر
إليه نظر الباحث المنتقد لا الضعيف المستسلم، فلا نأخذ كل قضية
علمية قضية مسلمة، ولا نظرب لكل معنى أدبي طربا متهورا،
ولا مانع من أن ينقل إلينا الناقلون شيئا من عادات الغربيين
ومصطلحاتهم في مدنيّتهم، على أن ننظر إليه نظر من يريد التبسط
في العلم والتوسع في التجربة والاختبار، لا على أن نقلدها ونقلدها
وننتحلها ونتخذها قاعدتنا في استحسان ما نستحسن من شئوننا،
واستهجان ما نستهجى من عاداتنا.

وبعد. فليعلم كتاب هذه الأمة وقادتها: أنه ليس في عادات
الغربيين وأخلاقهم الشخصية الخاصة بهم ما نحسداهم عليه كثيرا.
فلا يخدعوا أمتهم عن نفسها، ولا يفسدوا دينها وشرقيتها،
ولا يزينوا لها تلك المدنية تزينا يرزوها في استقلالها النفسي،
بعدها رزاتها السياسة في استقلالها الشخصي.

يوم الحساب

سأهت الكوكب ليلة أمس حتى ملني ومللته وضاق كل منا
بصاحبه ذرعا، وقد وقف الهم بيني وبين الكرى أجذبه فيدفعه،
وأدنيه فيبعده، حتى أسلس قياده، وسكن جماعه.

لم تخالط جفني سنة الكرى حتى خيل إليّ أني قد انتقلت من
العالم الأول إلى العالم الثاني، ورأيت كأني بعثت بعد الموت وكأن
أبناء آدم مجتمعون في صعيد واحد يحاسبون على أعمالهم، فألهمت
أنه موقف الحشر؛ وأنه يوم الحساب.

أنشأت أمشي مشية الحائر الذاهل لا أعرف لي مذهبا ولا
مضطربا، ولا أجد من يأخذ بيدي ويدلني على نفسي في هذا
الموقف الذي ينشد فيه كل ذي نفس نفسه، فلا يجد إليها سبيلا،
فطفقت أتصفح وجوه الواقفين، وأقلب النظر في الغادين والرائحين؛
علني أجد صديقا أستاذنس به في وحدتي؛ وأستعين بمرافقته على
وحشتي، فلا أرى إلا خلقا غريبا، ومنظرا عجيبا، ووجوها ما
رأيت لها في حياتي شبيها ولا ضربا، ولولا أني أعلم أن الحساب
خاص بالإنسان لظننت أن الله يحاسب في هذا الموقف جميع أنواع
الحيوان.

هناك وقد بلغ اليأس والهم مبلغهما من نفسي رأيت على البعد
وجها يبتسم لي ويدنو مني رويدا رويدا؛ فأرقلت نحوه حتى

بلغته فإذا صديقي «فلان» وإذا وجهه يتلألأ تالؤلؤ الكوكب في علياء السماء؛ فسألته ما فعل الله به؟ فقال حاسبني حسابا يسيرا ثم غفر لي، هأنذا ذاهب إلى ما أعد الله لعباده الصالحين في جنته من النعيم المقيم، فعجبت لشأنه وقلت في نفسي: لقد هان أمر الحساب على كل عاص بعدما هان على هذا الذي كنت أعرفه في أولاه: لا يتقي مأثما، ولا يهاب منكرا؛ ولا يخرج من حان إلا إلى حان، ولا يودع مجمعا من مجامع الفسق إلا على موعد من اللقاء، فنظر إليّ نظرة العاتب اللائم وابتسم ابتسامة علمت منها أن الرجل قد ألم بما أضمرته في نفسي، فذكرت أن قد كشف الغطاء في هذه الدار؛ وأن قد رفع الحجاب بين الناس: فلا سر ولا جهر، ولا بطن ولا ظهر، ولا فرق بين حركات اللسان وخطرات الجنان، نظر إليّ تلك النظرة وقال: لا تعجب لأمر في هذه الدار فكل ما فيها عجيب، واعلم أن الله حاسبني على كل ما كنت أجترح من الآثام في الدار الأولى، إلا أنه وجد لي في جريدة حسناتي حسنة ذهبت بجميع السيئات: ذلك أنه كان لي جار من ذوي النعمة والثراء والصلاح والخير والمروءة والبر، نكبه دهره نكبة ذهبت بماله، فأهمّني أمره وأزعجني أن أراه في مستقبل أيامه بائسا معدما، يريق ماء وجهه على أعتاب الذين كان يسدي إليهم نعمته، فاحتلت على أن أدخل في بيته خادما كانت في بيتي، وجعلت لها جعلاً على أن تدس في كيس دراهمه كل ليلة خمسة دنانير من حيث لا يشعر بمأثما،

ولا يقف على سرها؛ وما زال هذا شأني وشأنه، لا يعلم من أين يأتيه رزقه، ولا يشعر أحد من الناس باستحالة حاله، وذهاب ماله، حتى فرّق الموت بيني وبينه، فما نفعتني عمل من أعمالي ما نفعتني هذا العمل، وما كان الإحسان وحده سبب سعادتي؛ بل كان سببها أنه أصاب الموضوع وخلص من شائبة الرياء. فهنأتة بنعمة الله عليه وشكوت إليه وحشتي من الوحدة وخوفي من المحاسبة. فقال: أما الوحشة فلن أفارقك حتى يأتي دورك، وأما الخوف فلا حيلة لي ولا لأحد من الناس في نقض ما أبرم الله في شأنك، فقلت: أنت من السعداء؛ فهل تستطيع أن تشفع لي أو تطلب لي شفاعاً من ولي من الأولياء أو نبي من الأنبياء؟ قال: لا تطلب المحال، ولا تصدق كل ما يقال، فقد كنا مخدوعين في الدار الأولى بتلك الآمال الكاذبة التي كان يبيعها منا تجار الدين بثمان غال ولا يتقون الله في غشنا وخداعنا؛ وما الشفاعة إلا مظهر من مظاهر الإكرام والتبجيل يختص به الله بعض عباده المقربين؛ فلا يشفع عنده أحد إلا بإذنه، ولا يأذن بالشفاعة لأحد إلا إذا كان بين أعمال المشفوع له أو في أعماق سريره ما يقتضي إثارة بالمغفرة على غيره من العصاة والمذنبين، والله سبحانه وتعالى أجل من العبث وأرفع من المحاباة.

وما وصل من حديثه إلى هذا الحد حتى رأينا كوكبة من ملائكة العذاب تحيط برجل يساق إلى النار، ورأينا في يد كل واحد منهم مقرعة من الحديد يقرع بها رأسه، وهو يصرخ ويقول: «أهلكتني

يا أبا حنيفة» فسألت صاحبي: ما ذنب الرجل؟ فقال: إنه كان في حياته يتخذ في أعماله ما يسمونه «الحيل الشرعية» فكان يهب ماله لأحد أولاده على نية استرداده قبل أن يحول عليه الحول، ليتخلص من فريضة الزكاة، ويطلق زوجته ثلاثاً، ثم يأتي بمحلل يحللها له فيعود إلى معاشرتها؛ وكان يرابي باسم الرهن، فإذا جاءه من يريد أن يقترض منه مالا أبى أن يقرضه إلا إذا وضع في يده رهناً، فإذا وضع يده على ضيعته ألزمه أن يستأجرها منه بمال كثير يراعي فيه النسبة التي يراعيها المرابون بين الربح وأصل المال؛ وكان إذا حلف لا يدخل بيتاً دخله من نافذته، أو لا يأكل رغيفاً أكله إلا لقمة منه، فذنبه أنه كان يعمد إلى الأحكام الشرعية فينتزع منها حكمها وأسرارها، ثم يرفعها إلى الله قشوراً جوفاء ليخدعه بها ويغشه فيها كما يفعل مع الأطفال والبله، مستنداً على تقليد أبي حنيفة أو غيره من كبار الأئمة، وأبو حنيفة أرفع قدراً وأهدى بصيرة، من أن يتخذ الله هزوا وسخرية، وأن يكون ممن يهدمون الدين باسم الدين.

وما انقطع عنا صوت هذا الشقي، حتى رأينا شقياً آخر ذا لحية طويلة كثة، قد أحاط به ملكان وشدا عنقه بسبحة طويلة ذات حبات كبيرة، وقد أخذ كل منهما بطرف منها، وهو يهمهم بكلمات مبهمه فيقرعه أحدهما على رأسه ويقول له: «أمكر وأنت في الحديد؟!» فدنوت منه وأنعمت النظر في وجهه فعرفته،

فتراجعت ذعرا وخوفا وصحت أيقون هذا من أشقياء الآخرة، وقد كان بالأمس من أقطاب الأولى! فقال لي صاحبي: إن هذا الذي كنت تحسبه في أولاه من الأقطاب كان أكبر تاجر من تجار الدين، وما هذه اللحية والسبحة والهمهمة إلا حبال كان ينصبها لاصطياد عقول الناس وأموالهم، ولكن الناس لا يعلمون.

وما زال المنصرفون من موقف القضاء يمرون بنا: هذا إلى جنته، وذلك إلى ناره، وأنا أسأل عن شأن كل منهم واحدا فواحدا فأرى سعيدا من كنت أحسبه شقيا، وشفيا من كنت أحسبه سعيدا، فسجلت أن الله سبحانه وتعالى يحاسب الناس على قلوبهم، لا على جوارحهم، ويسألهم عن نياتهم، لا عن أفعالهم، وأن لا سعادة إلا الصدق، ولا شقاء إلا الكذب، وعلمت أن الله لا يغفر من السيئات إلا ما كان هفوة من الهفوات، يلم بها صاحبها إماما، ثم يندم عليها، ورأيت أن أكبر ما يعاقب الله عليه جناية المرء على أخيه بسفك دمه أو هتك عرضه أو سلب ماله، وأن أضعف الوسائل إلى الله ذلك الركوع والسجود، والقيام والقعود، فلو أن امرأ قضى حياته بين ليل قائم، ونهار صائم، ثم ظلم طفلا صغيرا في لقمة يختطفها من يده لاستحالت حسناته إلى سيئات، وما أغنى عنه نسكه من الله شيئا.

وبينما أنا أحدث نفسي بهذا الحديث، وأقلب النظر في وجوه تلك المواظ والعبر، إذ قال لي صاحبي: أتعرف هذين؟ وأشار إلى رجلين واقفين ناحية يتناجيان: أحدهما شيخ جليل أبيض اللحية،

وثانيهما كهل نحيف قد اختلط مبيضه بمسوده؛ فما هي إلا النظرة الأولى حتى عرفت الرجلين العظيمين رجل الإسلام «محمد عبده» ورجل المرأة «قاسم أمين» فقلت لصاحبي: هل لك في أن ندنو منهما ونسترق نجواهما من حيث لا يشعرا؟ ففعلنا؛ فسمعنا الأول يقول للثاني: ليتك يا قاسم أخذت برأيي وأحللت نصحي لك محلا من نفسك فقد كنت أنهاك أن تفاجئ المرأة المصرية برأيك في الحجاب قبل أن تأخذ له عدته من الأدب والدين فجنى كتابك عليها ما جناه من هتك حرمتها وفسادها وتبذلها وإراقة تلك البقية الصالحة التي كانت في وجهها من ماء الحياء؛ فقال له صاحبه: إني أشرت عليها أن تتعلم قبل أن تسفر، وألا ترفع برقعها قبل أن تنسج لها برقعا من الأدب والحياء؛ قال له: ولكن قد فاتك ما كنت تنبأت لك به من أنها جاهلة لا تفهم هذا التفصيل، وضعيفة لا تعبأ بهذا الاستثناء، فكنت كمن أعطى الجاهل سيفاً ليقتل به غيره فقتل نفسه، فقال: أتأذن لي يا مولاي أن أقول لك: إنك قد وقعت في مثل ما وقعت فيه من الخطأ، وإنك نصحتني بما لم تنتصح به، أنا أردت أن أنصح المرأة فأفسدتها كما تقول. وأنت أردت أن تحيي الإسلام فقتلته؛ إنك فاجأت جهلة المسلمين بما لا يفهمون من الآراء الدينية الصحيحة والمقاصد العالية الشريفة فأرادوا غير ما أردت؛ وفهموا غير ما فهمت. فأصبحوا ملحدين، بعد أن كانوا مخرفين، وأنت تعلم أن ديننا خرافيا خير من لا دين. أولت لهم بعض آيات الكتاب فاتخذوا التأويل قاعدة حتى أولوا الملك والشيطان والجنة والنار!

وبيّنت لهم حكم العبادات وأسرارها وسفّهت لهم رأيهم في الأخذ بقشورها دون لبابها، فتركوها جملة واحدة وقلت لهم: إن الولي إله باطل، والله إله حق؛ فأنكروا الألوهية حقها وباطلها؛ فتهل وجه الشيخ وقال له: ما زلت يا قاسم في أخراك، مثلك في دنياك، لا تضطرب في حجة، ولا تنام عن ثأر، لا تحمل هما، ولا تخش شرا، وثق أن الله سيحاسبنا على نياتنا وسرائرنا، ويعفو عن هفواتنا وسقطاتنا، إنّنا ما أردنا إلا الخير لأمتنا، وما قدرنا لها في مستقبلها إلا ما تحتمله عقولنا، فإن كذبت فراستنا أو أخطأ تقديرنا فذلك لأن المستقبل بيد الله.

وما وصلا من حديثهما إلى هذا الحد حتى تركا مكانهما، وذهبا لشأنهما؛ فقلت لصاحبي: هل لك أن تريني الميزان والصراف والجنة والنار، فإني ما زلت في شوق إلى رؤية تلك الأشياء ورؤية مواقعها منذ رأيتهما في «خريطة الآخرة» التي رسمها الشعراني في بعض كتبه، قال: أما الميزان فتقدير الأعمال والموازنة بين الحسنات والسيئات، وأما الصراف فهو سبيل الإنسان إلى سعادته أو شقائه، وأما الجنة والنار فلا علم لي حتى الساعة بهما.

وبينا أنا كذلك إذ سمعت صوتا صارخا ما قرع سمعي في حياتي مثله يناديني باسمي، فعلمت أن قد جاء دوري، فأدركني من الهول والرعب ما أيقظني من نومي، فاستيقظت فلم أر حسابا ولا عقابا ولا موقفا ولا محشرا، فعلمت أنها خيالات وأوهام، أو أضغاث أحلام، وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين.

الشعرة البيضاء

مررت صباح اليوم أمام المرأة، فلمحت في رأسي شعرة بيضاء،
تلمع في تلك اللمة السوداء لمعان شرارة البرق في الليلة الظلماء.
رأيت الشعرة البيضاء في مفريقي^(١) فارتعت لمرآها كأنما خيل إليّ
أنها سيف جرده القضاء على رأسي، أو علم أبيض يحمله رسول
جاء من عالم الغيب يذرني باقتراب الأجل، أو يأس قاتل عرض
دون الأمل، أو جذوة نار علقت بأهداب حياتي علوقها بالحطب
الجزل، ولا بد لها مهما ترفقت في مشيتها واتادت في مسيرها
من أن تبلى مداها، أو خيط من خيوط الكفن الذي تنسجه يد الدهر
وتعده لباساً لجنتي عندما تجردها من لباسها يد الغاسل.
أيتها الشعرة البيضاء! ما رأيت بياضاً أشبه بالسواد من بياضك،
ولا نوراً أقرب إلى الظلمة من نورك، لقد أبغضت من أجلك كل بياض
حتى بياض القمر، وكل نور حتى نور البصر وأحببت فيك كل سواد
حتى سواد الغربان وكل ظلام حتى ظلام الوجدان.
أيتها الشعرة البيضاء! ليت شعري! من أي نافذة خلصت إلى
رأسي؟ وفي أي مسلك من مسالك الدهر مشيت إلى فودي؟
كيف طاب لك المقام في هذه الأرض الموحشة التي لا تجدين فيها

(١) الفرق: موضع افتراق الشعر.

أنيسا يسامرك، ولا جليسا يساهرك؟ وكيف لم يرع قلبك لمنظر هذا الليل الفاحم ولم يعش بصرك في هذا الظلام القاتم. أيتها الشعرة البيضاء! لقد عييت بأمرك، وبعلت^(١) بحملك، وأصبحت لا أعرف وجه الحيلة في البعد عنك، والفرار من وجهك، لا ينفعني معك أن أنزعك من مكانك، لأنك لا تلبثين أن تعودتي إليه، ولا ينقذني منك أن أخضبك بالسواد، لأنك لا تلبثين أن تنصلي^(٢) ولأني لا أحب أن أجمع على نفسي بين مصيبتين: مصيبة الشيب ومصيبة الكذب.

أيتها الشعرة البيضاء! يخيل إليّ وأنا أنظر إليك أنك من ذوات الحيلة والدهاء والكيد والخبث، وأنك تهمسين في آذان أخواتك السود اللواتي بجانبك تحاولين إغراءهن بالتشبه بك، والتردي بردائك، وكأنني بك.. وقد أشعلت في هذه البيئة الهادئة المطمئنة حربا شعواء، وفتنة عمياء، يختلط فيها الرامح بالنابل^(٣) والدارع بالحاسر^(٤) ويهلك فيها القاعد والقائم، والمظلوم والظالم.

إن كان هذا مصيرك فسيكون شأنك شأن ذلك السائح الأبيض، الذي ينزل بأمة الزنج مستكشفا، فيصبح مستعمرا، ويدخل أرضها سلما ويفارقها حربا، فأسأل الله لرأسي العافية منك، ولأمة الزنج

(١) بعل الشيء: برم به واستثقله.

(٢) نصل الشعر: خرج من الخضاب.

(٣) الرامح: حامل الرمح، والنابل: ذو النبل.

(٤) الدارع: لابس الدرع، والحاسر خالفه.

السلامة من صاحبك، فكلكما مشئوم الطلعة في مقامه وارتحاله،
وكوكب النحاس في وقوفه وتسياره.

أيتها الشعرة البيضاء! ما أنت وما شأنك؟ وما وفودك إليّ؟ وما
مكانك مني؟ ومقامك عندي؟ إن كنت ضيفا، فأين استئذان الضيف
وتلطفه، وتجمُّله وتؤدده، وإن كنت نذيرا فأنا أعلم من الموت وشأنه
ما لا أحتاج معه إلى نذير، فلم يبق إلا أن تكوني أوقح الخلائق وجها؛
وأصلبها خدا، وأنت قد نزلت من السماجة والفضول منزلة لا أرى
لك فيها شبيها إلا تلك الحية التي تلج كل جحر من أجحار الهوام
والحشرات تعدّه جحرها، وتحسبه بيتها.

أبلغ بك الشأن وأنت التي يضربون الأمثال بدقتها وخفائها،
ويبعثون الملاقط والمقاريض وراءها، فلا يكادون يعرفون السبيل
إلى مدارجها ومكانها أن تملئي من الرعب قلبا لا يروعه السيف
المجرد، ولا السهم المسدد؟

لا لا، ما دُعرت ولا ارتعت. وما حزننت ولا بكيت. وإنما هي
خطرة من خطرات الأمل الكاذب. ولمحة من لمحات البرق الخالب.
أيتها الشعرة البيضاء! هل لك أن تتجاوزي عما أسأت به إليك في
إطالة عتبك، واستثقال ظلك؟ فلقد رجعت إلى نفسي فعلمت أنك أكرم
الخلائق عندي، وأعظمها في عيني.

هنيئا لك رأسي مصيفا ومرتعا، وهنيئا لك فودي مرادا ومسرحا،
فأنت رسول الموت الذي ما زلت أطلبه مذ عرفته فلا أجد له سبيلا،
ولا أعرف له رسولا.

ما الذي يحمله في صدره لك من الحقد والموجدة رجل لم ينعم
بشبابه، فيحزن على زهابه؛ ولم يذق حلاوة الحياة، فيجزع لمرارة
المات، ولم يستنشق نسمات السعادة غصنا رطبا؛ فيأسى عليها
عودا يابسا.

ما الذي ينقمه منك من الشؤون رجل يعلم أنك وحي الأمل الذي
يبشره بقرب النجاة من حياة ليس فيها من السعادة والهناء.. إلا
لحظات قليلة يكدرها ما يحيط بها من الهموم والأحزان.. كما تكدر
أنفاس الحزن الحارة صفحة المرأة.

أليس كل ما أعده عليك من الذنوب أنك طليعة الموت، والموت
هو الذي يخلصني من منظر هذا العالم المملوء بالشور والآثام،
الحافل بالآلام والأسقام الذي لا أغمض عيني فيه إلا لأفتحها على
صديق يغدر بصديقه، وأخ يخون أخاه، وعشير يحدد أنيابه لمضغ
عشيره، وغني يضن على الفقير بفتات مائدته، وفقير يقترح على
الدهر حتى بلغة الموت فلا يظفر بأمنيته، ومملك لا يفرق بين رعيته
وماشيته، ومملوك لا يميز بين ملك الملك وربوبيته، وقلوب تضطرم
حقدا على غير طائل، ونفوس تتفانى قتلا على لون حائل، وظل
زائل، وغرض باطل، وعقول تتهالك وجدا على نار تحرقها وأنياب
تمزقها، وعيون حائرة في رؤوس طائرة، تنظر ولا ترى شيئا مما
حولها، وتلمع ولا تكاد تبصر ما أمامها؛ إن كان هذا هو ذنبك
عندي فاستكثري من ذنوبك، فإني لك من الغافرين.

أيتها الشعرة البيضاء! مرحبا بك اليوم، ومرحبا بأخواتك
غدا.. ومرحبا بهذا القضاء المختبئ وراءك أو الكامن في أطوائك،
ومرحبا بتلك الغرفة التي أخلو فيها بربي، وآنس بنفسي، من
حيث لا أسمع حتى دوي المدافع، ولا أرى حتى غبار الوقائع.
أهلا بوافدة للشيب واحدة وإن تراءت بشكل غير مودود

الصيد

حدّث أحد الأصدقاء قال: بينما أنا في منزلي صبيحة يوم إن دخل عليّ رجل صياد يحمل في شبكة فوق عاتقه سمكة كبيرة فعرضها عليّ فلم أساومه فيها بل نقدته الثمن الذي أراده، فأخذه شاكرا متهلا وقال: هذه هي المرة الأولى التي أخذت فيها الثمن الذي اقترحتّه، أحسن الله إليك كما أحسنت إليّ وجعلك سعيدا في نفسك كما جعلك سعيدا في مالك؛ فسررت بهذه الدعوة كثيرا وطمعت أن تفتح لها أبواب السماء المغلقة دوني، وعجبت أن يهتدي شيخ عامي إلى معرفة حقيقة لا يعرفها إلا القليل من الخاصة، وهي أن للسعادة النفسية شأنًا غير شأن السعادة المالية، فقلت له: يا شيخ، وهل توجد سعادة غير سعادة المال؟ فابتسم ابتسامة هادئة مؤثرة وقال: لو كانت السعادة سعادة المال لكنت أنا أشقى الناس، لأنني أفقر الناس، قلت: هل تعد نفسك سعيدا؟ قال: نعم، لأنني قانع برزقي مغتبط ببعيши، لا أحزن على فائت من العيش، ولا تذهب نفسي حسرة وراء مطمع من المطامع، فمن أي باب يخلص الشقاء إلى قلبي؟ قلت: أيها الرجل، أين يذهب بك؟ وما أرى إلا أنك شيخ قد اختلس عقله، كيف تعد نفسك سعيدا وأنت حاف غير منتعل، وعار إلا قليلا من الأسماك البالية، والأطمار السحيقة؟ قال: إن كانت السعادة لذة النفس وراحتها، وكان الشقاء ألمها وعناءها،

فأنا سعيد؛ لأنني لا أجد في رثاثة ملبسي، ولا في خشونة عيشي، ما يولد لي ألماً، أو يسبب لي همًا، وإن كانت السعادة عندكم أمراً وراء ذلك، فأنا لا أفهمها إلا كذلك؛ قلت: ألا يحزنك النظر إلى الأغنياء في أثاثهم ورياشهم، وقصورهم ومراكبهم، وخدمهم وخيولهم، ومطعمهم ومشربهم؟ ألا يحزنك هذا الفرق العظيم بين حالتك وحالتهم؟ قال: إنما يصغر جميع هذه المناظر في عيني ويهونها عندي أنني لا أجد أن أصحابها قد نالوا من السعادة بوجدانها أكثر مما نلته بفقدانها.

هذه المطاعم التي تذكرها إن كان الغرض منها الامتلاء فأنا لا أذكر أنني بت ليلة في حياتي جائعاً، وإن كان الغرض منها قضاء شهوة النفس فأنا لا أكل إلا إذا جعت؛ فأجد لكل ما يدخل جوفي لذة لا أحسب أن في شهوات الطعام ما يفضلها؛ أما القصور فإن لديّ كوخاً صغيراً لا أشعر بأنه يضيق بي وبزوجتي وولدي فأقرع السن على أن لم يكن قصراً كبيراً؛ وإن كان لا بد من إمتاع النظر بالمناظر الجميلة، فحسبي أن أحمل شبكتي على عاتقي كل مطلع فجر وأذهب بها إلى شاطئ النهر فأرى منظر السماء والماء، والأشعة البيضاء، والمروج الخضراء، فما هي إلا لفظة الجيد حتى يطلع من ناحية الشرق قرص الشمس كأنه مجن من ذهب أو قطعة من لهب، فلا يبعد عن خط الأفق ميلاً أو ميلين حتى ينثر فوق سطح النهر حليه المتكسر، أو دره المتحدر، فإذا تجلى هذا المنظر أمام عيني

يتخلله سكون الطبيعة وهدوؤها، ملك عليّ شعوري ووجداني،
فاستغرقت فيه استغراق النائم في الأحلام اللذيذة، حتى لا أحب أن
أعود إلى نفسي إلى يوم النشور، ولا أزال هكذا هائما في أحلامي حتى
أشعر بجذبة قوية في يدي، فأنتبه فإذا السمك في الشبكة يضطرب،
وما اضطرابه إلا أنه فارق الفضاء الذي كان يهيم فيه مطلق السراح،
وبات في المحبس الذي لا يجد فيه مراحا ولا مضطربا، فلا أجد له
شبيها في حالتيه إلا الفقراء والأغنياء. يمشي الفقير كما يشتهي
ويتنقل حيث يريد كأنما هو الطائر الذي لا يقع إلا حيث يطيب له
التغريد والتنقير، ولولا أن تتخطاه العيون وتنبو عنه النواظر ما
طار في كل فضاء؛ ولا تنقل حيث يشاء، أما الغني فلا يتحرك ولا
يسكن إلا وعليه من الأحداق نطاق، ومن الأرصاد أغلال وأطواق، ولا
يخرج من منزله إلا إذا وقف أمام المرأة ساعة يؤلف فيها من حقيقته
وخياله ناظرا ومنظورا، ثم يطيل التفكير: هل يقع المنظور من الناظر
موقعا حسنا؟ حتى إذا استوثق لنفسه بذلك خرج إلى الناس يمشي
بينهم مشية يحرص فيها على الصورة الذي استقر رأيه عليها، فلا
يطلق لجسمه الحرية في الحركة والالتفات، حتى لا يخرج بذلك
من حكمها؛ ولا لفكره الحرية في النظر والاعتبار بمشاهد الكون
وآياته، مخافة أن يغفل عن إشارات السلام، ومظاهر الإكرام.
فإذا أخذت من السمك كفاف يومي عدت به وبعته في الأسواق
أو على أبواب المنازل، فإذا أدبر النهار عدت إلى منزلي، فيعتنقني

ولدي وتبش في وجهي زوجتي، فإذا قضيت بالسعي حق عيالي وبالصلاة حق ربي نمت في فراشي نومة هادئة مطمئنة، لا أحتاج معها إلى ديباج وحرير أو مهد وثير، فهل أستطيع أن أعد نفسي شقيا، وأنا أروح الناس بالا، وإن كنت أقلهم مالا؟

لا فرق بيني وبين الغني، إلا أن الناس لا ينهضون إجلالا لي إذا رأوني، ولا يمدون أعناقهم نحوي إذا مررت بهم، وأهون به من فرق لا قيمة له عندي، ولا أثر له في نفسي، وما يعنيني من أمرهم إن قاموا أو قعدوا، أو طاروا في الهواء، أو غاصوا في أعماق الماء، ما دمت لا علاقة بيني وبينهم، وما دمت لا أنظر إليهم إلا بالعين التي ينظر بها الإنسان إلى الصور المتحركة.

لا علاقة بيني وبين أحد في هذا العالم إلا تلك العلاقة التي بيني وبين ربي فأنا أعبدته حق عبادته وأخلص في توحيده، فلا أعتقد ربوبية أحد سواه، ولا أكتمك يا سيدي أنني لا أستطيع الجمع بين توحيد الله والاعتراف بالعظمة لأحد من الناس، ولقد أخذ هذا اليقين مكانه من قلبي، حتى لو طلع عليّ الملك المتوج في مواكبه وكواكبه، وراياته وأعلامه، لما خفق له قلبي خفقة الرهبة والخشية، ولا شغل من نفسي مكانا أكثر مما يشغله ملك التمثيل.

ولقد كان هذا اليقين أكبر سبب في عزائي وراحة نفسي من الهموم والأحزان؛ فما نزلت بي ضائقة ولا هبت عليّ عاصفة من عواصف هذا الكون إلا انتزعني من بين مخالبيها وهونها عليّ؛ حتى لا أكاد

أشعر بوقعها؛ وكيف أتألم لمصاب أعلم حق العلم أنه مقدور لا مفر منه، وأنني مأجور عليه على قدر احتمالي إياه، وسكوني إليه؟
آمنت بالقضاء والقدر خيره وشره؛ وباليوم الآخر ثوابه وعقابه؛ فصغرت الدنيا في عيني، وصغر شأنها عندي حتى ما أفرح بخيرها، ولا أحزن لشرها، ولا أعول على شأن من شئونها حتى شأن الحياة فيها؛ وأقسم ما خرجت مرة إلى ضفة النهر حاملا شبيكتي فوق عاتقي إلا وقع الشك في نفسي: هل أعود إلى منزلي حاملا أو محمولا؟ ما العالم إلا بحر زاهر، وما الناس إلا أسماك المائجة فيه. وما ريب المنون إلا صياد يحمل شبكته كل يوم ويلقيها في ذلك البحر فتمسك ما تمسك وتترك ما تترك، وما ينجو من شبكته اليوم لا ينجو منها غدا، فكيف أغتبط بما لا أملك، أو أعتد على غير معتمد، إذن أنا أضل الناس عقلا وأضعفهم إيمانا!

قال المحدث: فأكبرت الرجل في نفسي كل الإكبار، وأعجبت بصفاء ذهنه وذكاء قلبه وحسدته على قناعته واقتناعه بسعادة نفسه. وقلت له: يا شيخ، إن الناس جميعا يبكون على السعادة ويفتشون عنها فلا يجدونها. فاستقر رأيهم على أن الشقاء لازم من لوازم الحياة لا ينفك عنها، فكيف تعد العالم سعيدا وما هو إلا شقاء؟ قال: لا يا سيدي، إن الإنسان سعيد بفطرته، وإنما هو الذي يجلب بنفسه الشقاء إلى نفسه، يشتد طمعه في المال فيتعذر عليه مطعمه، فيطول بكاؤه وعناؤه، ويعتقد أن بلوغ الآمال في هذه

الحياة حق من حقوقه، فإذا أخطأ سهمه والتوى عليه غرضه، أن وشكا شكاة المظلوم من الظالم؛ ويبالغ في حسن ظنه بالأيام، فإذا غدرت به في محبوب لديه من مال أو ولد، فاجأه من ذلك ما لم يكن يقدر وقوعه فناله من الهم والألم ما لم يكن ليناله لو خبر الدهر، وقتل الأيام علما وتجربة وعرف أن جميع ما في يد الإنسان عارية مستردة، ووديعه موقوتة، وأن هذا الامتلاك الذي يزعمه الناس لأنفسهم خدعة من خدع النفوس الضعيفة ووهم من أوهامها.. إن أكثر ما يصيب الناس من شقوة إنما يأتي من طريق الأخلاق الباطنة، لا من طريق الوقائع الظاهرة، فالحاسد يتألم كلما وقع نظره على محسود؛ والحقود يتألم كلما تذكر أنه عاجز عن الانتقام من عدوه، والطماع يتألم كلما ناجته بالإثم سريرته؛ والظالم يتألم كلما سمع ابتهاج المظلوم بالدعاء عليه، أو حاقت به عاقبة ظلمه؛ وكذلك شأن الكاذب والنمام والمغتتاب، وكل من تشتمل نفسه على رذيلة من الرذائل.

من أراد أن يطلب السعادة فليطلبها بين جوانب النفس الفاضلة، وإلا فهو أشقى العالمين؛ وإن أحرز ذخائر الأرض وخزائن السماء. قال الصديق: فما وصل الصياد من حديثه إلى هذا الحد حتى نهض قائما وتناول عصاه وقال: أستودعك الله يا سيدي وأدعو لك الدعوة التي أحببتها لنفسك وأحببتها لك، وهي: أن يجعلك الله سعيدا في نفسك كما جعلك سعيدا في مالك... والسلام عليك ورحمة الله.

الانتحار

في كل موسم من مواسم الامتحان المدرسي نسمع بكثير من حوادث الانتحار بين المتخلفين من التلاميذ والراسبين، ولو رُبِّي التلميذ تربية دينية لما هان عليه أن يخسر سعادته الأخروية خسرانا مبينا أسفا على أن لم ينل كل حظه من السعادة الدنيوية، ولو رُبِّي تربية أدبية لما احتقر حياته الثمينة وازدراها ولوى وجهه عنها لأنها لم تقدم إليه في لفافة الشهادة المدرسية، ولو أن أستاذه ملأ قلبه بنور الإيمان ولقنه فيما يلقنه من قواعد الدين وأحكامه: أن جناية المرء على نفسه أكبر إثما عند الله وأعظم جرما من جنايته على غيره، لما خاطر بدينه في آخر ساعة من ساعات حياته، وهي الساعة التي ينيب فيها العاصي إلى ربه، ويستغفر فيها المذنب من ذنبه. ولو أنه لقنه فيما يلقنه من دروس الأخلاق والآداب أن العلم صفة من صفات الكمال لا سلعة من سلع التجارة يجب أن ينظر إليه طالبه من حيث ذاته؛ لا من حيث كونه وسيلة من وسائل العيش، لما جرى على القاعدة الفاسدة «الشهادة بلا علم خير من العلم بلا شهادة» ولو أنه رباه على الاستقلال الذاتي وعلمه أن الشرف في هذه الحياة على قدر ما يبذل الإنسان من الجهد في خدمة الأمة أو المجتمع سواء أكان في قصر الملك أم في دار الوزارة، وفي حانوت التجارة أم في معمل الصناعة، لما أكبر مناصب الحكومة هذا الإكبار، ولا احتفل بها

احتفال من لا يرى للحياة معنى بدونها، ولو أنه نفث في روعه روح الشجاعة النفسية وعوده الصبر والجلد في مواقف الشدة والبلاء، لما جزع هذا الجزع الفاضح، ولا جن هذا الجنون الذي خُيل إليه أن عذاب النزع أهون من عذاب الهم.

لا يجني الطالب على نفسه؛ وإنما يجني عليه والده وأستاذه والمجتمع الذي يعيش فيه.

أما الوالد فإنه يقول له وهو ذاهب به إلى المدرسة: ستكون غدا يا بني مديرا كهذا المدير، ووزيرا كهذا الوزير؛ وكلما أراد أن يحضه على الاجتهاد في طلب العلم ويخوفه عاقبة فشله في الامتحان صوّر له المستقبل المجرد من الوظيفة أقبح تصوير وأشنعه؛ وربما أشار عليه بالانتحار من طرف خفي، فيقول له: إذا لم تنجح في الامتحان فموتك أفضل من حياتك، أما الأستاذ فإنه يضرب له من نفسه مثلا على وجوب احترام المنصب وإجلاله وإنزاله المنزلة الأولى بين أعمال المجتمع الإنساني، إذ يراه بعينه يتجرع مرارة الذل، ويعاني من كبرياء رؤسائه وقسوة المسيطرين عليه عناءً شديداً؛ ويحتمل من ذلك ما لا يحتمله الرجل الشريف، حرصاً على منصبه وإرعاء عليه. فكأنما يلقي عليه درسا عمليا موضوعه «إن من يخاطر بمنصبه يخاطر بحياته، لأن المنصب كل شيء في هذه الحياة»؛ أما المجتمع فإنه يحترم الموظف الصغير، أكثر مما يحترم العالم الكبير، ويطير إلى تهنئته بإقبال المنصب عليه وتعزيتة يوم إداره

عنه؛ كأن الكوكب لا يدور إلا في دائرة المناصب نحوسا وسعودا؛
فإذا رأى الناشئ ذلك أكبر الوظيفة أيما إكبار؛ ولج به الحرص
عليها والتصق بها وكان سروره وحزنه على قدر قربها منه، أو
بعدها عنه؛ فإذا وُفق إليها لطم بأنفه قبة السماء. وداس بنعله هام
الجوزاء، وإن يئس منها قتل نفسه وهو يتمثل بقول ذلك الشاعر
الأحمق:

﴿فإما الثريا وإما الثرى﴾

أيها الناشئ: لقد جهل أبوك، وغشك أستاذك، وخدعك هذا
المجتمع الفاسد، فكن أحسن حالا منهم، واعلم أن شرف العلم
أكبر من شرف المنصب. وأن المنصب ما كان شريفاً إلا لأنه حسنة من
حسنات العلم، وأثر من آثاره، فإن فاتك حظك منه فلا تحفل به،
فهو أحقر من أن تشتد في أثره، أو تبذل حياتك وجداً عليه، ولا
تحسد أرباب المناصب على مناصبهم؛ فإنما هم يخدعونك بزخرف
من القول، وظاهر من النعمة، وبهرج من الابتسام؛ ووراء ذلك لو
علمت قلب يقطر دما، وفؤاد يضطرم لوعة وأسى.
خذ لنفسك حظها من العلم والأدب، ولا تحفل بعد ذلك بشيء
فقد ربحت كل شيء.

الجمال

الجمال هو التناسب بين أجزاء الهيئات المركبة، سواء أكان ذلك في الماديات أم في المعقولات، وفي الحقائق أم الخيالات. ما كان الوجه الجميل جميلا إلا للتناسب بين أجزائه، وما كان الصوت الجميل جميلا إلا للتناسب بين نغماته، ولولا التناسب بين حبات العقد ما افتتنت به الحسناء، ولولا التناسق في أزهار الروض ما هام به الشعراء.

ليس للتناسب قاعدة مضطربة يستطيع الكاتب أن يبينها، فالتناسب في المراثيات غيره في المسموعات، وفي الرسوم غيره في الخطوط، وفي الشؤون العلمية غيره في القصائد الشعرية، على أنه لا حاجة إلى بيانه ما دامت الأذواق السليمة تدرك بفطرتها ما يلائمها فترتاح إليه، وما لا يلائمها فتنفّر منه.

إن كثيرا من الناس يستحسنون الأنف الصغير في الوجه الكبير والرأس الكبير في الجسم الصغير، ولا يفرقون بين البرص في الجسم الأسود، والخال في الخد الأبيض، ويطربون لتقيق الضفادع كما يطربون لخريير الماء، ويفضلون أصوات النواكير على أنغام العيذان، ويعجبون بشعر ابن الفارض وابن معنوق والبرعي أكثر مما يعجبون بشعر أبي الطيب وأبي تمام والبحتري، ويضحكون لما يبكي، ويبكون مما يضحك ويرضون بما يغضب ويغضبون مما يرضي!

أولئك هم أصحاب الأنواق المريضة، وأولئك هم الذين تصدر عنهم أفعالهم وأقوالهم مشوهة غير متناسبة ولا متلائمة، لأنهم لم يدركوا سر الجمال فيصدر عنهم ولم تألفه نفوسهم، فيصبح غريزة من غرائزهم.

إن رأيت شاعرا يبتدئ قصائد التهنئة بالبكاء على الأطلال، ويودع القصائد الرثائية النكات الهزلية، ويتغزل بممدوحه كما يتغزل بمعشوقه؛ أو متكلما يقتضب الأحاديث اقتضابا، ويهزل في موضع الجد، ويجدُّ في موضع الهزل؛ أو صحفيا يضع العنوان الضخم للخبر التافه، ويكتب مقدمة في السماء لموضوع في الأرض، أو حاكما يضع الندى في موضع السيف، والسيف في موضع الندى، أو ماشيا يتلوى في طريقه من رصيف إلى رصيف، كأنما يرسم خطا متعرجا، أو لابسا في الشتاء غلالة الصيف، وفي الصيف فروة الشتاء، فاعلم أن ذوقه مريض، وأنه في حاجة إلى معالجة ذوقه، كحاجة المجنون إلى علاج عقله، والمريض إلى علاج جسمه.

كما أنه ليس كل مجنون يرجى شفاؤه، ولا كل مريض يرجى إبلاله، كذلك ليس كل من فسد ذوقه يرجى صلاحه، فإن رأيت من تؤمل في إصلاحه خيرا، وتجد في نفسه استعدادا لتقويم ذوقه، فعلاجه أن تحفه بأنواع الجمال، وتدأب على تنبيهه إلى متناسباته ومؤلفاته، وإن استطعت أن تعلمه فنا من الفنون الجميلة كالشعر والتصوير والموسيقى فافعل، فإنها المقومات للأنواق، والغارسات في النفوس ملكات الجمال.

الكذب

كذب اللسان من فضول كذب القلب، فلا تأمن الكاذب على ود ولا تثق منه بعهد، واهرب من وجهه الهرب كله، وأخوف ما أخاف عليك من خلطائك وسجرائك: الرجل الكاذب.

عرف الحكماء الكذب بأنه مخالفة الكلام للواقع، ولعلمهم جاروا في هذا التعريف الحقيقة العرفية، ولو شاءوا لأضافوا إلى كذب الأقوال كذب الأفعال.

لا فرق بين كذب الأقوال وكذب الأفعال في تضليل العقول والعبث بالأهواء وخذلان الحق واستعلاء الباطل عليه، ولا فرق بين أن يكذب الرجل فيقول: إني ثقة أمين لا أخون ولا أغدر فأقرضني مالا أرده إليك، ثم لا يؤديه بعد ذلك، وبين أن يأتيك بسبحة يهتمهم بها فتنتطق سبحته بما سكت عنه لسانه من دعوى الأمانة والوفاء، فيخدعك في الثانية كما خدعك في الأولى، لا، بل يستطيع كاذب الأفعال أن يخدعك ألف مرة قبل أن يخدعك كاذب الأقوال مرة واحدة لأنه لا يكتفي بقول الزور بلسانه حتى يقيم على قضيته بينة كاذبة من جميع حركاته وسكناته.

ليس الكذب شيئاً يستهان به، فهو أس الشرور ورذيلة الرذائل فكأنه أصل والرذائل فروع له، بل هو الرذائل نفسها. وإنما يأتي في أشكال مختلفة ويتمثل في صور متنوعة.

المنافق كاذب لأن لسانه ينطق بغير ما في قلبه، والمتكبر كاذب لأنه يدعي لنفسه منزلة غير منزلته. والفاسق كاذب لأنه كذب في دعوى الإيمان ونقض ما عاهد الله عليه، والنمام كاذب لأنه لم يتق الله في فتنته، فيتحرى الصدق في نميمته، والمتملق كاذب لأن ظاهره ينفعل؛ وباطنه يلذعك.

لقد هان على الناس أمر الكذب حتى إنك لتجد الرجل الصادق فتعرض على الناس أمره وتطرفهم بحديثه كأنك تعرض عجائب المخلوقات وتحدث بخوارق العادات.

فويل الصادق من حياة نكدة لا يجد فيها حقيقة مستقيمة، وويل له من صديق يخون العهد، ورفيق يكذب الود، ومستشار غير أمين، وجاهل يفشي السر، وعالم يُحرّف الكلم عن مواضعه، وشيخ يدّعي الولاية كذبا، وتاجر يغش في سلعته، ويحنت في أيمانه، وصحفي يتجر بعقول الأحرار، كما يتجر النخاس بالعبيد والإماء، ويكذب على نفسه وعلى الله وعلى الناس في كل صباح ومساء.

غرفة الأحزان

كان لي صديق أحبه لفضله وأدبه، أكثر مما أحبه لصلاحه ودينه، فكان يروقني منظره ويؤنسني محضره، ولا أبالي بعد ذلك بشيء من نسكه وعبادته، أو فسقه واستهتاره، لأنني ما فكرت قط أن أتلقى عنه علوم الشريعة أو دروس الأخلاق.

قضيت في صحبته عهدا طويلا ما أنكر من أمره ولا ينكر من أمري شيئا حتى سافرت من القاهرة سفرا طويلا فتراسلنا حيناً، ثم انقطعت عني كتبه فرابني من أمره ما رابني، ثم عدت فجعلت أكبر همي أن أراه فطلبته في جميع المواطن التي كنت ألقاه فيها فلم أجده، فذهبت إلى منزله، فحدثني جيرانه أنه هجره من عهد بعيد، وأنهم لا يعرفون أين مصيره، فوقفت بين اليأس والرجاء برهة من الزمان، يغالب أولهما ثانيهما حتى غلبه، فأيقنت أنني قد فقدت الرجل، وأنني لن أجد بعد اليوم إليه سبيلا.

هنالك ذرفت من الوجد دموعا لا يذرفها إلا من قل نصيبه من الأصدقاء، وأقفر ربعه من الأوفياء، وأصبح غرضا من أغراض الأيام، لا تخطئه سهامها ولا تغبه آلامها^(١).

(١) أغبه الألم: جاءه حيناً بعد حين.

بينما أنا عائد إلى منزلي في ليلة من ليالي السرار^(١) إذ دفعني
الجهل بالطريق في هذا الظلام المدلهم إلى زقاق موحش مهجور
يتخيل للناظر إليه في مثل تلك الساعة التي مررت فيها أنه مسكن
الجان، أو مأوى الغيلان، فشعرت كأني أخوض بحرا أسود،
يزخر بين جبلين شامخين، وكأن أمواجه تقبل بي وتدبر، وترتفع
وتنخفض، فما توسطت لجته حتى سمعت في منزل من تلك المنازل
المهجورة أنة تتردد في جوف الليل، ثم تلتها أختها ثم أخواتها،
فأثر في نفسي مسمعها تأثيرا شديدا وقلت: يا للعجب! كم يكتم هذا
الليل في صدره من أسرار البائسين، وخفايا المحزونين... وكنت قد
عاهدت الله قبل اليوم ألا أرى محزونا حتى أقف أمامه وقفة المساعد
إن استطعت، أو الباكي إذا عجزت، فتلمست الطريق إلى ذلك المنزل
حتى بلغته، فطرقت الباب طرقا خفيفا فلم يفتح، فطرقتة أخرى
طرقا شديدا ففتحت لي فتاة صغيرة لم تكد تسلم العاشرة من
عمرها، فتأملت على ضوء المصباح الضئيل الذي كان في يدها، فإذا
هي في ثيابها الممزقة، كالبدر وراء الغيوم المتقطعة، وقلت لها: هل
عندكم مريض؟ فزفرت زفرة كاد ينقطع لها نياط قلبها، وقالت:
أدرك أبي أيها الرجل فهو يعالج سكرات الموت؛ ثم مشت أمامي
فتبعتها حتى وصلت إلى غرفة ذات باب قصير مسنم، فدخلتها،
فخيل إليّ أنني قد انتقلت من عالم الأحياء إلى عالم الأموات، وأن

(١) ليالي السرار: الليالي الأخيرة من الشهر.

الغرفة قبر والمريض ميت، فدنوت منه حتى صرت بجانبه، فإذا
قفص من العظم يتردد فيه النفس تردد الهواء في البرج الخشبي.
فوضعت يدي على جبينه ففتح عينيه وأطال النظر في وجهي، ثم
فتح شفثيه قليلا قليلا؛ وقال بصوت خافت: «أحمد الله فقد وجدت
صديقي» فشعرت كأن قلبي يتمشى في صدري جزعا وهلعا، وعلمت
أنني قد عثرت بضالتي التي كنت أنشدها، وكنت أتمنى ألا أعثر
بها وهي في طريق الفناء، وعلى باب القضاء، وألا يجدد لي مرآها
حزنا كان في قلبي كميناً، وبين أضالعي دفيناً، فسألته ما باله؟
وما هذه الحالة التي صار إليها؟ وكأن أنسه بي أمد مصباح حياته
الضئيل بقليل من النور، فأشار إليّ أنه يحب النهوض، فمددت
يدي إليه فاعتمد عليها حتى استوى جالسا وأنشأ يقص عليّ هذه
القصة الآتية:

منذ عشر سنين كنت أسكن أنا ووالدتي بيتا يسكن بجانبه جار
لنا من أرباب الثراء والنعمة، وكان قصره يضم بين جناحيه فتاة ما
ضمت القصور أجنحتها على مثلها حسنا وبهاء، ورونقا وجمالا،
فألم بنفسي من الوجد بها ما لم أستطع معه صبرا، فما زلت بها
أعالجها فتمتنع. وأستنزلها فتتعذر، وأتأتى إلى قلبها بكل الوسائل
فلا أصل إليه. حتى عثرت بمنفذ الوعد بالزواج فانحدرت منه
إليها، فسكن جماحها، وأسلس قيادها، فسلبتها قلبها وشرفها في
يوم واحد، وما هي إلا أيام قلائل حتى عرفت أن جنينا يضطرب

في أحشائها، فأسقط في يدي، وطفقت أرتني بين أن أفي لها بوعدها أو أقطع حبل ودها، فأثرت أخراهما على أولاهما، وهجرت ذلك المنزل إلى المنزل الذي كنت تزورني فيه ولم أعد أعلم بعد ذلك من أمرها شيئاً.

مرت على تلك الحادثة أعوام طوال، وفي ذات يوم جاءني منها مع البريد هذا الكتاب، ومد يده تحت وسادته وأخرج كتاباً باليا مصفراً، فقرأت فيه ما يأتي:

لو كان بي أن أكتب إليك لأجدد عهداً دارساً، أو ودا قديماً، ما كتبت سطراً، ولا خطت حرفاً، لأنني لا أعتقد أن عهداً مثل عهدك الغادر، ووداً مثل ودك الكاذب، يستحق أن أحفل به فأذكره، أو آسف عليه فأطلب تجديده.

إنك عرفت حين تركتني أن بين جنبي ناراً تضطرم، وجنينا يضطرب، تلك للأسف على الماضي، وذاك للخوف من المستقبل، فلم تبل بذلك وفررت مني حتى لا تحمل نفسك مؤونة النظر إلى شقاء أنت صاحبه، ولا تكلف يدك مسح دموع أنت مرسلها، فهل أستطيع بعد ذلك أن أتصور أنك رجل شريف؟.. لا بل لا أستطيع أن أتصور أنك إنسان؛ لأنك ما تركت خلة من الخلال المتفرقة في نفوس العجماوات والوحش الضارية إلا جمعتها في نفسك وظهرت بها جميعها في مظهر واحد، كذبت عليّ في دعواك أنك تحبني وما كنت تحب إلا نفسك وكل ما في الأمر أنك رأيتني السبيل إلى

إرضائها فمررت بي في طريقك إليها، ولو لا ذلك ما طرقت لي بابا،
ولا رأيت لي وجهها.

خنتني إذ عاهدتني على الزواج فأخلفت وعدك ذهابا بنفسك أن
تتزوج امرأة مجرمة ساقطة، وما هذه الجريمة ولا تلك السقطة إلا
صنعة يدك وجريرة نفسك، ولولاك ما كنت مجرمة ولا ساقطة،
فقد دافعتك جهدي حتى عييت بأمرك، فسقطت بين يديك سقوط
الطفل الصغير، بين يدي الجبار الكبير.

سرق عفتي، فأصبحت ذليلة النفس حزينة القلب، أستثقل
الحياة وأستبطئ الأجل، وأي لذة في العيش لامرأة لا تستطيع
أن تكون زوجة لرجل ولا أمًّا لولد، بل لا تستطيع أن تعيش في
مجتمع من هذه المجتمعات البشرية إلا وهي خافضة رأسها،
مسبلة جفنها، واضعة خدها على كفها، ترتعد أوصالها وتذوب
أحشاؤها، خوفا من عبث العابثين وتهكم المتهمكين.

سلبتني راحتي لأنني أصبحت مضطرة بعد تلك الحادثة إلى
الفرار من ذلك القصر الذي كنت متمتعة فيه بعشرة أبي وأمي،
تاركة ورائي تلك النعمة الواسعة وذلك العيش الرغد إلى منزل
حقير في حي مهجور لا يعرفه أحد، ولا يطرق بابه طارق، لأقضي
فيه الصبابة الباقية من أيام حياتي.

قتلت أُمِّي وأبِي، فقد علمت أنهما ماتا، ولا أحسب موتهما إلا
حزنا لفقدي، ويأسا من لقائي.

قتلتني لأن ذلك العيش المر الذي شربته من كأسك، وذلك الهم الطويل الذي عالجته بسببك. قد بلغا مبلغهما من جسمي ونفسي، فأصبحت في فراش الموت كالذبالة المحترقة تتلاشى نفساً في نفس، وأحسب أن الله قد صنع لي، واستجاب دعائي، وأراد أن ينقلني من دار الموت والشقاء، إلى دار الحياة والهناء.

فأنت كاذب خادع، ولص قاتل، ولا أحسب أن الله تاركك بدون أن يأخذ لي بحقي منك.

ما كتبت إليك هذا الكتاب لأجدد بك عهداً، أو لأخطب إليك ودا، فقد عرفت مكانك من نفسي، على أنني قد أصبحت على باب القبر وفي موقف وداع الحياة بأجمعها خيرها وشرها، سعادتها وشقائها، فلا أمل لي في ود، ولا متسع لعهد، وإنما كتبت إليك لأن لك عندي وديعة وهي فتاتك، فإن كان الذي ذهب بالرحمة من قلبك أبقى لك منها رحمة الأبوة، فأقبل إليها وخذها إليك حتى لا يدركها من الشقاء ما أدرك أمها من قبلها».

فما أتممت قراءة الكتاب حتى نظرت إليه فأريت مدامعه تتحدّر على خديه فسألته: ماذا تم بعد ذلك؟ قال: إني ما قرأت هذا الكتاب حتى أحسست برعدة تتمشى في جميع أعضائي، وخيّل إليّ أن صدري يحاول أن ينشق عن قلبي حزناً وجزعا، فأسرعت إلى منزلها وهو هذا المنزل الذي تراني فيه الآن، فأريتها في هذه الغرفة على هذا السرير جثة هامدة لا حراك بها، ورأيت فتاتها

إلى جانبها تبكي بكاءً مرّاً، فصعقت لهول ما رأيت، وتمثلت لي جرائمي في غشيتي كأنما هي وحوش ضارية، وأسود ملتفة، هذا ينشب أظافره، وذاك يحدد أنيابه، فما أفقت حتى عاهدت الله ألا أبرح هذه الغرفة التي سميتها «غرفة الأحزان» حتى أعيش فيها عيشها؛ ثم أموت موتها.

وها أنذا أموت اليوم راضياً مسروراً، فقد حدثني قلبي أن الله قد غفر لي سيئاتي بما قاسيت من العناء، وكابدت من الشقاء.

وما وصل من حديثه إلى هذا الحد، حتى انعقد لسانه واكفهر وجهه وسقط على فراشه فأسلم الروح وهو يقول: ابنتي يا صديقي؛ فلبثت بجانبه ساعة قضيت فيها ما يجب على الصديق لصديقه، ثم كتبت إلى أصدقائه ومعارفه فحضرُوا تشييع جنازته؛ وما رُئي مثل يومه يوم كان أكثر باكية وباكياً.

ولما حثونا الترب فوق ضريحه جزعنا ولكن أي ساعة مجزع

وبعلم الله أنني لأكتب قصته، ولا أملك نفسي من البكاء والنشيج؛ ولا أنسى ما حييت ندائه لي وهو يودع نسيمات الحياة، وقوله: «ابنتي يا صديقي».

فيا أقوىاء القلوب من الرجال، رفقا بضعفاء النفوس من النساء. إنكم لا تعلمون حين تخذعونهن عن شرفهن، وعفتهن.. أي قلب تفجعون، وأي دم تسفكون!!

المرقص

إن كان حقاً ما يقولون من أن الكاتب لا يجمل به أن يصف مشهداً من المشاهد أو يحدث عن موقف من الموقف إلا إذا رآه بنفسه وخالطه وأحاط علماً بحقيقته فقد أسقط في يدي وارتقيت في هذه النظرة مُرتقى صعباً واستحال عليّ أن أكتب في هذا الوطن الذي أحاول الكتابة فيه سطرًا واحدًا لأنني لا أعرف من تقويم «الأزبكية» أكثر من أنها بقعة واقعة بين أديم الغبراء. وقبة السماء.

ولولا أن الله أعانني بصديق من أصدقائي زار المرقص مرة واحدة في حياته ووصف لي هذا المشهد من مشاهده لنفقت يدي منه نفص المودع يده من تراب الميت فراراً من تهكم المتهمكين. وسخرية الساخرين.

حدث ذلك الصديق قال: ذهبت ذات ليلة إلى مرقص من مراقص الأزبكية ولم أكن زرت غيره من قبل، فرأيت على بابه جندياً يتمشى في عرصته مشية هادئة مطمئنة، فذعرت لمراه، وتراجعت قليلاً قليلاً، وكدت أعتقد أنني أخطأت الطريق إلى المرقص، وأنني بين يدي دار من دور الحكومة يحرسها حاجبها، لولا أنني لم أر في وجوه الداخلين ذلك الخوف والاضطراب، والذل والانكسار، الذي اعتدت أن أراه في وجوه الشاكين والمتظلمين.

وقفت لحظة أتردد بين الإقدام والإحجام حتى لمس كتفي لأمس فالتفت ورائي فإذا صديق من أصدقائي يسألني: ما وقوفك ههنا؟ فقلت

له ما قاله أبو العيناء لصاحبه حينما سأله عن سبب بكوره: «أراك تشاركني في الفعل وتفردني بالعجب»، قال: أنا أفتش عن ابن عمي، قلت: وأنا أفتش عنك، فابتسم وقال: هيا بنا ندخل قبل أن تمتد سلسلة التفتيش إلى حيث لا تنتهى حلقاتها، وأمسك بيدي حتى جاز بي باب الرقص، فسألته ما هذا الجندي الواقف أمام الباب؟ قال: كيف ذهب عنك أن حكومتنا قد أصبحت اليوم حكومة مدنية مادية لا أدبية ولا دينية، فتساوت في نظرها «المصالح والمراقص» واختلط عليها الأمر بين مواقف القضاء، ومصارع البغاء، فأصبح الجندي يحمي أبواب العاهرات كما يحمي أبواب الوزارات، ويقف أمام البارات موقفه أمام الإدارات..

وإن العين لا تكاد تملك مدامعها سَخًا وتذرافاً كلما أبصرت هذا الجندي الشريف واقفا هذا الموقف الذليل، يسمع قراع الدفوف لا قراع السيوف، ويرى حمرة الصهباء لا حمرة الدماء، ويحمي الفسق والفجور، لا القلاع والثغور، وما أعجب لشيء عجبي لهذه الحكومة التي تضن بجندئها أن يشتمه شاتم، أو يلمسه لامس؛ فتغضب له غضبة مضرية تتراءى فيها الشهامة والحمية، والعزة والنخوة، ثم لا تضن به أن تؤجره ليكون نائحة في الجنائز، أو قوادا في المراقص، وهو هو بعينه الذي يمثلها في وقفاته، وينوب عنها في غدواته وروحاته.. هذا ما كان يحدثني به ذلك الصديق وهو سائر بي إلى قاعة المرقص حتى وصلت إليها، فماذا رأيته؟

إن كنت لم تسمع في حياتك أن فدانا واحدا من الأرض يبتلع في جوفه ستة ملايين من الأفدنة فاعلم أنه المرقص الذي يأكل وحده جميع ما تنبته تربة مصر من الخيرات والبركات، فكأنه العين التي تسع الفضاء بأرضه وسمائه، أو القلب الذي يحمل في سويدائه علم ما كان وما يكون.

رأيت الدنانير ذائبة في الكؤوس، والعقول جامدة في الرؤوس، والحبائل مبنوثة لاستلاب الجيوب، والسهام مسددة لاصطياد القلوب، ورأيت من كنت أحسبه أوفر الناس عقلا، وأذكاهم قلبا، ومن كنت أراه فأغضي بين يديه إجلالا وإكبارا، واقعا في حباله بغية تُقيمه وتقعده وتطويه وتنشره، وتعبث به عبث الطفلة بلعبتها ؛ وهو في غير هذا المكان قيصر الرومان عزة وفخارا، وكسرى فارس أنفة واستكبارا..

رأيت من يزعم أن الله قد وهبه عقلا تخترق أشعته حجب الغيب، وعلمنا تتساوى أمامه المادة وما وراءها، ومن لا يزال يتمثل صبحه ومساءه بقول الشاعر :

وعلمت حتى ما أسائل واحدا عن حرف واحدة لكى، أزدادها.
يجهل قضية من القضايا الأولية التي يشترك في فهمها الأذكياء والأغبياء والعلماء والجهلاء..

رأيت يجلس في المرقص فتتمر به البغي فما هي إلا لمحة طرف، أو غمزة كف. حتى تحدثه نفسه أنه قد وقع من نفسها، وملاً فراغ

قلبها، فيدعوها إليه فتجلس بجانبه، فما هي إلا ابتسامة خالصة،
أو كلمة كاذبة، حتى يقسم بكل محرجة من الأيمان، أن نفسه صادقة
فيما حدثته، وأن الفتاة قد علقت به علوقاً لا نجاة لها من بعده إلى
يوم يبعثون..

هنالك يبذل لها ما يشاء من نفسه وشرفه وماله، ويرى أن ذلك
قليل في جانب ما تبذل له من دقائق تقضيها بين يديه، وابتسامات
تجود بها عليه..

لقد كذبتك نفسك أيها الرجل فها هي المرأة بجانبك فهل ترى فيها
منظراً رائعاً، أو جمالاً ساطعاً، يأسر أقرى النساء قلباً، وأعصاهن
عناناً..

إن الفتاة التي أسمعته كلمة الحب قد أسمعته قبلك وستسمعها
بعدك كل صاحب جيب مثل جيبك، وعقل مثل عقلك..

وان كنت في شك مما أقول فأمسك عن فتح الزجاجات لحظة قصيرة
ثم انظر بعد ذلك أين مكانك من نفسها، وموقعك من قلبها، فإن
لم تمطر عليك سحائب اللعنات، وتجعلك غرضاً لسهام التهكمات،
فأنت أصدق الصادقين، وأنا أكذب الكاذبين..

رأيت هناك كل حاسة من الحواس قد لبست منظاراً يكبر
المنظورات، ويضاعف المسموعات، تغني المغنية بصوت مضطرب
النغمات، بارد الترجييعات، ثقيل الحركات والسكنات، فتمتلئ
أرجاء القاعة بالآهات، وتدوي فيها الصيحات المزعجات، وتطل
العجوز الدردبيس على الناس بوجه مغضن وجفن مقروح، وسن

بارزة، وخذ غائر، فتطير حولها القلوب، وتتحلب لها الأفواه،
وتترامى تحت أقدامها الوجوه، فقلت في نفسي. أهذا هو المرقص
الذي تخرب فيه البيوت العامرة، وتذبل فيه الرياض الزاهرة؟.
هذا هو الذي تتدفق فيه الأموال الغزار، تدفق الأنهار في البحار،
وتقبر فيه نفوس الكرام، قبل أن تقبر تحت الرغام، والله لا يبلغ
العدو منا بخيله ورجله وأساطيله وقنابله، ولا الأرض بزلزلها
وبراكينها، ما يبلغ منا المرقص ببغاياها..

قال المحدث: والحق أقول إني دخلت المرقص وأنا أحسب أنني
أنفُس عن نفسي كربة، فرأيت ما زاد نفسي هما، وملاً قلبي غيظاً،
فقلت لصاحبي. هل لك في القيام؟ فقام وقمت وأنا أقول. والله ما أدري
ما ترك هذا المكان، للبيمارستان؟.

الشرف

لو فهم الناس معنى الشرف لأصبحوا كلهم شرفاء.
ما من عامل يعمل في هذه الحياة إلا وهو يطلب في عمله الشرف الذي يتصوره، أو بصورة له الناس، فتارةً يخطئ مكانه وتارةً يُصيب يقتل القاتل وفي اعتقاده أن الشرف في أن ينتقم لنفسه أو عرضه بإراقة هذه الكمية من الدم، ولا يبالي أن يسميه القانون بعد ذلك مجرمًا؛ لأن البيئة التي يعيش فيها لا توافق على هذه التسمية؛ وهي في نظره أعدل من القانون حكمًا، وأصدق قولاً.
يفسق الفاسق وفي اعتقاده أنه قد نفّض عن نفسه بعمله هذا غبار الخمول والبله الذي يظلل الأعفاء والمستقيمين، وأنه استطاع أن يعمل عملاً لا يقدم عليه إلا كل ذي حذق وبراعة، وشجاعة وإقدام. يسرق السارق ويؤزّر المزور ويخون الخائن، وفي اعتقاد كل منهم أن الشرف كل الشرف في إحراز المال، وإن كان السبيل إليه دنيئاً وسافلاً، وإن للذهب رنيناً تخفت بجانب صوته أصوات المعارضين والناقدين شيئاً فشيئاً ثم تنقطع حتى لا يُسمع بجانبه صوتٌ سواه.
هكذا يتصور الأدياء أنهم شرفاء، وهكذا يطلبون الشرف ويخطئون مكانه، وما أفسد عليهم تصورهم إلا الذين أحاطوا بهم من سجرائهم وخلطائهم وذوي جامعتهم؛ أولئك الذين يحتقرون الموتور حتى يغسل الدم بالدم فيعظمونه، وينعون على الرجل

العف المستقيم بلاهته وخموله حتى يفجر ويستتهتر فيبخبخون له
ويقرظونه، ويكرمون صاحب الذهب، ولو أن كل دينار من دنائره
محجم من الدم، وأولئك الذين يسمون الفقير سافلا، وطيب القلب
مغفلا، وطاهر السريرة بليدا، والحليم عاجزا.

لا تعجب إن سمعت أن جماعة الأغنياء الجهلاء تنعكس في
أدمغتهم صور الحقائق حتى تلبس في نظرهم ثوبا غير ثوبها،
وتتراءى في لون غير لونها، فإن بين الخاصة الذين نعتد بعقولهم
ونمتدح أفهامهم ومداركهم من لا يفرق بين الرذيلة والفضيلة،
حتى إنه ليكاد يفخر بالأولى ويستحيي من الأخرى.

لولا فساد التصور ما افتخر قائد الجيش بأنه قتل مائة ألف
من النفوس البشرية في حرب لا يدافع فيها عن فضيلة، ولا يؤيد
بها حقا من الحقوق الشرعية أو الاجتماعية، ولولا فساد التصور
ما وضع المؤرخون اسم ذلك السفاح بجانب أسماء العلماء والحكماء
والأطباء خدمة الإنسانية وحملة عرشها وأصحاب الأيادي البيضاء
عليها في سطر واحد من صحيفة واحدة، ولولا فساد التصور ما جلس
القاضي المرتشي فوق كرسي القضاء يفتل شاربه ويصعر خديه،
وينظر نظرات الاحتقار والازدراء إلى المتهم الواقف بين يديه موقف
الضراعة والذل، ولا ذنب له عنده إلا أنه جاع وضاق به مذاهب
العيش فسرق درهما، وهو يسرق الدنانير في جميع آثائه وأوقاته.
ولولا فساد التصور ما توهم ذلك اللص الكبير أنه أشرف من هذا

اللس الصغير، ولو باتا عند قديهما لوقفا معا في موقف واحد أمام قاض عادل يحكم بإدانة الأول لأنه سرق مختاراً ليرفه عيشه، وبراة الثاني، لأنه سرق مضطراً لينقذ حياته من براثن الموت. فمن شاء أن يهذب أخلاق الناس، ويقوم معوجها، فليهدب تصوراتهم وليقوم أفهامهم، يوافه ما يريد من التهذيب والتقويم. ليس من الرأي أن يشير المعلم على المتعلم أن يجعل هذا المجتمع الإنساني ميزانا يزن به أعماله، أو مرآة يرى فيها حسناته وسيئاته، فالمجتمع الإنساني مصاب بالسقم في فهمه والاضطراب في تصويره، فلا عبرة بحكمه، ولا ثقة بوزنه وتقديره. ليس من الرأي أن يرشد المعلم المتعلم إلى أن يطلب في حياته الشرف الاعتباري؛ فليس كل ما يعتبره الناس شرفاً هو في الحقيقة كذلك.

ألا تراهم يعدون أشرف الشرف أن يتناول الرجل من الملك قطعة من الفضة أو الذهب يحلي بها صدره، وربما كانوا يعلمون أنه ابتاعها بماله، كما تبتاع المرأة من الجوهري حليتها؟ لا شرف إلا الشرف الحقيقي، وهو الذي يناله الإنسان ببذل حياته أو ماله أو راحته في خدمة المجتمع البشري جميعه أو خدمة نوع من أنواعه.

فالعالم شريف، لأنه يجلو صدأ العقل الإنساني ويصقل مرآته؛ والمجاهد في سبيل الذود عن وطنه شريف، لأنه يحمي مواطنيه

غائلة الأعداء و يقيهم عادية الفناء؛ والمحسن الذي يضع الإحسان في موضعه شريف لأنه يأخذ بأيدي الضعفاء ويحيي أنفس الأشقياء؛ والحاكم العادل شريف، لأنه رسول العناية الإلهية إلى المظلومين يمنعهم أن يبغى عليهم الظالمون؛ وصاحب الأخلاق الكريمة شريف لأنه يؤثر بكرم أخلاقه وجمال صفاته في عشرائه وخلطائه، ويلقي عليهم بالقدوة الصالحة أفضل درس في الأخلاق والآداب؛ والصانع والزارع والتاجر أشرف متى كانوا أمناء مستقيمين، لأنهم هم الذين يحملون على عواتقهم هذا المجتمع البشري يحتملون في سبيل ذلك ما يحتملون من المؤونة والمشقة حذرا عليه من التهافت والسقوط.

فإن رأيت في نفسك أيها القارئ أنك واحد من هؤلاء فاعلم أنك شريف وإلا فاسلك طريقهم جهداً، فإن لم تبلغ غايته فأخذ القليل خير من ترك الكثير، فإن لم يكن هذا ولا ذاك فلتبك على عقلك البواكي.

الحب والزواج

قرأت في بعض المجلات قصة قصها أحد الكتاب وموضوعها أن كاتبها غاب عن بلده بضعة أعوام، ثم عاد إليها بعد ذلك فزار صديقا له من أثرياء الرجال ووجوههم ومن ذوي الأخلاق الكريمة والأنفس العالية، فوجده حزينا كئيبا على غير ما يعهد من حاله قبل اليوم فاستفهم منه عن دخيلة أمره، فعرف أنه كان متزوجا من فتاة يحبها ويجلها ويفديها بنفسه وماله فلم تحفظ صنيعه ولم ترع عهده، وأنها فرت منه إلى عشيق لها رقيق الحال وضيع النسب، فاجتهد الكاتب أن يلقي تلك الفتاة ليعرف منها سر فرارها من بيت زوجها، فلقيها في منزل عشيقها فاعتذرت إليه عن فعلتها بأنها لا تحب زوجها لأنه في الأربعين من عمره وهي لم تبلغ العشرين، وقالت: إنها جرت في ذلك على حكم الشرائع الطبيعية وإن خالفت الشرائع الدينية؛ لأن الأولى عادلة، والثانية ظالمة، وقالت: إن ما يسميه الناس بالزنا والخيانة هو في الحقيقة طهارة وأمانة، ولا الجريمة ولا الغش ولا الخداع إلا أن تأذن المرأة لزوجها الذي تكرهه بالإلزام بها إمام الأزواج بنسائهم ما دامت لا تحبه ولا تألف عشرته، وقالت: لو أدرك الناس أسرار الديانات وأغراضها لعرفوا أنها متفقة في هذه المسألة مع الشرائع الطبيعية، وأنها ربما تعد المرأة في بيت زوجها زانية، وفي بيت عشيقها طاهرة، إذا كانت تكره الأول وتحب الثانى.

هذا ملخص القصة على طولها، وأحسبها قصة موضوعة على نحو ما يضع الكتاب القصص الخيالية لنشر رأي من الآراء أو تأييد مذهب من المذاهب، لأن الكاتب أعذر^(١) تلك الفتاة فيما فعلت، واقتنع بصحة أقوالها وصحة مذهبها وأعداها على زوجها^(٢) وقضى لها فيما كان بينهما.

وسواء أكانت القصة حقيقية أم خيالية، فالحق أقول: إن الكاتب أخطأ في وضعها، وما كنت أحسب إلا أن مذهب الإباحية^(٣) قد قضى وانقضى بانقضاء العصور المظلمة، حتى قرأت هذه القصة منشورة باللغة العربية بين أبناء الأمة العربية، فنالني من الهم والحزن ما الله عالم به.

قرأنا ما كتب الكاتبون في سبيل الدفاع عن المرأة الساقطة، وهي التي هفت في حياتها هفوة دفعها إليها دافع خداع أو سائق حاجة ثم تاب إليها رشدها وهداها، فقلنا: لا بأس بتهوينهم ذنبا جسمته العادة، وألبسته ثوبا أوسع من ثوبه، ولا بأس برحمتهم فتاة مذنبه تحاول الرجوع إلى ربها، والتوبة من ذنبها، ويأبى المجتمع البشري إلا أن يسد عليها أبواب السماء المفتحة للقاتلين والمجرمين.

أما وقد وصل الحد إلى تزيين الزنا للزانية وتهوين إثمها عليها وإغراء العفيفة الصالحة بالتمرد على زوجها والخروج على طاعته

(١) أعذرها: قبل عذرها.

(٢) أعداها عليه: أنصف لها منه.

(٣) مذهب قديم كان يستحل أصحابه كل شيء رأيا واعتقادا.

كلما دعاها إلى ذلك داع من الهوى، فهذا ما لا يطاق احتماله ولا يستطيع قبوله؛ إن فتاة الرواية لم تهف في جريمتها فقط كما يهفو غيرها من النساء لأنها مقيمة في منزل عشيقها من زمن بعيد، وقد عقدت عزمها على البقاء فيه ما دامت روحها باقية في جسدها، ولم يسقها إلى ذلك سائق شهوة بشرية إن صح أن تكون الشهوة البشرية عذرا يدفع مثلها إلى مثل ما صنعت؛ لأنها فرت من فراش زوجها، لا من وحشية خلوتها ولا سائق جوع؛ لأنها كانت أهناً للنساء عيشاً، وأروحن بالاً، بل كانت على حالة من الرفاهية والنعمة والتقلب في أعطاف العيش البارد لم تر مثلها من قبل ولا من بعد، إذن فهي امرأة مجرمة لا يمنحها العدل من الرحمة ما منح المرأة الساقطة.

إن كانت هذه الفتاة عفيفة طاهرة كما يزعم الكاتب، فقد أخطأ علماء اللغة جميعاً في وضع كلمة الفساد في معاجمهم، لأنها لا مسمى لها في هذا العالم، عالم العفة والطهارة والخير والصلاح، ولا يمكن أن يكون المراد منها فتاة المواخر لأنها لم تترك وراءها زوجاً معذباً ناقماً منكوباً، ولم ترض عن حياتها الجديدة التي انتقلت إليها قط ولا اغتبطت بعيشها فيها اغتباط تلك الفتاة.

كل الأزواج ذلك الزوج إلا قليلاً، فإذا جاز لكل زوجة أن تفر من زوجها إلى عشيقها كلما وقع في نفسها الضجر من معاشرة الأول وبرقت لها بارقة الأنس من بين ثنايا الثاني، فويل لجميع الرجال من جميع النساء، وعلى النظام البيتي والرابطة الزوجية بعد اليوم ألف سلام.

أيها الكاتب! ليس في استطاعتي ولا في استطاعتك ولا في استطاعة أحد من الناس أن يوقف دورة الفلك ويصد كر الغداة ومصر العشي حتى لا يبلغ الأربعين من عمره مخافة أن تراه زوجته غير أهل لمعاشرتها إذا علمت أن في الناس من هو أصغر منه سناً وأكثر منه رونقاً ورشاقة وأنضر شباباً.

إن الضرر والسامة من الشيء المتكرر المتردد طبيعة من طبائع النوع الإنساني فهو لا يصبر على ثوب واحد أو طعام واحد أو عشير واحد، وقد علم الله سبحانه وتعالى ذلك منه، وعلم أن نظام الأسرة لا يتم إلا إذا بُني على رجل وامرأة تدوم عشتريهما، ويطول ائتلافهما، فوضع قاعدة الزواج الثابت ليهدم بها قاعدة الحب المضطرب، وأمر الزوجين أن يعتبروا هذا الرباط رباطاً مقدساً حتى يحول بينهما وبين رجوعهما إلى طبيعتيها، وذهابهما في أمر الزوجية مذهبهما في المطاعم والمشارب، من حيث الميل لكل جديد، والشغف بكل غريب.

هذا هو سر الزواج وهذه حكمته، فمن أراد أن يجعل الحب قاعدة العشرة بدلاً من الزواج، فقد خالف إرادة الله وحاول أن يهدم ما بناه ليهدم بهدمه السعادة البيتية.

أي امرأة متزوجة بأجمل الرجال لا تحدثها نفسها في استبداله بأجمل منه؟ وأي رجل متزوج بأجمل النساء لا يتمنى أن يكون في منزله أجمل منها؟ لولا هذا الرباط المقدس: رباط الزوجية، فهو

الذي يعالج أمثال هذه الأمانى وتلك الهواجس وهو الذي يعيد إلى النفوس الثائرة سكونها وقرارها.

لا بأس أن يتثبت الرجل قبل عقد الزواج من وجود الصفة المحبوبة لديه في المرأة التي يختارها لنفسه، ولا بأس أن تصنع المرأة صنيعه، ولكن لا على معنى أن يكون الحب الشهوي هو قاعدة الزواج، يحيا بحياته ويموت بموته. فالقلوب متقلبة، والأهواء نزاعة، بل بمعنى أن يكون كل منهما لصاحبه صديقا أكثر منه عشيقا، فالصداقة ينمو بالمودة غرسها، ويمتد ظلها، أما الحب فظل يتنقل؛ وحال تتحول.

الإسلام والمسيحية

ما عجبت لشيء في حياتي عجبي لهؤلاء الناس الذين يعجبون كثيرا مما كتبه اللورد كرومر عن الإسلام، كأنما كانوا يتوقعون من رجل يدين بدين غير الإسلام ويضن به فوق ضنه بنفسه وماله أن يؤمن بالوحدانية، ويصدق الرسالة المحمدية، ويقيم الصلاة ويؤتي الزكاة ويحج البيت ما استطاع إليه سبيلا!

إن اللورد كرومر يعتقد - كما يعتقد كل مسيحي متمسك بيسوعيته - أن الإسلام دين موضوع ابتدعه عربي بدوي أمي ما قرأ في حياته صحيفة، ولا دخل مدرسة، ولا سمع حكمة اليونان، ولا رأى مدنية الرومان، ولا تلقى شيئا من علوم الشرائع والعمران. هذا مبلغ معتقده في ذلك الرجل، فكيف يرى نفسه بين يديه أصغر من أن يناقشه وينظره ويخطئه فيما وضعه الناس من الشرائع والأحكام؟ وكيف يسمح لنفسه أن ينظر إليه بالعين التي ينظر بها المسلم إليه من حيث كونه نبيا مرسلا موحى إليه من عند الله تعالى بكتاب كريم لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه؛ أما ما نقرؤه أحيانا لبعض علماء الغرب المسيحيين من الثناء على الإسلام وإطراء أحكامه وآياته، فهو مكتوب بأقلام قوم مؤرخين قد أدوا للتاريخ حق الأمانة والصدق، فلم يعيث التعصب الديني بكتاباتهم، ولا تمشت الروح المسيحية في أقلامهم ولا ريب في أن

اللورد كرومر ليس واحدا منهم، فإن من قرأ كتابه «مصر الحديثة» تخيل أنه يسمع صوت راهب في صومعته قد لبس قلنسوته ومسوحه وعلق صليبه في زناره.

فهل يحق بعد ذلك لأحد من المسلمين أن يدهش أو يذهب به العجب كل مذهب إذا رأى في كتاب اللورد كرومر ما يراه كل يوم في كتب المبشرين الإنجيليين، وجرائدهم ومجلاتهم من الطعن على الإسلام وعقائده وشرائعه؟

بلغ التعصب الديني بجماعة المبشرين أن حكموا بوجود اللحن في القرآن بعد اعترافهم بأنه كتاب عربي نظمته على حسب معتقدهم رجل هو في نظرهم أفصح العرب، وليست مسألة الإعراب واللحن مسألة عقلية يكون للبحث العقلي فيه مجال، وإنما الإعراب ما نطق به العرب، واللحن ما لم ينطقوا به؛ فلو أنهم اصطالحوا على نصب الفاعل ورفع المفعول مثلا لكان رفع الأول ونصب الثاني لحنًا، ولكن جهلة المبشرين لم يدركوا شيئًا من هذه المسلمات، واستدلوا على وجود اللحن في القرآن لقواعد النحو التي ما دُونها مدونوها إلا بعد أن نظروا في كلام العرب وتتبعوا تراكيبه وأساليبه، وأكبر ما اعتمدوا عليه في ذلك هو القرآن المجيد، فالقرآن حجة على النحاة، وليست النحاة حجة على القرآن، فإذا وجد في بعض تراكيب القرآن أو غيره من الكلام العربي ما يخالف قواعد النحاة حكمنا بأنهم مُقَصِّرُونَ في التتبع والاستقراء، على أنهم ما قصروا في شيء من ذلك،

وما تركوا كثيرا ولا قليلا ولا نادرا ولا شاذا إلا دُونوه في كتبهم، فلا القرآن بملحون، ولا النحاة مقصرون، ولكن المبشرين جاهلون، فإذا كان التعصب الديني أنطق ألسنتهم بمثل هذه الخرافة المضحكة فليس بغريب أن نسمع من هذا الرجل المتشبه بهم هذا الطعن على الإسلام في عقائده وأحكامه.

إننا لا ننازع اللورد كرومر ولا أمثاله من الطاعنين على الإسلام في معتقدهم ولكننا نحب منهم ألا ينازعونا في معتقدنا، وأن يعطونا من الحرية في ذلك ما أعطوه لأنفسهم.

يقول اللورد كرومر: إن الدين الإسلامي دين جامد لا يتسع صدره للمدنية الإنسانية، ولا يصلح للنظام الاجتماعي، ويقول: إن ما لا يصلح له الدين الإسلامي يصلح له الدين المسيحي، ويستدل على الإسلام بالمسلمين، وعلى المسيحية بالمسيحيين.

في أي عصر من عصور التاريخ، كانت الديانة المسيحية مبعث العلم ومطلع شمس المدنية والعمران؟ أفي العصر الذي كانت تدور فيه رحى الحروب الدموية بين الأرثوذكس والكاثوليكية تارة، وبين الكاثوليك والبروتستانت تارة أخرى بصورة وحشية فظيعة اسود لها لباس الإنسانية، وبكت الأرض منها والسماء؟ أم في العصر الذي كانت إرادة المسيحي فيه صورة من إرادة الكاهن الجاهل؛ فلا يعلم إلا ما يعلمه إياه، ولا يفهم إلا ما يلقيه إليه، فما كان يترك له الحرية حتى في الحكم على نفسه بكفر أو إيمان، وبهيمية أو

إنسانية، فيكاد يتخيل أن له ذنبا متحركا وخيشوما طويلا، وأنه يمشي على أربع إذا قال له الكاهن: أنت كلب: أو قال له: إنك لست بإنسان؟ أم في العصر الذي كان يعتقد فيه المسيحي أن دخول الجمل في سم الخياط أقرب من دخول الغني في ملكوت السموات؟ أم في العصر الذي كان يحرم فيه الكاهن الأعظم على المسيحي أن ينظر في كتاب غير الكتاب المقدس، وأن يتلقى علما في مدرسة غير مدرسة الكنيسة؟ أم في العصر الذي ظهرت فيه النجمة ذات الذنب فذعر لرؤيتها المسيحيون ورفعوا إلى البابا عرائض الشكوى فطردها من الجو فولّت الأدبار؟! أم في العصر الذي أهدى فيه الرشيد العباسي الساعة الدقاقة إلى الملك شارلمان، فلما رآها الشعب المسيحي وسمع صوتها فر من وجهها ظنا منه أنها تشتمل على الجن والشياطين؟! أم في العصر الذي ألقت فيه محكمة التفتيش لمحاكمة المتهمين بمزاولة العلوم فحكمت في وقت قصير على ثلاثمائة وأربعين ألفا بالقتل حرقا أو صلبا؟ أم في العصر الذي أحرق فيه الشعب المسيحي فتاة حسناء بعدما كشط لحمها وحرق عظمها لأنها كانت تشغل بعلوم الرياضة والحكمة؟

هذا الذي نعلمه أيها الفيلسوف التاريخي من تاريخ العلم والعرفان والمدنية والعمران في العصور المسيحية، ولا نعم أكانت تلك المسيحية التي كان هذا شأنها وهذا مبلغ سعة صدرها صحيحة في نظرك أم باطلة، وإنما نريد أن نستدل بالمسيحيين على المسيحية، وإن لم نقف على حقيقتها كما فعلت أنت في استدلالك

بالمسلمين على الإسلام وإن لم تعرف حقيقته وجوهره، على أن استدلالنا صحيح واستدلالك باطل، فإن المدنية الحديثة ما دخلت أوروبا إلا بعد أن زحزحت المسيحية منها لتحل محلها كالماء الذي لا يدخل الكأس إلا بعد أن يطرد منه الهواء لأنه لا يتسع لهما، فإن كان قد بقي أثر من آثار المسيحية اليوم في أكواخ بعض العامة في أوروبا فما بقي إلا بعد أن عفت عنه المدنية ورضيت بالإبقاء عليه، لا باعتبار أنه دين يجب إجلاله وإعظامه، بل باعتبار أنه زاجر من الزواجر النفسية التي تستعين الحكومات بها وبقوتها على كسر شرّة النفوس الجاهلة، فلا علاقة بين المسيحية والتمدين الغربي من حيث يستدل به عليها، أو باعتبار أنه أثر من آثارها، ونتيجة من نتائجها، ولو كان بينه وبينها علاقة ما افتقرت عنه نحو خمسة عشر قرناً كانت فيه أوروبا وراء ما يتصوره العقل من الهمجية والوحشية والجهل، فما نفعها مسيحيتها ولا أغنى عنها كهنتها.

أما المدنية الإسلامية فإنها طلعت مع الإسلام في سماء واحدة من مطلع واحد في وقت واحد، ثم سارت إلى جانبه كتفا لكتف ما ينكر من أمرها ولا تنكر من أمره شيئاً، فالمتعبد في مسجده، والفقيه في درسه، والمعرّب في خزانة كتبه، والرياضي في مدرسته، والكيميائي في معمله، والقاضي في محكمته، والخطيب في محفله، والفلكي أمام أسطرلابه، والكاتب بين محابره وأوراقه، إخوة متصافون وأصدقاء

متحابون لا يختصمون ولا يقتتلون ولا يكفر بعضهم بعضاً، ولا
يبغي أحد منهم على أحد.

أيها الفيلسوف التاريخي: إن كان لا بد من الاستدلال بالأثر
على المؤثر فالمدينة الغربية اليوم أثر من آثار الإسلام بالأمس،
والانحطاط الإسلامي اليوم ضربة من ضربات المسيحية الأولى. وإليك
البيان:

جاء الإسلام يحمل للنوع البشري جميع ما يحتاج إليه في معاده
ومعاشه ودنياه وآخرته، وما يفيده منفرداً، وما ينفعه مجتمعاً.
هذب عقيدته بعدما أفسدها الشرك بالله والإسفاف إلى عبادة
التمثيل والأوثان، وإحناء الرؤوس بين أيدي رؤساء الأديان،
أرشده إلى الإيمان بألوهية إله واحد لا يشرك به شيئاً، ثم أرشده
إلى تسريح عقله ونظره في ملكوت السموات والأرض ليقف على
حقائق الكون وطبائعه، وليزداد إيماناً بوجود الإله وقدرته وكمال
تدبيره، ليكون اقتناعه بذلك اقتناعاً نفسياً قلبياً، فلا يكون آلة
صماء، في يد الأهواء تفعل به ما تشاء، ثم أرشده إلى مواقف تذكره
بربه وتنبيهه من غفلته وتطرد الشرور والخواطر السيئة عن نفسه
كلما ابتغت إليها سبيلاً، وهي مواقف العبادات، ثم أطلق له الحرية
في القول والعمل، ولم يمنعه إلا من الشرك بالله والإضرار بالناس،
وعرفه قيمة نفسه بعدما كان يجهلها، وعلمه أن الإنسانية لا فرق
بين فقيرها وغنيها ووضيعها ورفيعها وضعيفها وقويها، وأن الملك
والسوقة، والشريف الهاشمي، والعبد الزنجي أمام الله والحق سواء،

وأن الأمر والنهي، والتحليل والتحريم، والنفع والضرر، والثواب والعقاب، والرحمة والغفران: بيد الله وحده لا ينازعه فيها منازع، ولا يملكها عليه أحد من الأنبياء والمرسلين والملائكة المقربين، ثم نظر في أخلاقه فأرشدته إلى محاسنها، ونفّره من مساوئها حتى علمه آداب الأكل والشرب، والنوم والمشي، والجلوس والكلام، والتحية والسلام، ثم دخل معه منزله فعلمه كيف يبرر الابن أباه ويرحم الوالد ولده. ويعطف الأخ على أخيه، ويكرم الزوج زوجته، وتطيع الزوجة زوجها، وكيف يكون التراحم والتواصل بين الأقرباء وذوي الرحم، ثم نظر في شئونه الاجتماعية ففرض عليه الزكاة التي لو جمعت ووضعت في مواضعها المشروعة لما كان في الدنيا بائس ولا فقير، وندبه إلى الصدقة ومساعدة الأقوياء للضعفاء، وعطف الأغنياء على الفقراء. ثم شرع له شرائع للمعاملة الدنيوية. ووضع له قوانين البيع والشراء والرهن والهبة والقرض والتجارة والإجازة والمزارعة والوقف والوصية والميراث، ليعرف كل إنسان حقه، فلا يغبن أحد أحداً، ثم قرر له عقوبات دنيوية تمنعه أن يبغي بعضه على بعضه بشتى أو سب أو قتل أو سرقة أو انتهاك حرمة أو مجاهرة بمعصية أو شروع في فتنة أو خروج على أمير أو سلطان، ثم نظر في شؤونه السياسية فقرر الخلافة وشروطها، والقضاء وصفاته، والإمارة وحدودها، وقرر كيف يعامل المسلمون مخالفينهم في الدين البعيدين عنهم والنازحين إليهم، وذكر مواطن القتال معهم، ومواقع المسالمة لهم.

وجملة القول: إن الدين الإسلامي ما غادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، ولا ترك الإنسان يمشي في ميدان هذه الحياة خطوة من مهده إلى لحدّه، إلا مد يده إليه وأنار له مواقع أقدامه، وأرشده إلى سواء السبيل.

طلعت هذه الشمس المشرقة في سماء بلاد العرب فملأت الكون نورا وإشراقا، واختلف الناس في شأنها ما بين معترف بها، ومنكر وجودها ولكنهم كانوا جميعا سواء في الانتفاع بنورها، والاستنارة بضياؤها على تفاوت في تلك الاستنارة وتنوع في ذلك الانتفاع.

طلعت هذه الشمس المشرقة فتمشت أشعتها البيضاء إلى أوروبا من طريق إسبانيا وجنوب إيطاليا وفرنسا، فأبصرها عدد قليل من أذكى الغربيين، فانتبهوا من رقدتهم، واستيقظوا من سباتهم، ورأوا من جمال المذاهب الإسلامية وشرائع الكون ونظاماته وقواعد الحرية والمساواة ما لفت نظرهم إلى المقابلة بين المجتمع الغربي الخامل الضعيف والمجتمع الشرقي النابه اليقظ، فقالوا: أيمن أن يعيش الإنسان على ظهر هذه المسكونة حُرًّا لا يستعبده ملك ولا يسترقه كاهن؟ أيمن أن يببئ المرء ليلة واحدة في حياته هادئا في مضجعه مطمئنا في مرقده، لا يروعه دولا بالعذاب ولا سيف الجلاذ؟ أيمن أن تملك النفس حريتها في النظر إلى نظام العالم وطبائعه ودراسة العلوم الكونية ومزاولتها؟ أيمن أن يطلع فجر المدنية الإسلامية على هذا المجتمع الغربي فيمحو ظلمته التي طال عهدنا بها حتى غشيت أبصارنا فما يكاد يرى بعضنا بعضا؟

كانت هذه الخواطر المترددة في عقول أولئك الأذكىاء هي الخطوة الأولى التي مشتها أوروبا في طريق المدنية والعمران بفضل الإسلام وشرائعه التي عرفها هؤلاء الأفراد من مخالطة المسلمين في أوروبا ومطالعة كتبهم ومناظرة حضارتهم ومدنيتهم، ثم أخذوا يعلمونها الناس سرا ويبتونها في نفوس تلاميذهم شيئا فشيئا، ويلقون في سبيل نشرها عناءً شديداً، واستمر هذا النزاع بين العلم والجهل قروناً عديدة حتى انتهى أمره بالثورة الفرنسية، فكانت هي القضاء الأخير على الوحشية السالفة والهمجية القديمة.

أيها الفيلسوف التاريخي: إنك لا بد تعلم ذلك حق العلم لأنه أقل ما يجب على المؤرخ أن يعلمه، كما تعلم أن المدنية الإسلامية إذا وسعت غيرها فأحر بها أن تسع نفسها، ولكن التعصب الديني قد بلغ من نفسك مبلغه، فما كفاك أن أنكرت فضل صاحب الفضل عليك، حتى أنكرت عليه فضله على نفسه!

لا حاجة بي إلى أن أشرح لك المدنية الإسلامية أو أسرد لك أسماء علمائها وحكمائها ومؤلفاتهم في الطبيعة والكيمياء والفلك والنبات والحيوان والمعادن والطب والحكمة والأخلاق والعمران، أو أعدد لك مدارسها ومجامعها ومراصدها في الشرق والغرب، أو أصف لك مدنها الزاهرة، وأمصارها الزاخرة، وسعادتها وهناءها، وعزتها وسطوتها، فأنت تعرف ذلك كله إن كنت مؤرخاً كما تقول.

غير أنني لا أنكر عليك ما لحق بالمسلمين في هذه القرون الأخيرة من الضعف والفتور، وما أصاب جامعتهم من الوهن والانحلال،

ولكن ليس السبب في ذلك الإسلام كما تتوهم، بل المسيحية التي سرت عداوها إليهم على أيدي قوم من المسيحيين أو أشباه المسيحيين لبسوا لباس الإسلام وتزيّوا بزيّه ودخلوا بلاده وتمكنوا من نفوس ملوكه الضعفاء، وأمرائه الجهلاء، فأمدوهم بشيء من السطوة والقوة تمكنوا به من نشر مذاهبهم السقيمة وعقائدهم الخرافية بين المسلمين، حتى أفسدوا عليهم مذاهبهم وعقائدهم، وأوقعوا الفتنة فيهم، وحالوا بينهم وبين الاستمداد من روح الإسلام وقوته فكان من أمرهم بعد ذلك ما كان.

كل ما نراه اليوم بين المسلمين: من الخلط في عقيدة القضاء والقدر، وعقيدة التوكل، وتشبيد الأضرحة وتجسيص القبور وتزيينها والترامي على أعتابها، والاهتمام بصور العبادات وأشكالها دون حكمها وأسرارها، وإسناد النفع والضرر إلى رؤساء الدين، وأمثال ذلك، أثر من آثار المسيحية الأولى، وليس من الإسلام في شيء.

أيها الفيلسوف التاريخي: لا تقل إننا متعصبون تعصبا دينيا فإنك قد أسأت إلينا وإلى ديننا، فلم نر بُدًّا من الذب عنا وعنه بما نعلم أنه حق وصواب، على أنه لا عار علينا فيما نقول، وهل التعصب الديني إلا اتحاد المسلمين يدا واحدة على الذود عن أنفسهم والدفاع عن جامعتهم؛ وإعلاء شأن دينهم ونصرته حتى يكون الدين كله لله.

إن كان رفضا حب آل محمد فلا يشهد الثقلان أني رافضي

أهناء أم عزاء

فارق مصر على أثر إعلان الدستور العثماني كثير من فضلاء السوريين بعدما عمروا هذه البلاد بفضائلهم ومآثرهم وصيروها جنة زاخرة بالعلوم والآداب ولقنوا المصريين تلك الدروس العالية في الصحافة والتأليف والترجمة، وبعدها كانوا فينا سفراء خير بين المدنية الغربية والمدنية الشرقية.. يأخذون من كمال الأولى ليتمموا ما نقص من الأخرى، وبعدها علموا المصري كيف ينشط للعمل وكيف يجد ويجتهد في سبيل العيش وكيف يثبت ويتجلد في معركة الحياة.

قضوا بيننا تلك البرهة من الزمان يحسنون إلينا فنسيء إليهم، ويعطفون علينا فنسميهم تارة دخلاء، وأخرى ثقلاء، كأنما كنا نحسب أنهم قوم من شُذَّاذ الآفاق أو نفايات الأمم جاءوا إلينا يصادروننا في أرزاقنا، ويتطفلون على موائدنا، ولو أنصفناهم لعرفناهم وعرفنا أن أكثرهم من بيوتات المجد والشرف، وإنما ضاقت بهم حكومة الاستبداد ذرعا، وكذلك شأن كل حكومة مستبدة مع أحرار النفوس وأبأة الضيم، فأخرجت صدورهم، وضيقنا عليهم مذاهبهم ففروا من الظلم تاركين وراءهم شرفا ينعيهم، ومجدا يبكي عليهم، ونزلوا بيننا ضيوفا كراما، وأساتذة كبارا، فما أحسنا ضيافتهم ولا شكرنا لهم نعمتهم.

وبعد: فقد مضى ذلك الزمن بخيره وشره، وأصبحنا اليوم كلما ذكرناهم خفقت أفئدتنا مخافة أن يلحق باقيهم بماضيهم، فلا نعلم أنشكر للدستور أن فرج عنهم كربتهم، وأمنهم على أنفسهم، وردهم إلى أوطانهم أم ننقم منه أن كان سببا في حرماننا منهم، بعد أنسنا بهم، واغتباطنا بحسن عشرتهم وجميل مودتهم، ولا ندري هل نحن بين يدي هذا النظام العثماني الجديد في هناء أم عزاء؟
فيا أيها القوم المودعون، والكرام الكاتبون:

اذكرونا مثل ذكرانا لكم رب ذكرى قربت من نزحا
واذكروا صبا إذا غنى بكم شرب الدمع وعاف القدحا

الزوجتان

حدثني أحد الأصدقاء قال: سأقص عليك قصة ليست من خيالات الشعراء ولا أكاذيب القصاصين.

أويت إلى مضجعي في ليلة من ليالي الشتاء حالكة الجلباب، غدافية الإهاب فما استقبلت أول طلوعة من طلائع النوم حتى قرع باب غرفتي فتسمعت فإذا الخادم يقول: إن امرأة سيئة الحال رثة الثياب في زي المتسولات تلح في طلب مقابلتك وتقول: إن لها عندك شأنًا، فقلت في نفسي: لا شأن لي مع امرأة وربما كانت ذات حاجة وكانت حاجتها إليّ أكثر من حاجتي إلى النوم، على أن النوم لا يفوتني، فليل الشتاء أطول من يوم القضاء، فارتديت ردائي ونزلت، فإذا فتاة في ملءة بالية وخمار خلق ينم بجمالها كما ينم السحاب المتقطع بضوء الشمس، وإذا هي ترعد وتضطرب وتقول بصوت شجي: أما في الناس أخو همة ومروءة يعين على الدهر الغادر ويطفئ هذه الجذوة التي تتأجج بين أضالعي بقطرة واحدة من الرحمة؟ فقلت: من أنت يرحمك الله؟ قالت: أنا فلانة زوج فلان، فدهشت وغصصت برريقي حتى ما أجد بلة أحرك بها لساني لهول ما سمعت وسوء ما رأيت، وقلت: يا للعجب! زوج فلان على عظمه وعظمها، وجلاله وجلالها، تخرج في مثل هذه الساعة في مثل هذه البزة! وسألتها: ما شأنك يا سيدتي ومم تبكين؟ قالت: لا

تحدث نفسك بربية ولا تذهب بك الظنون مذهبها، فوالله ما جئت إليك تحت ستر الليل إلا وأنت أوثق الناس عندي، وأرفعهم في عيني، ولولا شدة أفلقت مضجعي وفرقت ما بين جفني والكرى ما خضت سواد الليل في مثل هذه الساعة ولا احتملت في سبيل ذلك ما احتملت، قلت: عهدي بسيدتي رعية البال ناعمة العيش سعيدة الحظ بزواج عذب الأخلاق كريم السجايا لا يؤثر هوى نفسه على هواك، ولا يعدل بك أحدا، قالت: إنك تقص عليّ حديث الأمس وقد مضى به الفلك الدائر، والكوكب السيار، فاستمع مني حديث اليوم:

إنك لابد تعلم تاريخ زواجي منه منذ ثلاثة أعوام، وأن أبي قد أثره وفضله على جميع الخاطبين إليه من علية القوم وجلتهم، وأنا لا ألومه على ذلك - رحمة الله عليه - فما أراد بي شرا ولا اعتمد أن يسيء الاختيار لي، ولكنه كان رجلا طيب السريرة طاهر القلب، فخدعه الخادعون عني، ومن ذا الذي لا يخدع بشاب متعلم مهذب من ذوي المناصب الكبيرة والرتب العالية، وكيفما كان الأمر فقد تم عقد الزواج بيننا فاغتنبت به واغتنب بي برهة من الزمان حسبتها دائمة لا انقطاع لها حتى يفرق بيننا الموت، وكنت امرأة أجمع في نفسي جميع ما يمت به النساء إلى الرجال، فما خنته ولا ضقت ذرعا به، ولا قطبت في وجهه مرة، ولا أتلفت له مالا، ولا نقضت له عهدا؛ فجازاني بالإحسان سوءا، وكفر بنعمة الله بعد الإيمان،

وخان ودي، ونقض عهدي، لا لذنب جنيته، أو وصمة يصمني بها، ولكنه رجل ملول متبرم، ولا تغضب يا سيدي إن قلت لك: إن قلب الرجل متقلب مثلون يسرع إلى البغض كما يسرع إلى الحب، وإن هذه المرأة التي تحتقرونها وتزدرونها وتضربون الأمثال بخفة عقلها وضعف قلبها أوثق منه عقدا، وأمتن ودا، وأوفى عهدا، ولو وفى الزوج لزوجته وفاءها له ما استطاع أن يفرق بين قلبيهما إلا ريب المنون. قلت: أنا لا أغضب لشيء إلا للإنسانية أن يخفر ذمامها، وينقض عهدها، ثم ماذا تم بعد ذلك؟ قالت: مات أبي كما تعلم وخلف لي ما لا أمكنت منه زوجي فأتلفه بين الخمر والقمر، فكنت أغضي على ذلك رحمةً به وشفقةً عليه استبقاءً لودّه، حتى إذا صفرت يدي وأقفر ريعي أحسست منه مللا كان يدعوه إلى سوء عشرتي وتعذيب جسمي ونفسي، وكان كثيرا ما يتهمك بي ويقول: إنني لا أحب المرأة الجاهلة التي لا تفهمني ولا أفهمها، وآونة كان يُعرّض بي قائلا: إن الرجل السعيد هو الذي يرزق زوجة متعلمة، تقرأ له الجرائد والمجلات وتتبسط معه فى الشؤون الاجتماعية والسياسية، بل يتجاوز التعريض أحيانا إلى التصريح، فيقول كلما دخل عليّ متأففا متذمرا: ليت لي زوجة كفلانة فإنها تحسن الرقص والغناء والتوقيع على الآلات الموسيقية، فكنت أشك في سلامة عقله، وأقول في نفسي: كيف يفضل الزوجة المتبذلة المستهترة على الحبيبة المحتشمة، ووالله ما تمنيت مرة أن أكون على الصفة التي يحبها

ويرضاها مع ما كنت أبذل في رضاه من ذات اليد وذات النفس. وبعد؛ فما زال الملل يدب في نفسه دبيب الصهباء في الأعضاء حتى تحول إلى بغضاء شديدة، فما كان يلحظني إلا شزرا ولا يدخل المنزل إلا لتناول غرض أو قضاء حاجة، ثم يخرج لشأنه فكنت أحتمل كل هذا بقلب صبور، وجنان وقور، حتى عرض له بعد ذلك أن نقل إلى منصب أرقى من منصبه في بعض بلد الأقاليم، فسافر وحده وتركني في المنزل وحيدة لا مؤنس لي غير طفلي، فلبثت أترقب كتابا منه يدعوني فيه إلى اللحاق به؛ فما أرسل كتابا ولا رسولا ولا نفقة، فاستكتبت إليه الكتاب بعد الكتاب فما أسلس قياده، ولا طاع عناده، فسافرت إليه مخاطرة بنفسي غير مبالية بغضبه لأعلم غاية شأنه معي، فما نزلت من القطار حتى قيض الله لي من وقفني على حقيقة أمره، وأعلمني أنه تزوج من فتاة متعلمة تقرأ له الجرائد والروايات وتفاوضه في المسائل الاجتماعية والسياسية، وتحسن الرقص والغناء والتوقيع على القطع الموسيقية، فداخلني من الهم ما الله به عليم، وجزعت ولكن أي ساعة مجزع، ولا أظن إلا أن العدل الإلهي سيحاسبه على كل قطرة من قطرات الدموع التي أرقتها في هذا السبيل حسابا غير يسير.

وكانه شعر بمكاني، فجاء إليّ يتهددني ويتوعدي فتوسلت إليه ببكاء طفلته التي كنت أحملها بين يدي، وذكرته بالعهود والمواثيق التي تعاقدنا عليها، وذهبت في استعطافه واستدناؤه

كل مذهب، فكنت كأُنني أخطب ركودا صماء^(١) أو أَسْتَنْزِل أبودا عصماء^(٢) ثم طردني وأمر من حملني إلى المحطة، فعدت من حيث أتيت.

فما وصلت إلى المنزل حتى خلعت ملابسني ولبست هذه الثياب وجئتكَ متنكرة في ذمام الليل، لأنني وحيدة في هذا العالم لا قريب لي ولا حميم، ولأنني أعلم كرمك وهمتك وما بينك وبين ذلك الرجل من الود والاتصال عسى أن ترى لي رأيا في التفريق بيني وبينه، علني أجد في فضاء الحرية منفذا كسم الخياط أرتشف منه ما أتبلغ به أنا وطفلتي حتى يبلغ الكتاب أجله.

فأحزنني من أمر تلك الفتاة البائسة ما أحزنني، ووعدها بالنظر في أمرها بعد أن هَوَّنت عليها بعض أحزانها ولواعجها، فعادت إلى منزلها وعدت إلى مضجعي أفكر في هذه الحادثة الغريبة، وقد اكتنفتني همَّان: هم تلك البائسة التي لم أر في تاريخ شقاء النساء قلبا أشقى من قلبها ولا نجما أنحس من نجمها، وهَم ذلك الصديق الذي ربحته سنين عدة وخسرته في ساعة واحدة، فقد كنت أغبط نفسي عليه فأصبحت أعزيها عنه، وكنت أحسبه إنسانا فإذا هو ذئب عملس^(٣) تستره الصورة البشرية وتواريه البشاشة والابتسام.

(١) الركود - من الركود - وهو الثبات والسكون. والصخرة الصماء: الصلابة المصمتة.

(٢) أبدت البهيمية: توحشت. والعصماء من الظباء: التي في ذراعيها بياض وساثرها أسود.

(٣) العملس: السريع.

ووالله ما أدري أية داهية رمى بها الغرب شبان مصر في هذا العصر.
وكيف ملك حبُّ التقليد عليهم نفوسهم وأهواءهم فاستهانوا بعباداتهم
الشرقية واستخفوا بها وودوا لو تجردوا عنها. وما يتجردون إن تم
لهم ذلك إلا من الفضيلة ومذاهبها. والإنسانية وكمالاتها.

يسمع الواحد منهم ذكر المرأة الغربية ووصف شؤونها وأطوارها.
وعلموها ومعارفها. وكمالاتها وآدابها. وعفتها ونزاهتها. فيلذُّ له
ذلك الخيال كما يلذُّ للعامة خيال الشجرة التي تُثمر نساءً حسناً في
جزائر واق الواق فيتمناها زوجاً له أو يتمنى أن تكون زوجته على
هذه الصورة الخيالية اللذيذة. وما هي إلا خدعة من خُدع الأمانى
والأحلام. ولو رجع إلى نفسه لوجدها نفساً شرقية. تحب الفضيلة
الشرقية. وتعا ف الرذيلة الغربية. ولوجد غربيته متكلفة متصنعة
جلبها الخيال إلى ذهنه. ولم يصل بها إلى قرارة نفسه.

المرأة الشرقية من حيث ذاتها صديقة الزوج وخادمتة. والمخلصة
إليه. والوفية بعهدة والمنقطعة عن كل شيءٍ سواه. إن تعبتُ ففي قضاء
حاجته. أو تجملتُ بالملابس فلأجله. أو ابتسمتُ فلإدخال السرور
على نفسه. أو بككتُ فلحزنها عليه. أو جزعتُ فللملّة ألت به. وإن
كانت جاهلة لا تعرف طبائع الكائنات. ولا أسرار الموجودات. ولا
عدد الأنهار. ولا أنواع الأشجار. ولا مواقع القارّات من الأرض. ولا
منازل الكواكب في السماء. فكيف يتصور أن رجلاً شرقياً كريمَ
النفس طيبَ العنصر يتمنى أن يرى مكانها امرأة متفرجة لا همَّ لها

إلا نفسها ولذائذها. ولا تنظر إليه إلا بالعين التي كانت تنظر بها
فى صغرها إلى عرائسها ولعبها لا تزال تحفل بها ما صادفت هوى
من نفسها فإن ملّتها وعافتها ففي حوانيت التجار ما لا حصر له من
العرائس والتماثيل.

يظن أحدهم أنه استنزّل ملكا من السماء وأسكنه داره إذا تزوج
زوجة تحمل فى يدها ورقة مختومة بخاتم نظارة المعارف، وهو
وهم باطل نشأ من الاعتقاد أن بين التعليم والتربية تلازما طبيعيا
ولا تلازم بينهما إلا حيث يكون التعليم صحيحا ولا يكون كذلك
إلا إذا كان ممزوجا بالتربية العملية. فإذا استقل بذاته فما هو إلا
صورة تنتقش فى الأذهان لا دخل لها فى الغرائز والملكات. والتعليم
فى مصر من هذا النوع الأخير. يرفع الجهل ولا يغرس الفضيلة فى
نفس المتعلم. لا بل هو فى يد المرأة التي لم تأخذ بنصيب من التربية
الشرقية الصحيحة سلاح تحارب به الفضيلة وتجنّي به على النظام
البيتي جنايةً فظيعةً فما غبطة الرجل بها بعد ذلك.

أنا لا أبغض العلم بل أحبه حبّا جمّا وأحب أن أجالس الشاعر
والكاتب والطبيب والكىماوي والنباتي والفلكي ولكنى لا أحب أن
يكون واحد منهم زوجة لى. لأن الشاعر كبير النفس أنوف عزوف
كثير الأشغال العقلية والخيالات الذهنية. والطبيب لا يقبل أن يحمل
طفلى على كتفه أو يزعج نفسه كل ساعة ببكائه وصريخه. والكىماوي

لا يتحمل دَحان المطبخ فى عينيه ولا يقوى على آلام الخدمة البيتية. والفلكيُّ له من شواغل السماء ما يغنيه عن شواغل الأرض.

أنا لا أكره تعليم المرأة لذاته ولكن أكره أن يكون علمها سبباً في فسادها. ولو خيرتُ بين الجهل والفساد لتمنيت أن أكون من الجاهلين. لأن الصلاح ثمرة العلم. ولا حيا الله شجرة لا تمد ظلاً. ولا تُثمر ثمراً. فهي بالقطع أولى منها بالبقاء. حتى لا تكون عقبة عسراء في طريق السائرين.

ثَقِيل جداً على النفس أن يرى المرء زوجته المتعلمة لا تقرأ من الجرائد إلا الهزلية لتُضحك وتُضحك أترابها ولتتعلم منها أبواب التهكم والتعريض وتحفظ الهجر من القول والسافل من المجون. ولا تقرأ من المجلات إلا باب الملابس والأزياء لتقترح على زوجها كل يوم ما يضيق به ذرعه وجيبه من أثمان الثياب ونفقاتها من حيث لا فائدة له من وراء ذلك سوى أنه يقيم من زوجته معرضاً عاماً في أسواق المدينة تحوم حوله القلوب وتسرح فيه الأبصار. ولا تقرأ من الروايات إلا الغرامية لتستفيد طرق الهيام. ولغة الغرام. ومذاهب العشاق. ومواقف الفراق والتلاق.

هذا كل ما يجده الرجل من أثر العلم فى نفس الزوجة المتعلمة في مصر. فإذا فتش عما وعدوه به من أن الزوجة المتعلمة هي الإنسان الكامل أبا وفضلاً لم يجد لذلك أثراً في نفسها. ولا فى تربية أولادها. ولا فى القيام بحقوق زوجها. فقد وعدوه أنها تحسن القيام على تربية ولدها تربية صحيحة أدبية فوجد أنها تكل أمره إلى الموضع في مهده.

والخادم بعد فطامه. ولا يعنيها من أمره ما يعني الشاة من سخلتها والظبية من طلاها. ووعدوه أنها تحسن إدارة المنزل فوجدها تقسم بياض نهارها بين الحمّام والمرأة. لا تتركه إلا إليها ولا تتركها إلا إليه. فإذا أقبل الليل خرجت مع البازي عليها سواد. والله يعلم أين مصيرها. ووعدوه أنها تحسن القيام بواجب زوجها فوجد أنها تملأ قلبه كل يوم غيظًا وقيحًا بكبريائها وتفرنجها. وفسادها وتمردها.

وليس الذنب في ذلك ذنب العلم، فالعلم لا يوصل إلا إلى الفضائل والمحامد. بل الذنب ذنب التعليم الفاسد والبارد معًا. أما كونه فاسدًا فلأنه غير ممزوج بالتربية العملية التي تجعل للعلم في النفس أثرًا حميدًا. وأما كونه باردًا فلأن الفتاة التي تريد أن تكون زوجة الرجل ومديرة المنزل ووالدة الأطفال لا يناسبها بحال من الأحوال التوسع في العلم بتقويم البلدان. وحقائق الأكوان. وتاريخ الشرق والغرب قديمًا وحديثًا والجذر والتربيع. والتحليل والتركيب. والعناصر والجواهر. والنشوء والارتقاء. وطبقات الأرض والسماء.

هذا ما قصّه عليّ ذلك الصديق الكريم، ثم لم أعد أعلم بعد ذلك ما تم من أمره مع تلك الفتاة المسكينة، ولا ما تم من أمرها مع زوجها حتى جاءني منه أمس ذلك الكتاب بعد مرور عام على تلك القصة الغريبة، وهذا نصه:

سيدي:

يهمني كثيرًا أن أرى بين كتب التهنئة التي ترد إليّ كتابًا منك لأسر بمشاركتك إياي في سروري وهنائي.

إنك لا بد تذكر تلك القصة التي كنت قصصتها عليك منذ عام في شأن تلك الفتاة البائسة التي خانها زوجها «فلان» وغدر بها وهجرها إلى أخرى غيرها بعدما جردها مما كانت تملك يدها وما كان من أمر مجيئها عندي وبث شكواها إليّ، وربما كنت لا تعلم بما كان من أمرها بعد ذلك، فاعلم أنها دفعت زوجها إلى موقف القضاء فضاقت بأمرها ذرعا فطلقها، وكنت أفكر في ذلك التاريخ كما تعلم في الزواج من زوج صالحة أجد السعادة في العيش بجانبها، وما كنت لأجد زوجة أشرف نفسا ولا أكرم عنصرا ولا أذكى قلبا منها، فتزوجتها فامتعت نفسي بخير النساء وأنقذت الإنسانية المعذبة من شقوتها وبلائها، وأبشرك أن الله قد انتقم لهذه الفتاة المظلومة من ذلك الرجل الظالم انتقاما شديدا، فقد حدثني من يعلم دخيلة أمره أنه يعاني اليوم من زوجته الجديدة الموت الأحمر، والشقاء الأكبر، وأنها امرأة قد أخذت التربية الحديثة من نفسها مأخذا عظيما فحولتها إلى فتاة غريبة في جميع شؤونها وأطوارها، والرجل المصري شرقي بفطرته كائننا من كان، أما غربيته فهي متكلفة متعملة يدور بها لسانه ولا أثر لها في نفسه، فهو يقاسي من تلك المرأة الخرقاء، أضعاف ما كانت تقاسيه منه أشرف النساء، والسلام.

في سبيل الإحسان

الإحسان شيء جميل، وأجمل منه أن يحل محله، ويصيب موضعه.

الإحسان في مصر كثير، ووصله إلى مستحقه وصاحب الحاجة إليه قليل؛ فلو أضاف المحسن إلى إحسانه إصابة الموضع فيه لما سمع سامع في ظلمة الليل شكاة بئس، ولا أنة محزون.

ليس الإحسان هو العطاء كما يظن عامة الناس؛ فالعطاء قد يكون نفاقا ورياء، وقد يكون أحبولة ينصبها المعطي لاصطياد النفوس وامتلاك الأعناق، وقد يكون رأس مال يتجر فيه صاحبه ليبدل قليلا ويربح كثيرا.

إنما الإحسان عاطفة كريمة من عواطف النفس تتألم لمناظر البؤس ومصارع الشقاء: فلو أن جميع ما يبذله الناس من المال ويسمونه إحسانا - صادر عن تلك العاطفة الشريفة - لما تجاوز محله، ولا فارق موضعه.

فوضى الإحسان:

الإحسان في مصر فوضى لا نظام له، يناله من لا يستحقه، ويحرم منه مستحقه، فلا يؤسا يرفع، ولا فقرا يدفع، فمثله كمثل السحاب الذي يقول فيه أبو العلاء:

ولأن السحاب همى بعقل لما أروى مع النخل القتادا^(١)

الإحسان في مصر أن يدخل صاحب المال ضريحا من أرضه المقبورين فيضع في صندوق النذور قبضة من الفضة أو الذهب ربما يتناولها من هو أرغد منه عيشا وأنعم بالا، أو يهدي ما يسميه نذرا من نعم وشاء إلى دفين في قبره قد شغله عن أكل اللحوم والتفكه بها ذلك الدود الذي يأكل لحمه والسوس الذي ينخر عظمه، وما أهدي شاته ولا بقرة - لو يعلم - إلا إلى «وزارة الأوقاف» وكان خيرا له أن يهديها إلى جاره الفقير الذي يبيت ليله طاويا يتشهى ظلها^(٢) يمسك رمقه، أو عرقوبا يطفئ لوعته.

وأعظم ما يتقرب به محسن إلى الله، ويحسب أنه بلغ من البر والمعروف غايتهما: أن ينفق بضعة آلاف من الدنانير في بناء مسجد للصلاة في بلد مملوء بالمساجد، حافل بالمعابد، وفي البلد كثير من البائسين وذوي الحاجات، ينشدون مواطن الصلات، لا أماكن الصلوات، أو يبني بنية ضخمة مرفوعة القباب، فسيحة الرحاب، مموهة الجوانب والأركان، مذهبة السقوف والجدران يسميها «سبيلا» ولا يهولنك هذا الاسم الضخم، فكل ما في الأمر أن السبيل مكان يشتمل على حوض من الماء ربما لا يكون بينه

(١) القتاد: شجر صلب له شوك لا فائدة منه.

(٢) ظلف البقرة: ظفرها.

وبين ماء النهر إلا بضع خطوات، على أن الماء كالهواء ملء الأرض والسماء، أو يقف الضياع الواسعة من الأرض لتنفق غلتها على أقوام من ذوي البطالة والجهالة نظير انقطاعهم لتلاوة الآيات، وترديد الصلوات، وقراءة الأحزاب والأوراد، وهو يحسب أنه أحسن إليهم، ولو عرف موضع الإحسان لأحسن إليهم بقطع هذا الإحسان عنهم؛ علمهم يتعلمون صناعة أو مهنة يرتزقون منها رزقا شريفا، فإن كان يظن أنه يعمل في ذلك عملا يقربه إلى الله فليعلم أن الله تعالى أجل من أن يعبأ بعبادة قوم يتخذون عبادته سلما إلى طعام يطعمونه، أو درهم يتناولونه، أو يفتح أبواب منزله لهؤلاء المحتالين المتلصصين الذين يسمونهم مشايخ الطرق، ولو أنصفوهم لسموهم قطاع الطرق، ولا فرق بين الفريقين: إلا أن هؤلاء يتسلحون بالبنادق والعصي، وأولئك يتسلحون بالسبح والمساويك، ثم يسقطون على المنازل سقوط الجراد على المزارع، فلا يتركون صادحا ولا باغما ولا خفا ولا حافرا، ولا شيئا مما تنبت الأرض من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها.. إلا أتوا عليه.

أسوأ الإحسان:

لم أر مالا أضيع ولا عملا أخيب ولا إحسانا أسوأ من الإحسان إلى هؤلاء المتسولين الذين يطوفون الأرض ويقلبونها ظهرا لبطن، ويجتمعون في مفارق الطرق، وزوايا الدروب، وعلى أبواب الأضرحة والمزارات يصمون الأسماع بأصواتهم المزعجة، ويقذون النواظر

بمناظرهم المستبشعة، ويزاحمون بمناكبهم الفارس والراجل،
والجالس والقائم، فلو أن نجما هوى إلى الأرض لهووا على أثره، أو
طائرا طار إلى الجو لكانوا قوادمه وخوافيه^(١).

وإن شئت أن تعرف المتسول معرفة حقيقية لتعرف هل يستحق
عطفك وحنانك، وهل ما تسديه إليه من المعروف تسديه إلى صاحب
حاجة، فاعلم أنه في الأعم الأغلب من أحواله رجل لا زوجة له
ولا ولد ينفق عليهما، ولا مسكن له يحتاج إلى مؤن ومرافق، ولا
شهوة له في مطعم أو مشرب أو ملبس. حتى لو علم أن الانقطاع عن
ذلك الخسيس من الطعام والقدر من الشراب، لا يقعه عن السعي
في سبيله لانقطع عنه، وهو لو شاء أن يتزوج أو يتخذ له مأوى
ياوي إليه لفعل، ولوجد في حرفته متسعا لذلك؛ ولكنه الحرص قد
أفسد قلبه وأمات نفسه، فهو يتوسل بأنواع الحيل وصنوف الكيد،
ليجمع مالا لا فائدة من جمعه، ولا نية له في إصلاح شأنه به إذا
اجتمع عنده ما يقوم له بذلك، بل ليدفنه في باطن الأرض حتى
يدفن معه، أو لينظمه في سلك مرقعته حتى يرثه الغاسل من بعده،
ولقد يبلغ به الحرص الدنيء والشره السافل، أن يحمل في المال ما
لا يستطيع مجاهد أن يحمل مثله في سبيل الله، فيتعمد قطع يده أو
ساقه أو إتلاف عينيه أو إحداهما، ليستعطف القلوب عليه، وكثيرا
ما يحسد صاحبه إذا رآه أكثر منه دمامة، وأعظم تشويها.

(١) القوادم: الريشات التي في مقدم الجناح، والخوافي: التي إذا ضم الطائر
جناحيه خفيت.

كما يحكى أن شحاذا مقطوع الساق قد وضع مكانها أخرى من الخشب تقابل مع آخر كفيف البصر، فتنافسا في مصيبتيهما أيتهما أقذى للأعين، وأقتل للنفوس، وأجلب للرحمة والشققة، فقال الأول للثاني: لقد وهبك الله نعمة العمى ومنحك بسلب ناظريك أفضل حباله لاصطياد القلوب واستفراغ الجيوب. فقال له صاحبه: وأين يبلغ العمى من هذه القدم الضخمة الثقيلة التي تجلب في كل عام وزنها ذهباً؟

إن أكبر جريمة يجرمها الإنسان إلى الإنسانية أن يساعد هؤلاء المتسولين بماله على الاستمرار في هذه الخطة الدنيئة فيغري كل من شعر في نفسه بالميل إلى البطالة وإيثار الراحة بالسعي على آثارهم، والاحتراف بحرفتهم؛ فكأنه قطع من جسم الإنسانية عضوا كاملا، لو لم يقطعه لكان عضوا عاملا، فكأنه هدم بعمله هذا جميع المساعي الشريفة التي بذلها الأنبياء والحكماء قرونا عديدة لإصلاح المجتمع الإنساني، وتهذيب أخلاقه، وتخليصه من آفات الجمود والخمول؛ فهل رأيت معروفا أقبح من هذا المعروف وإحسانا أسوأ من هذا الإحسان؟

تنظيم الإحسان:

ليست كمية المال التي ينفقها المحسنون في سبيل الإحسان مما يستهان به، فلو قال قائل: إنها تبلغ في مصر وحدها كل عام مليوناً من الذهب لما أخطأ التقدير.

سألت رجلا من وجوه الريفيين المعروفين بالبر والإحسان عن كمية ما ينفقه كل عام في هذا السبيل فأطلعني على جريدة حسابه، فرأيتها هكذا:

جنيه

١٠ ولائم لمشايخ الطرق.

٦٠ ليالي في مولد البيومي والعففي والدشطوطي.

٧٢ مرتبات قراءة القرآن والدلائل والصلوات في مسجده ومنزله.

٣٠ هبات لجماعة الطوافين في البلاد الذين يستجدون باسم

المجد القديم والشرف الدائر.

١٨ صدقات للمتسولين على تقدير خمسة قروش يوميا تقريبا.

١٠ توضع في صناديق الأضرحة.

٤٠ ثمن خبز ولحم وملابس توزع في المواسم الدينية.

٢٤٠ المجموع

فهذه أربعون ومائتا جنيه ينفقها في سبيل الإحسان رجل واحد من متوسطي الثروة في عام واحد، في مصر مئات مثله وعشرات يزيدون عليه، وآلاف يقلون عنه، فلا غرابة في أن يقدر هذا النوع من الإحسان بمليون جنيه ينفقه منفقوه على غير شيء سوى إغراء الكسلان بكسله وحمل العامل على ترك عمله، وفي اعتقادي لو أن

هذا المقدار حل من الإحسان محله، وأصاب منه موضعه، وأنفق في سبيل الخيرات النافعة، ووجوه البر الحقيقية، لارتقى بالأمّة المصرية إلى ذروة الكمال، ولكان له الأثر الجليل في وصولها إلى ما تتطلع إليه من هناء العيش وسعادة الحياة.

لذلك أقترح في تنظيم الإحسان اقتراحا نافعا وأدعو الكاتبين الذين لا مصلحة لهم في إثارة الخواطر وتهيج النفوس، وضرب الناس بعضهم ببعض، أن يساعدوني بأقلامهم على تحقيق ما أتمناه في هذا المقترح المفيد.

أقترح أن يقوم جماعة من سراة الأمّة ووجوهها وأصحاب الرأي فيها بتأليف مجتمع في القاهرة يسمى «مجتمع الإحسان» ويكون له في كل مدينة من مدائن الأقاليم فرع تابع له. أما أعماله التي أحب أن يقوم بها بالاتحاد مع فروعه فهي ثلاثة:

١ - استخدام فريق من مهرة الكتاب وفصحاء الخطباء يقومون بتعليم أفراد الأمّة بكل واسطة من وسائل النشر وبكل وسيلة من وسائل التأثير معنى الإحسان، وما هو الغرض منه وما هي أفضل وجوهه، وأي أنواعه أجمع لخيري الدنيا والآخرة.

ب - بذل الجهد في حمل الناس على اعتبار مجتمع الإحسان هذا بيت مال لهم أو وكالة عامة عنهم تتولى جمع الصدقات منهم وتوزيعها على مستحقيها، وحسبها أن تأخذ من كل فرد في كل

عام مجموع ما يحسن به عادة في ذلك العام، فلا يكون بعد ذلك مأخوذاً بشيء من الإحسان أمام ربه، وأمام أمته أكثر مما قدمه لهذا المجتمع.

ج - إنفاق ما يجتمع من المال على تربية اليتامى الذين لا كاسب لهم والقيام بأود العاجزين عن الكسب وتفقد شئون الذين نكبهم الدهر وتنكر لهم بعد العز والنعمة، وصيانة ماء وجوههم أن تراق على تراب الأعتاب، والإنفاق على تعليم من يتوسم فيهم الذكاء والفتنة ويرجى أن تنتفع بهم الأمة في مستقبلها من أبناء الفقراء، إلى أمثال هذه الأعمال الخيرية الشريفة التي لا يتحقق الإحسان بدونها، ولا ينصرف معناه إلا إليها.

أنا أعتقد اعتقاداً لا ريب فيه أن من يخطو الخطوة الأولى في سبيل هذا العمل الجليل، ومن يضع الحجر الأول في بناء مجتمع الإحسان، هو أفضل عامل في الوجود وأشرف إنسان.

التمثيل

جاءني هذا الكتاب من حضرة الكاتب الفاضل محرر جريدة ثمرات الفنون ببيروت. وقد ناشدني الله أن أنشره بنصه فلم أربداً من تلبية طلبه وها هو.

سيدي المنشئ الفاضل.

أحييك بتحية الإسلام. وأبثك الشكر والثناء على ما تزين به صدر المؤيد الأغر من أبحار الأفكار ونفائس الآثار. مما يتلقاه أبناء هذا الثغر بالارتياح والابتهاج حتى إننا حلينا جيد الثمرات. بعدة من هاتيك الدراري اللامعات. فجزاك الله عنا جزاء الخادم لأتمته. المحب لوطنه. الغيور على دينه، وزادك همة ونشاطا في هذا السبيل سبيل الإصلاح والهداية.

ما كتبت إليك هذه الكلمات بقصد الإدلال على فضلك والاعتراف بخدمتك، فإن نفثات قلمك تدل على أنك من ذوي الأخلاق الفاضلة والنفوس الكبيرة الذين لا تغرهم أمثال هذه الزخارف الباطلة، فضلا عن أنك غني بنفسك عن كل مدح وثناء. وإنما كتبت إليك لألفت نظرك الكريم إلى أمر كان له عندنا أثر سيئ في نفوس المسلمين قاطبة وهو عزم المصريين على نصب تمثال لفقيد مصر مصطفى كامل باشا رحمه الله. كأن إخواننا المصريين أصبحوا أغنياء عن كل مشروع علمي أو أدبي أو اجتماعي فلم يبق بين أيديهم ما ينفقون فيه

أموالهم إلا أمثال هذه المشاريع التافهة. أو كأنهم لا يعلمون أنها مُحَرَّمَةٌ في دينهم دين الإسلام. أو كأنه صار من المحتم اللازم علينا أن نقتل الأوربيين في كل ما يعملون شبرا بشبرا وذراعا بذراع. حتى لو دخلوا - كما قال عليه الصلاة والسلام - جحر ضب لدخلناه. أو شربوا نخباً لشربناه. أو صنعوا صنما لصنعناه. كل ذلك يدل أصرح دلالة على أن الجمود ما برح مستحكماً فينا؛ لأن التقليد الأعمى شأن العاجز الضعيف الذي لا يدري بماذا فاقه القوي القادر، فهو يقلده في جميع حركاته وسكناته ظناً منه أنها سر قوته وقدرته. لو أقام المصريون لكل عامل بينهم تمثالاً لعادت مصر إلى عهدها الأول في زمن الفراعنة حيث في كل بقعة هيكل وتمثال. وظنّي أن لو كان المرحوم مصطفى كامل باشا حياً لما رضي عن مشروع كهذا يمس الأمة المصرية في وطنيتها ودينها.

فناشدتك الله يا سيدي أن تنشر كلماتي هذه بنصها على صفحات المؤيد الأغر، فإن اليراع. عندنا معلول. إلى درجة ألف معها الخمول. ولا حول ولا قوة إلا بالله.

محرر ثمرات الفنون
أحمد حسن طباره

هذا نص كتابه وقد كتبت إليه هذا الرد
حضرة الكاتب الفاضل.
قرأت كتابك فهبت عليّ من بين سطوره نسمة شرقية تمر بي

الساعات والأيام والأشهر والأعوام في مصر أترقب هبوبها فلا أجد إليها سييلا.

كتبت إليّ كلمة كان في استطاعتك أن تكتبها في جريدتك ولكن حال بينك وبين ذلك ظن قام في نفسك أن اللسان في مصر أوسع مجالا منه في بيروت وأنتك واحد في بلدنا ما لا تجد في بلدك من حرية الفكر وسعة الصدر. وليتكن تعلم يا سيدي أن كلمتك هذه لم يستطع أن ينطق بها في مصر غير رجلين. فكان نصيب أحدهما السب. والآخر الضرب.

ليتكن تعلم ذلك فلا تبالغ في حسن ظنك بحرية الأقلام في مصر فإنها حرية موهومة لا يغتر بها من يعرف حقيقة الحرية ومن يعتبرها بنتائجها وآثارها. لا بزخارفها وتهاويلها.

نعم لا توجد في مصر شكائهم في أفواه الناطقين. ولا جوامع في أيدي الكاتبيين. ولكن محكمة الرأي العام فيها محكمة وجدانية. أكثر منها قانونية. فهي إما أن تبرئ المتهم فتعلو به إلى مدار الأفلاك. أو تدينه فتهدوي به إلى مقر الأسماك.

إن كثيرا من عقلاء الرجال في مصر يتهيبون التصريح بالحقائق التي يعلمون أنها نافعة لأمتهم أكثر مما يتهيب الكتاب في سوريا من الشكائم والأغلال. ذلك لأن الرأي العام هنا متهور في مذاهبه ومراميه. ظالم في أحكامه، لم يخط إلى اليوم الخطوة الأولى في احترام الآراء وإجلال الأفكار وإنزالها المنازل التي تستحقها.

إن منظر العقلاء في مصر منظر محزن مؤثر يبعث الرحمة. ويستمطر العبرة. إنهم يعالجون من العامة فوق ما يعالج طبيب البيمارستان من مرضاه. إنهم يعانون من مجارة الجاهلين في جهالاتهم وكتمان الحقائق التي تغلي في صدورهم غليان الماء في المرجل ما يُرنق صفاء العيش ويُشوّ وجه الحياة. إنهم في حيرة لا يجدون إلى الخلاص منها سبيلا. إن نطقوا بكلمة إصلاح في الدين سُمّاهم الجاهلون كفارا. أو في السياسة سُمّوهم خونة. وإن سكتوا أغضبوا الله وأغضبوا الحق. فهم بين هذا وذاك كهارب من سبع مفترس لا يجد بين يديه إلا لجة البحر. فالهلاك إن أحجم. والغرق إن أقدم.

ربما تقول إن الصحافة في مصر تملك زمام الرأي العام فكيف تعجز عن إيقاف تياره وكسر شرته وقيادته إلى رشده وهداه. والجواب عن ذلك أن الصحافة المصرية ناقصة نقصا كبيرا مشتملة على عيوب ورذائل لو تجردت عنها بلغت الغاية التي تريدها من تعليم الشعب وتهذيبه وتقويم المعوج من ميوله ومذاهبه.

الكتاب في مصر ثلاثة. جاهل لا يميز بين ما ينفع أمته وما يضرها. وعقل يتهيب مصادرة الرأي العام في مألوفاته ومعهوداته فيسكت مغلوبا على أمره. ومنافق يعرف الحقيقة ويعبث بها. فمن أي واحد من هؤلاء الثلاثة تستفيد الأمة رشدها وهداها؟!

وأكبر هؤلاء الثلاثة جرما. وأشدّهم ضررا. وأسوأهم أثرا ذلك الكاتب المنافق الذي هو أشبه شيء بالنائحة التي تسدل على

وجهها نقابا تتباكى من دونه لتستبكي اللواتي يردن البكاء من النساء، وما في جفنها - يعلم الله - قطرة من الدمع ولا في قلبها لاجع من الحزن، ولكن هكذا قدر لها أن يجري رزقها من بين العبرات والزفرات، وإن شئت فقل إنه كشاعر «القهوات» يسرد على السامعين قصص الوقائع والحروب بين الأبطال الخياليين حتى يثير عواطفهم. ويهيج أحقادهم. فإذا ألقى الفتنة بينهم وضرب بعضهم ببعض خلص من بينهم إلى منزله فرحا مغتبطا برنات الدراهم في كيسه وقد ترك وراءه أولئك المساكين أسرى الهموم والأحزان. قتلى الضغائن والأحقاد.

الكاتب العاقل يخدم عواطف الأمة بتنميتها وتهذيبها وتحويل تيارها إلى الخطة المثلى.. أما الكاتب المنافق فإنه يستخدمها لنفسه وإن أفسدها على صاحبها.

ولقد دخلت مرة على كاتب فعتبت عليه في أنه يكتب غير ما يعتقد ويقول غير ما يعلم وقلت إن خطتك هذه مضرّة بالأمة التي أنت أحد قادتها. وإنك قد سلكت في مذهبك هذا سييلا ما كنا نعرفه لك قبل اليوم. فقد عهدناك تصدع بالحق لا تبالي أغضب الناس أم رضوا. وتجهر به وإن لم تجد آذانا واعية أو صدرا رحيبا. فأطرق طويلا ثم رفع رأسه وأحسب أنني رأيت قطرة من الدمع تتفرق في عينيه وقال: والله ما سلكت هذا السبيل وأنا أعلم أن فيه رضا الله أو رضا الحق ولكني امرؤ لا أعرف لنفسى صناعة غير صناعة القلم

قَبَّحَهَا الله وقبح كل ما تأتي به، وكنت أحسبني أستطيع أن أجمع فيها بين شرف النفس، ورغد العيش. فخاب ما أملت. إذ رأيت نفسي كسفينة ماخرة في بحر زاهر. من شعب قاصر يطلب مني ما يلذه لا ما يفيده. ويتقاضاني في ما يعجبه لا ما ينفعه، فطفقت أرتئي بين أن أرضي الحقيقة فأهلك جوعاً أو أرضي الأمة فأعيش سعيداً. فغلبني حب الحياة على أمري. فلم أر بدءاً من الدخول على الأمة من ذينك البابين المعروفين. باب الوطنية وباب الدين. فاصطنعتهما لنفسي بعدما كنت أصطنع نفسي لهما فرغد عيشي وحسن حالي وأصبحت لا يكدر عليّ صفائي غير الأسف على الحقيقة الضائعة. هذه الأمة المصرية أيها الكاتب الفاضل. وهذه صحافتها، وهذا مبلغ الرأي العام فيها. وهذا موقف العقلاء بين يديه، فهل تظن بعد ذلك أن كاتباً يستطيع أن يقول للأمة ما لا تهوى أو يجرأ على التصريح بحقيقة يعتقدها بين هذا الشعب الهائج وتلك الصحافة المتملقة.

إن كثيراً من عقلاء مصر ينكرون كما تنكر نصب تمثال للمرحوم مصطفى كامل باشا وإن كانوا ممن يعتقدون أنه يستحق الإجلال والإعظام. ويقولون إنه رجل مسلم شرقي والأمة التي تريد نصب تمثال له مسلمة شرقية كذلك. فإسلامها يحرم عليها نصب التماثيل وشرقيتها تنعي عليها هذا التسفل والإسفاف في تقليد الغربيين في جميع عاداتهم ومألفاتهم وهم الذين يترفعون عن

الاعتراف باستحسان شيء من عاداتنا وصفاتنا فضلا عن الأخذ بها أو محاكاتها.

إن نصب الغربيين التماثيل لنوايغ الرجال فلسفة تاريخية أرادوا بها تمثيل التاريخ اليوناني القديم وإنزال عظمائهم ونوابغهم منزلة الآلهة وأنصاف الآلهة في ذلك التاريخ. أي إنها عادة منحوتة من الديانات الوثنية. فهل يجمل بنا معشر المسلمين أمة محمد ﷺ هادم الأصنام وكاسر الأوثان. أن نحفل بعادة هذا منشؤها وتلك غايتها. وأن نستقبل بصدر رحيب نصب التماثيل في بلد هي بقعة الإسلام. وباب البيت الحرام. ومهد الأزهر الشريف ومدفن الصحابة والتابعين. والأئمة المطهرين.

أيجمل بنا أن نتخذ هذه العادات الوثنية في عصر ندعو فيه إلى الإصلاح الديني ومحاربة العادات الخرافية الداخلة في الدين لنرجع به إلى عصره الأول عصر السلف الصالح حيث لا يصلح آخره إلا بما صلح به أوله.

على أنه إن كان الغرض من نصب التماثيل للرجل العظيم تخليد ذكره واستبقاء صورته. مرتسمة في أذهان الأجيال المقبلة حتى لا تنساه فإن جميع رجال الإسلام من علماء الدين إلى علماء الفنون لا تزال محفوظة بين الجوانح مآثرهم ومفاخرهم. مذكورة على الألسنة أسماؤهم وألقابهم. ولا نعرف لواحد منهم صورة مرسومة أو تمثالا قائما.

إن كان في أعمال الرجل وآثاره ما يضمن له بقاء ذكره في صدور الأجيال ومستقبل القرون فلا حاجة به إلى تمثال يخلد ذكره، أو لا، فمن المغالطة التاريخية الاحتياي على بقاء ذكره بنصب تمثاله.

إن المسلمين لم يألّفوا حتى اليوم أن يعتبروا نصب التمثال للرجل عنواناً لعظمته أو جائزة أدبية يكافأ به على عمله. بمعنى أنه لا يوجد فيهم من إذا رأى تمثالاً قائماً يقول ليتني أنفع أمتي أو أخدم وطني فينصب لي بعد موتي تمثال كهذا التمثال. فإذا لا يمكن أن يكون نصب التماثيل في البلاد الإسلامية داعية الجد والاجتهاد في الأعمال. أو باعثاً على التشبه بعظماء الرجال.

ولو شئت لقلت إن للرجل العظيم بعد موته جلالاً في القلوب لا يذهب به إلا نصب تمثاله على قارعة الطريق تحت نظرات الرجال والنساء والأطفال. والأذكى والأغبياء. ومن يعرف قيمة الرجال. ومن يجهل فائدة التمثال. ومن لا يرى فرقاً بينه وبين الصور الخشبية المنصوبة في حوانيت التجار.

وغاية ما يستنتجه السواد الأعظم عند رؤية تمثال لأحد عظماء الرجال معرفة صورته الظاهرية وأنه طويل وقصير. ونحيف أو بدين. وهي اعتبارات لا يعتد بها في رجولة الرجل. ولا علاقة بينها وبين علمه وجهله. وذكائه وغباوته. وجبنه وشجاعته. وإنما تظهر رجولة الرجل واضحة مفهومة حتى للبلدء والأغبياء

في ثمرات عقله. ونتائج أعماله. وفي مكرمة يخلدها أو مدرسة يعمرها. أو كتب يؤلفها. أو عقول يثقفها.

هذه أيها الأخ الفاضل آراء كثير من عقلاء المسلمين في مصر يتحدثون بها في مجالسهم ولا ينشرونها في الصحف مخافة أن تلتصق بهم تهمة الخيانة للوطن وهي الكلمة التي يتسلح بها الكتاب المنافقون في مصر ليحاربوا بها كل من خالفهم في رأيهم. أو نازعهم حرفتهم. كما كان يصنع رجال «الإكليروس» في العصور الوسطى في استخدام تهمة الكفر للفتك بأعدائهم. والانتقام من خصومهم. والله أعلم بالخيانة أين مكانها. وفي أي قلب مستقرها.

أحسن أثر يقام لمصطفى كامل باشا أن تنشأ باسمه مدرسة تُربى فيها الناشئة الحديثة على ما كان يحب الرجل أن يكون عليه النشء الحديث في المعارف والأخلاق والآداب الدينية والمذاهب الوطنية وينتخب لها معلمون متدينون مخلصون لله والوطن يستطيعون أن يقدموا للأمة في كل عام رجالا يكون كل واحد منهم صورة حية من صور الرجل وتمثالا أنفع من تماثيل البرونز والأحجار.

هذا ما أراه أكتبه إليك وأملّي ضعيف أن يحقق الله رجائي فيه ولكنها الحقيقة يجب.

أن تقال كما يجب أن تعلم والسلام عليك ورحمة الله.

أدب المناظرة

أنا لا أقول إلا ما أعتقد، ولا أعتقد إلا ما أسمع صداه من جوانب نفسي؛ فربما خالفت الناس أو بعض الناس في أشياء يعلمون منها غير ما أعلم، ومعدرتي إليهم في ذلك أن الحق أولى بالمجاملة منهم، وأن في رأسي عقلا أجله عن أن أنزل به إلى أن يكون سيققة^(١) للعقول، وريشة في مهاب الأغراض والأهواء.

فهل يجمل بعد ذلك بأحد من الناس أن يرميني بجارحة من القول أو صاعقة من الغضب لأنني خالفت رأيه أو ذهبت غير مذهبه، أو أن يرى أن له من الحق في حملي على مذهبه، أكثر مما يكون لي من الحق في حملي على مذهبي.

لا بأس أن يؤيد الإنسان مذهبه بالحجة والبرهان، ولا بأس أن ينقض أدلة خصمه ويزيفها بما يعتقد أنه مبطل لها، ولا ملامة عليه في أن يتذرع بكل ما يعرف من الوسائل إلى نشر الحقيقة التي يعتقد أنها لا وسيلة واحدة لا أحبها له ولا أعتقد أنها تنفعه أو تغني عنه شيئا، وهي وسيلة الشتم والسباب.

إن لإخلاص المتكلم تأثيرا عظيما في قوة حجته وحلول كلامه المحل الأعظم من القلوب والأفهام، والشاتم يعلم الناس جميعا أنه

(١) السيققة: ما يساق سوقا؛ ومنه «إنما ابن آدم سيققة يسوقه الله».

غير مختص فيما يقول، فعبثا يحاول أن يحمل الناس على رأيه، أو يقنعهم بصدقه، وإن كان أصدق الصادقين.

أتدري لم يسب الإنسان مناظره؟ لأنه جاهل وعاجز معا، أما جهله فلأنه يذهب في واد غير وادي مناظره وهو يظن أنه في واديه ولأنه ينتقل من موضوع المناظرة إلى البحث في شئون المناظر وأطواره وصفاته وطبائعه، كأن كل مبحث عنده مبحث «فسيولوجي»؛ وأما عجزه فلأنه لو عرف إلى مناظره سبيلا غير هذا السبيل لسلكه، وكفى نفسه مؤونة ازدراء الناس إياه وحماها الدخول في مأزق هو فيه من الخاسرين، محقا كان أم مبطلا.

لا يجوز بحال من الأحوال أن يكون الغرض من المناظرة شيئا غير خدمة الحقيقة وتأييدها، وأحسب أن لو سلك الكتاب هذا المسلك في مباحثهم لاتفقوا على مسائل كثيرة هم لا يزالون مختلفين فيها حتى اليوم، وما اختلفوا فيها إلا لأنهم فيما بينهم مختلفون. يسمع أحدهم الكلمة من صاحبه ويعتقد أنها كلمة حق لا ريب فيها، ولكنه يبغيضه فيبغض الحق من أجله فينهض للرد عليه بحجج واهية وأساليب ضعيفة وإن كان هو قويا في ذاته؛ لأن القلم لا يقوى إلا إذا استمد قوته من القلب، فإذا عيَّ بالحجج والبراهين لجأ إلى المراوغة والمهاترة، فيقول لمناظره مثلا: إنك رجل جاهل لا يعتد بآرائك أو إنك مضطرب الرأي لا ثبات لك، تقول اليوم غير ما

قلت بالأمس؛ وهنالك يقول له الناس: رويدا لا تخلط في كلامك، ولا تراوغ في مناظرتك، ولا شأن لك بعلم صاحبك أو جهله، فإنه يقول شيئا، فإن كان صحيحا فسلم به، أو باطلا فبين لنا وجه بطلانه، وهبه قولاً لا تعلم قائله، ولا شأن لك باضطراب صاحبه وثباته، فربما كان بالأمس على رأي تبين له خطؤه اليوم، والمرء يخطئ مرة ويصيب، فإذا ضاق بمناظره وبالناس ذرعا فرّ إلى أضعف الوسائل وأوهنها، فسب مناظره وشتمه وذهب في التمثيل به كل مذهب، فيسجل على نفسه الفرار من تلك الحرب والخذلان في ذلك الميدان.

على أن أكثر الناس متفقون على ما يظنون أنهم مختلفون فيه، فإن لكل شيء جهتين: جهة مدح، وجهة ذم، فإما أن تتساويا، أو تكبر إحداهما الأخرى، فإن كان الأول فلا معنى للاختلاف، وإن كان الثاني وجب على المختلفين أن يعترف كل منهما لصاحبه ببعض الحق، لا أن يكون كل منهما من سلسلة الخلاف في طرفها الأخير.

كان يقع بين ملك من الملوك ووزيره خلاف في مسائل كثيرة حتى يشتد النزاع بينهما وحتى لا يسلس أحدهما لصاحبه في طرف مما يخالفه فيه؛ فحضر حوارهما أحد الحكماء في ليلة من الليالي وهما يتناظران في المرأة، يعلو بها الملك إلى مصاف الملائكة، ويهبط

بها الوزير إلى منزلة الشياطين، ويسرد كل منهما على مذهبه أدلته، فلمّا علا صوتهما واشتد لجاحهما خرج ذلك الحكيم وغاب عن المجلس ساعة، ثم عاود وبين أثوابه لوح على أحد وجهيه صورة فتاة حسناء، وعلى الآخر صورة عجوز شوهاء، فقطع عليهما حديثهما وقال لهما: أحب أن أعرض عليكما هذه الصورة ليعطيني كل منكما رأيه فيها، ثم عرض على الملك صورة الفتاة الحسنة فامتدحها ورجع إلى مكان الوزير وقد قلب اللوح خلسة من حيث لا يشعر واحد منهما بما يفعل وعرض عليه صورة العجوز الشمطاء فاستعان بالله من رؤيتها وأخذ يذمها ذما قبيحا، فهاج غيظ الملك على الوزير وأخذ يرميه بالجهل وفساد الذوق وقد ظن أنه يذم الصورة التي رآها هو. فلمّا عادا إلى مثل ما كانا عليه من الخلاف الشديد استوقفهما الحكيم وأراهما اللوح من جهتيه فسكن ثائرهما وضحكا ضحكا كثيرا، ثم قال لهما: هذا الذي أنتما فيه منذ الليلة، وما أحضرت إليكما هذا اللوح إلا لأضربه لكما مثلا لتعلما أنكما متفقان في جميع ما كنتما تختلفان فيه لو أنكما تنظران إلى المسائل التي تختلفان فيها من جهتيهما، فشكرا له همته، وأثنيا على فضله وحكمته، وانتفعا بحيلته انتفاعا كثيرا، فما كانا يختلفان بعد ذلك إلا قليلا.

الإحسان في الزواج

ورد إليّ في البريد هذا الكتاب بهذا التوقيع :

حضرة السيد الفاضل :

ضمني وجماعة من الأصدقاء مجلس جرى فيه الحديث عن صديق لنا عرف امرأة من البغايا فأخذته الرأفة بها فتزوجها، وكان القوم ما بين مستحسن لهذا العمل ومستهجن له، وطالت مدة الجدل بيننا ساعات، ولم يستطع أحد الفريقين أن يقنع الآخر برأيه، فاتفق رأينا جميعا على أن نكتب إليك بذلك علك تلقي على هذا الموضوع نظرة من نظراتك الصادقة، والسلام.

ف. س

أيها السائل الكريم:

إن كان باعث الرجل على الزواج بهذه البغي شهوة يريد قضاءها من امرأة يعشقها، ولا يرى له سبيلا إلى طول استمتاعه بها والاستئثار بحظه منها إلا هذا السبيل، كما هو شأن الذين يتزوجون من البغايا، فقد أخطأ خطأ جمًّا، لأن من كان هذا شأنه لا يعنيه إلا أمر نفسه، ولا يشغله من شؤون تلك المرأة إلا الشأن الذي يرتبط بشهوته، ويتعلق ببلذته، وآية ذلك أنه لا ينظر بعد اتصاله بها في إصلاحها، ولا يحاول أن ينزع من بين جنببيها ملكة الفساد

الراسخة في نفسها، ولا يداخلها مداخلة المؤدب المذهب الذي يصور في نظرها معيشة الفساد بصورة تنفر منها وتشمئز لها، بل لا يكفيها مؤونة العيش، ولا يرفهها ولا يقلبها في الرغد والنعمة إلا إذا شعر بأن في قلبه بقية من الوجد والشغف بها، فإذا أقفر قلبه من حبها وعلم أن فراقها لا يهيئ له وجدا، ورجوعها إلى عيشها السالف لا يثير منه غيرة، فارقها فارقا هادئا مطمئنا لا يمازجه حزن على فسادها، ولا يخالطه أسف على سقوطها، وهنالك تعود تلك المسكينة إلى عشها الذي طارت منه وقد أمسكت بين جوانحها من الحقد والموجدة على معيشة الصلاح والاستقامة ما الله عالم به.

فالرجل الذي يتزوج من البغي قضاءً لشهوته وإيثارا لذته، لا ينفعها ولا يحسن إليها؛ لأنه لا يهذب نفسها، ولا يفي لها بما عاهدها عليه من البقاء معها، والاستمرار على عشرتها، بل يسيء إليها بسوء تصرفه معها فيبغض إليها الصلاح ويحبب إليها الفساد، وعندي أنه في عمله هذا فاسق لا متزوج، لأنه لو لم ير أن الزواج وسيلة من وسائل الاستئثار والتوسع في الاستمتاع ما سمي الأجر مهرا ولا المتعة عقدا.

فإن كان حقاً ما تقول من أن باعته إلى ذلك الرحمة والرأفة والحنان والشفقة فقد أحسن كل الإحسان، ولا أحسب أن بين أعماله الصالحة عملا هو أفضل عند الله ذخرا وأعظم أجرا، من هذا العمل الصالح.

العرض أثمن من الحياة، فإن كان من يمنح الحياة فاقدها شريفاً، فأشرف منه من يرد العرض الضال إلى صاحبه المفجوع فيه.

ليت الرجال يتفقون جميعاً على أن يستنقذوا بهذه الوسيلة الشريفة كل امرأة ساقها فقرها وعدمها أو فقد عائلها إلى البغاء، بل ليتهم يتفقون على الزواج منهن قبل أن تضيق بهن حلقات العيش فيسقطن.

لم لا يكون باباً من أبواب الإحسان أن يتفقد المحسنون من الرجال الفقيرات من النساء فيتزوجوا منهن أو يزوجهن من أولادهن وأقربائهم، وإن لم يكن من ذوات الجمال أو ذوات النسب؛ لأنه إحسان، والإحسان لا يجمل إلا إذا أصاب موضعه من الشدة ومكانه من الشقاء.

لو عرف المحسنون معنى الإحسان لعرفوا أن إنفاق الأموال على بناء التكايا والزوايا، وتوزيعه على المتسولين والمتكففين، ووقفه على القارئین والذاكرين، لا يدخر لهم من المثوبة والأجر عند الله ما يدخره لهم الإحسان إلى النساء بالعصمة من البغاء.

البغاء للبغيّ شقاء ما جناه عليها إلا الرجل، فجدير به أن يغرم ما أتلف، ويصلح ما أفسد.

يهاجم الرجل المرأة ويعد لها جمعتها ما شاء الله أن يعده من وعد كاذب، وقول خالب، وسحر جاذب، حتى إذا خدعها عن نفسها، وغلبها على أمرها وسلبها أثمن ما تملك يدها، نفذ يده منها وفارقها فراقاً لا لقاء بينهما من بعده.

هناك تجلس في كسر بيتها جلسة الكئيب الحزين، مسبلة
دمعها على خدها ملقية رأسها على كفها، تغلي أناملها التراب، لا
تدري أين تذهب، ولا ماذا تصنع، ولا كيف تعيش!

تطلب العيش من طريق الزواج فلا تجد من يتزوجها؛ لأن
الرجل يسميها ساقطة؛ وتطلبه من طريق العمل فلا تجد ما تحسنه
منه؛ لأن الرجل أهمل شأنها، فلم يعلمها من العلم ما تستعين به
على ضائقة العيش؛ وتطلبه من طريق التسول فلا تجده؛ لأن الرجل
يؤثر أن يمنحها القنطار حراما؛ على أن يمنحها الدرهم حلالا،
فلا تجد لها بدا من أن تطلبه من طريق البغاء.

فها أنت ذا ترى أن شقاء المرأة الساقطة رواية من الروايات
المحزنة، وأن الرجل هو الذي يمثل جميع أدوارها، ويظهر في كل
فصل من فصولها، ومهما حال بيننا وبينه من ذلك الستار المسبل،
فإننا لا نزال نعتقد أن الرجل غريم المرأة، وأن حقا عليه أن يؤدي
دينه، ويغرم أرش^(١) جنايته.

إن أبى الرجل أن يتزوج المرأة بغيا فليحل بينها وبين البغاء،
ولا سبيل له إلى ذلك إلا إذا اعتبر الزواج بابا من أبواب الإحسان،
أي إنه يتزوجها لها أكثر مما يتزوجها لنفسه، وأحق النساء
بالإحسان أولئك اللواتي سلبهن الله نعمة الجمال والمال، وحلية
الحسب والنسب؛ فإن أبى إلا أن يتزوج المرأة السعيدة، فليذكر أنه

(١) الأرش: دية الجراحات.

هو الذي أخذ الشقية من يدها، وساقها بنفسه إلى موطن الشقاء،
ورماها بيده في هوة الفسق والبغاء.

لا همجية في الإسلام^(١)

أيها المسلمون: إن كنتم تعتقدون أن الله سبحانه وتعالى لم يخلق المسيحيين إلا ليموتوا ذبحاً بالسيوف وقطعاً بالرماح، وحرقاً بالنيران، فقد أسأتم بربكم ظناً، وأنكرتم عليه حكمته في أفعاله وتدبيره في شئونه وأعماله، وأنزلتموه منزلة العابث اللاعب الذي يبني البناء ليهدمه ويزرع الزرع ليحرقه، ويخييط الثوب ليمزقه، وينظم العقد ليبدده.

لم يزل الله سبحانه وتعالى مذ كان الإنسان نطفة في رحم أمه يتعهده بعطفه وحنانه. ويمده برحمته وإحسانه، ويرسل إليه في ذلك السجن المظلم الهواء من منافذه، والغذاء من مجاريه، ويذود عنه آفات الحياة وغوائلها: نطفة، فعلقة، فمضغة، فجنينا، فبشراً سوياً.

إن إلها هذا شأنه مع عبده، وهذه رحمته به وإحسانه إليه، محال عليه أن يأمر بسلبه الروح التي وهبه إياها، أو يرضى بسفك دمه الذي أمده به ليجري في شرايينه وعروقه لا ليسيل بين تلال الرمال وفوق شعاف الجبال.

في أي كتاب من كتب الله، وفي أي سنة من سنن أنبيائه ورسله، قرأتم جواز أن يعمد الرجل إلى الرجل الآمن في سربه، القابع في

(١) كتبت لمناسبة ما أشيع من هياج المسلمين على المسيحيين في ولاية أضنة من ولايات الدولة العثمانية وقتلهم إياهم وتمثيلهم بهم عام ١٩٠٩م.

كسر بيته، فينزع نفسه من بين جنبيه، ويفجع فيه أهله وقومه، لأنه لا يدين بدينه، ولا يذهب مذهبه.

لو جاز لكل إنسان أن يقتل كل من يخالفه في رأيه ومذهبه، لأفقرت البلاد من ساكنيها وأصبح ظهر الأرض أعرى من سراة أديم. إن وجود الاختلاف بين الناس في المذاهب والأديان والطبائع والغرائز سُنَّةٌ من سنن الكون، لا يمكن تحويلها ولا تبديلها؛ حتى لو لم يبق على ظهر الأرض إلا رجل واحد، لجرد من نفسه رجلاً آخر يخاصمه وينازعه ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ (سورة النحل: ٩٣).

إن الحياة في هذا العالم كالحرارة لا تنتج إلا من التحاك بين جسمين مختلفين، فمحاولة توحيد المذاهب والأديان محاولة القضاء على هذا العالم وسلبه وروحه ونظامه.

أيها المسلمون: ليس ما كان يجري في صدر الإسلام من محاربة المسلمين للمسيحيين كان مراداً به التنشفي والانتقام منهم، أو القضاء عليهم، وإنما كان لحماية الدعوة الإسلامية أن يعترضها في طريقها معترض أو يحول بينها وبين انتشارها في مشارق الأرض ومغاربها حائل، أي أن القتال كان ذوداً ودفاعاً لا تشفياً وانتقاماً.

وآية ذلك أن السرية من الجيش ما كانت تخطو خطوة واحدة في سبيلها الذي تذهب إليه حتى يصل إليها أمر الخليفة القائم ألا تزج الرهبان في أديرتهم، والقساوسة في صوامعهم، وألا تحارب

إلا من يقاومها ولا تقاتل إلا من يقف في سبيلها، ولقد كان أخرى أن تسفك دماء رؤساء الدين المسيحي وتسلب أرواحهم لو أن غرض المسلمين من قتال المسيحيين كان الانتقام منهم، والقضاء عليهم.

لو أنكم قضيتم على كل من يتدين بدين غير دينكم حتى أصبحت رقعة الأرض خالصة لكم، لانقسمتم على أنفسكم مذاهب وشيعا، ولتقاتلتكم على مذاهبكم تقاتل أرباب الأديان على أديانهم، حتى لا يبقى على وجه الأرض مذهب ولا متمذهب.

أيها المسلمون: ما جاء الإسلام إلا ليقضي على مثل هذه الهمجية والوحشية التي تزعمون أنها الإسلام.

ما جاء الإسلام إلا ليستل من القلوب أضغانها وأحقادها، ثم يملؤها بعد ذلك حكمة ورحمة، فيعيش الناس في سعادة، وهناء وما هذه القطرات من الدماء التي أراقها في هذا السبيل إلا بمثابة العمل الجراحي الذي يتذرع به الطبيب إلى شفاء المريض.

عذرتكم لو أن هؤلاء الذين تريقون دماءهم كانوا ظالمين لكم في شأن من شؤون حياتكم، أو ذاهبين في معاشرتكم والكون معكم مذاهب سوء تخافون مغبتها، وتخشون عاقبتها، أما والقوم في ظلالكم والكون تحت أجنحتكم أضعف من أن يمدوا إليكم يد سوء، أو يبتدروكم ببادرة شر، فلا عذر لكم.

عذرتكم بعض العذر لو لم تقتلوا الأطفال الذين لا يسألهم الله عن دين ولا مذهب قبل أن يبلغوا سن الحلم، والنساء الضعيفات اللواتي

لا يحسن في هذه الحياة أخذًا ولا رداً، والشيوخ الزاحفين وحدهم إلى القبور قبل أن تزحفوا إليهم، وتتعجلوا قضاء الله فيهم.

أما وقد أخذتم البريء بجريرة المذنب فأنتم مجرمون لا مجاهدون، وسفاكون لا محاربون.

من أي صخرة من الصخور، أو هضبة من الهضبات، نَحَتُّ هذه القلوب التي تنطوي عليها جوانحكم، والتي لا تروعها أنات الثكالى، ولا تحركها رنات الأيامى؟

من أي نوع من أنواع الأحجار صيغت هذه العيون التي تستطيعون أن تروا بها منظر الطفل الصغير والنار تأكل أطرافه وتتمشى في أحشائه على مرأى ومسمع من أمه، وأمّه عاجزة عن معونته، لأن النار لم تترك لها يدًا تحركها، ولا قدماً تمشي عليها؟

لا أستطيع أن أهنتكم بهذا الظفر والانتصار؛ لأنني أعتقد أن قتل الضعفاء جبن وعجز ولؤم ودناءة، وأن سفك الدماء بغير ذنب ولا جريرة وحشية أخرى أن يُعزَى صاحبها، لا أن يهنأ بها.

أيها المسلمون: اقتتلوا المسيحيين ما شئتم وشاءت لكم شراستكم ووحشيتكم، ولكن حذار أن تذكروا اسم الله على هذه الذبائح البشرية فالله سبحانه وتعالى أجلُّ من أن يأمر بقتل الأبرياء، أو يرضى باستضعاف الضعفاء، فهو أحكم الحاكمين، وأرحم الراحمين.

البخيل

سألني سائل: ماذا يستفيد الإنسان من بخله حتى على نفسه؟
وأي غرض يرمي إليه من ذلك؟ فأجبت بهذا الجواب:
البخل إحدى الملكات النفسية، والملكة صفة راسخة في النفس
تصدر عنها آثارها عفوا بدون روية ولا اختيار، فكما لا يسأل
المسرف عن سبب إسرافه، والغاضب عن غايته من غضبه، والحاسد
عن غرضه من حسده، كذلك لا يُسأل البخيل عما يستفيده من بخله
وحرصه، فكثيرا ما تعرض لأرباب هذه الملكات عوارض تنزع بهم
إلى الرغبة عن التخلي عنها حيناً، فلا يجدون إلى ذلك سبيلاً،
لمكان تلك الملكات من نفوسهم، ونزولها منها منزلة لا تزعجها
الرغبات، ولا تززعها الإرادات، وربما عرض للبخيل ما يدفعه
إلى بذل شيء من ماله، فإذا وضع يده في كيسه وحاول القبض على
شيء مما فيه، أحس كأن تياراً كهربائياً قد سرى من نفسه إلى يده
فتشنجت أعصابها وتصلبت أناملها وأُعيت على الالتواء والانثناء،
فأخرجها صفراً كما أدخلها، وبودّه أن لا يفعل لولا أن للغريزة قوة
فوق قوة الإرادة، وسلطانا تخضع له الرغبات وتنقاد إليه العقول،
إلا إذا كان وراءها وازع من القانون يزعها؛ فإنه يكسر شررتها
أحياناً، وإن لم ينتزعها انتزاعاً.

ويحكى أن شحيحا تحركت في قلبه يوما الشفقة على ابنته الجائعة العارية، فأراد نفسه على أن يبذل لها شيئا من ماله فتأبّت عليه، فأذن لوكيله أن يختلس لها من ماله ما يسد خلقتها من حيث لا يعلمه بذلك ولا يدعه ينتبه لشيء منه، علما بأنه لا يستطيع أن يكون كما يريد.

فالوجه في السؤال أن يقال: ما هي الأسباب التي غرست ملكة البخل في نفس البخيل؟ فيكون الجواب عن ذلك: أن الأسباب تختلف باختلاف الأشخاص وأطوارهم وأخلاقهم وتربيتهم، ونحن نذكر أهم تلك الأسباب من حيث ذاتها بقطع النظر عن افتراق ما يفترق منها واجتماع ما يجتمع.

الأول - الوراثة: وهي إن كانت سببا ضعيفا لما يعرض للأخلاق الموروثة أحيانا من التغير والانقلاب بمعاشرة المتصفين بأضدادها والتأثر بمخالطتهم، إلا أنها كثيرا ما تنمو وتتجسم إذا أغفلت ولم يعترضها ما يسد سبيلها ويقف في طريق نمائها.

الثاني - التربية: إذا نشأ الطفل بين أهل أشحاء ولم يكن في فطرته ما يقاوم سلطان التربية على نفسه، أخذ إخذهم في الحرص، وتخلق فيه بأخلاقهم كما يتخلق بها في العقائد والعادات من حيث لا يفكر في استحسان أو استهجان، كأنما هي عدوى الأمراض التي تسري إلى الإنسان من حيث لا يدري بها ولا يشعر بمرئيتها.. ويحكى أن رجلا دخل منزلا يعرف أهله بالشح والحرص، فرأى

طفلا صغيرا في يده ليمونة، فطلب إليه أن يعطيه إياها، فأجابه الطفل «إن يدك لا تسعها»!

الثالث - سوء الظن بالله: ذلك أن المتدين إذا أخذت عقيدة القضاء والقدر من نفسه مأخذها رسخ في قلبه الإيمان بأن الله سبحانه وتعالى عينا ساهرة على عباده الضعفاء، فهو أرحم من أن يغفل شأنهم ويكلهم إلى أنفسهم ويسلمهم لصروف الليالي وعاديات الأيام، فلا يلجُّ به الحرص على الجمع، ولا يزعجه الخوف من البذل، وعلى العكس منه ضعيف الإيمان، ضعيف الثقة بواهب الأرزاق ومقسم الحظوظ والجدود، فهو لسوء ظنه لا يزال الخوف من الفقر نصب عينيه حتى يصير البخل ملكة راسخة فيه.

الرابع - النكبات: كثيرا ما تحل بالإنسان نكبات تصهر قلبه وتزعج غريزته عن مستقرها؛ ومن ذلك النكبات التي يكون مرجعها قلة المال، كأن يقع الرجل في خصومة يرى أنه لولا ضيق ذات يده لما وقع في مثلها، فكلما تمثلت له نكبته لج به الحرص وأغرق في المنع، حتى يصير ذلك غريزة فيه وخلقاً ثابتاً له؛ ومن ذلك جديد النعمة الذي ذاق مرارة الفقر حقبة من الزمان وكابد منه ما كابد من الآلام والأوجاع، فإنه مهما حسنت حاله وانتعشت نفسه وفاضت خزائنه بالذهب لا تذهب من فمه تلك المرارة، ولا تضيع من ذاكرته آلامها. فلا يزال يملك قلبه وسواس مقلق يخيل إليه ما لا يُتخيل، ويريه ما لا يرى، كمن تمثل له خيال الشيطان مرة في أبشع صورة وأفظع شكل فهاله منظره، وذهب الخوف منه برشده، فلا يزال

يراه في كل مكان وزمان، وفي حالتي الأمن والخوف، والوحشة والأنس.

الخامس - اللؤم: فإن النفس إذا خبثت طينتها ولؤم طبيعتها، كان من أخص صفاتها الحقد على الوجود بأجمعه، وبغض الخير للناس قاطبة، فكيف يمنحهم من ذات يده ما يزيده ألما على ألم، وحسرة فوق حسرة، وهو لو استطاع أن يمنع عنهم سارية السماء، ويعترض دونهم نابتة الأرض لفعل.

السادس - سقوط الهمّة: إذا نشأ الإنسان عالي الهمّة طموحا إلى المعالي محبا للذكر الحسن والثناء الجميل، سهل عليه أن يبذل في سبيل ذلك كل ما يستطيع بذله من ذات يده أو ذات نفسه، وحب المجد، أسال الذهب من خزائن الأغنياء، وصير نفوس الشجعان نهبا مقسما بين شفرات السيوف، وأسنة الرماح، طلبا لسعادة الحياة بالذكر، وسعادة الممات بالخلود. فمن لساقط الهمّة ضعيف النفس بدافع يدفعه إلى بذل المال على مكانته الراسخة من قلبه، وامتزاج حبه بلحمه ودمه، أيدفعه حب الثناء، وهو لا يشعر بلذته؟ أو خوف المذمة، وهو لا يتألم منها، ولا يحس بمرارتها؟ أم سعادة الحياة وسعادة الممات؟ وهو لا يفهم للسعادة معنى غير ما فهمه الزبرقان بن بدر حينما قنع على لسان الحطيئة من المكارم بلقمة يعضها، وحلة يلبسها.

السابع - فساد المجتمع الإنساني: ذلك أن كثيرا من الناس قد بلغ بهم حب المال والتعبد له أن صاروا يعظمون صاحبه لا لفائدة

يرجونها، أو خير يطمعون فيه، بل لأنه ذو مال، وذو المال في نظرهم أحق الناس بالمحبة والإكرام والإجلال والإعظام، وإن لم يحصلوا منه على طائل، فلو أنهم عبدوا الله سبحانه وتعالى بهذا النوع من العبادة ساعة واحدة لأصبحوا من عباده المقربين، فمن ذا الذي لا يحب من البخلاء أن ينال هذه المنزلة في نفوس هؤلاء المتملقين وليس بينه وبينها إلا الحرص على ما فى يده، وهو عمل يتكلفه ولا يتعمل له، بل هو أشهى الأشياء إليه، وأكثرها ملاءمة لفطرته؛ ليزداد شرفا وعزا، كلما ازداد ثراء ووفرا، ومن هنا قال أحد البخلاء لأولاده: يا بني لأن يعلم الناس أن عند أحدكم مائة ألف درهم أعظم له في أعينهما من أن يقسمها فيهم، وقال رجل لآخر: يا بخيل؛ فقال له: لا أحرمني الله بركة هذا الاسم؛ فإني لا أكون بخيلا إلا إذا كنت غنيا، فسم لي المال ولقبني بما تشاء.

هذه هي أهم الأسباب التي تألفت منها رذيلة البخل؛ فإن أغفلنا النظر إليها وسلمنا للسائل صحة سؤاله عما يستفيد البخل من بخله، حتى على نفسه وفرضا البخل مختارا فيما يفعل غير مساق إلى هذا المورد الوبيل بسائق الغريزة الفاسدة، كان منال النجم أقرب من تطبيق حاله هذه على قاعدة من قواعد العقل؛ لأن الله تعالى خلق الإنسان وركب فيه رغبات وشهوات مختلفة، بعضها نفسي، والآخر جسدي؛ فهو لا يزال يتطلبها ما لم يعجز عنها، فصاحب المال الكثير الذي يقنع بالشملة والمضغة، والجرعة والظلة، ويحمل

في كل لحظة أشد الآلام من مقاومة نزوات نفسه ونزعاتها إلى ميولها ورغباتها، لا يمكن أن يحمل حاله على محمل العجز، لأنه قادر؛ ولا على الزهد، لأنه ما زهد فيما لا ينفع فيزهد فيما ينفع؛ ولا على الخوف من الفقر، لأن عنده من المال ما يفني الأعمار، فهيهات أن يفنيه عمر واحد، ولا على رغبة في سعادة الذرية، لأن محبة الأب لولده لا يمكن أن تزيد على رغبته في أن يراه شريكا له في سعادته؛ فأما أن يشقى في حياته، ليسعد ولده بعد مماته، فما لا يقبله العقل، ولا يدخل في دائرة من دوائر الفهم، فلم يبق لنا إلا أن نتوسل إلى علماء النفس أن يأذنوا لنا بالتوسع في تفسير معنى الجنون، حتى لا يكون مقصورا على المعربين والهاذين، بل يكون شاملا للعابثين الذين لا يدرون ما يأخذون وما يدعون، والذين يجلبون لأنفسهم بإرادتهم واختيارهم آلاما نفسية هي أشد ما يجلبه المجانين على أنفسهم بمناطحة الجدران ومطاردة الصبيان، كما نتوسل إلى علماء الشرائع أن يضعوا قانونا لاستخراج المال من خزائن المقترين كما وضعوا قانونا لحفظ المال في صناديق المبذرين؛ فإن تبذير المال يضر قوما وينفع أقواما، أما حبسه فيضر صاحبه، ويضر معه الناس أجمعين.

الفهرس

٣	إهداء الكتاب
٥	الخطبة
٧	كلمات الكتاب عن النظرات
...	ترجمة الكاتب بقلم حضرة الكاتب المشهود أحمد بك حافظ عوض
٢٠	
٤٣	مقدمة
٨٥	الدفين الصغير
٩٠	روح الاجتماع
١٠٣	مناجاة القمر
١٠٥	الماس بيراً
١٠٧	الغد
١١٠	الكأس الأولى
١١٥	أين الفضيلة؟
١٢١	الغني والفقير
١٢٤	عبرة الدهر
١٣٣	مدينة السعادة
١٤٣	إلى الدير
١٤٩	الرحمة

١٥٦.....	رسالة الغفران
١٦٨.....	أفسدك قومك
١٧١.....	الصدق والكذب
١٨١.....	النظامون
١٨٧.....	عبرة الهجرة
١٩٠.....	الإنصاف
١٩٢.....	المدنية الغربية
١٩٧.....	يوم الحساب
٢٠٥.....	الشجرة البيضاء
٢١٠.....	الصيد
٢١٦.....	الانتحار
٢١٩.....	الجمال
٢٢١.....	الكذب
٢٢٣.....	غرفة الأحزان
٢٣٠.....	المرقص
٢٣٥.....	الشرف
٢٣٩.....	الحب والزواج
٢٤٤.....	الإسلام والمسيحية
٢٥٤.....	أهناً أم عزاء
٢٥٦.....	الزوجتان

٢٦٦.....	في سبيل الإحسان
٢٧٤.....	التمثيل
٢٨٣.....	أدب المناظرة
٢٨٧.....	الإحسان في الزواج
٢٩٢.....	لاهمجية في الإسلام
٢٩٦.....	البخيل

طبع بمطابع دار المعارف

